النبي الديمقراطي

دراسات في الملامح الديمقراطية في كفاح الرسول

محمد حبش

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

آل عمران: ١٥٩

الدين النصيحة...

قلنا لمن يا رسول الله؟

قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم[1].

[1] النصح إبداء الرأي والنصيحة والمشورة، ونقدمها لله في الدعاء، وللرسول في المشورة، وللقرآن في التنزيل والتأويل، وللأئمة والحكام في إخلاص النصيحة، وللناس في الدعوة، وهذا كله نسميه: المشاركة الديمقراطية.

أيها الناس... إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار

رواه البخاري عن أم سلمة

الباب التمهيدي

نقطة نظام

قد يبدو صادماً أن تستخدم عنواناً كهذا في وقت لا تزال كثير من المؤسسات الإسلامية لا تؤمن بالديمقراطية، وترى فيها انحرافاً عن نهج النبوة، وهو المعنى الذي دفع طلائع الإسلام السياسي في الخمسينات إلى رفض الديمقراطية واتهام البرلمانات بأنها أوثان القرن العشرين والدعوة إلى وجوب البراءة منها ومن تبعاتها التشريعية التي تم توصيفها بأنها مناوأة مباشرة للشرع.

ومع أن هذه الأصوات خفتت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، ولكنها اليوم عادت تحظى بجمهور كبير بعد البؤس الذي عاد به الربيع العربي في الدول المنكوبة، الأمر الذي رسم صورة سوداء للآمال الديمقراطية، وبالتالي أساء غاية الإساءة للحوار الإسلامي الديمقراطي، والحوار بين المسلمين والعالم، وعزز فرص التطرف والراديكالية وبالتالي أعاد المشروع الديمقراطي عدة عقود إلى الوراء في الشرق الأوسط.

لقد اخترنا هذا العنوان قناعة بالبرنامج الديمقراطي الذي قاده رسول الله في كفاحه السلمي النبيل، وأردناه عنواناً صادماً يحفز العقل ويفتح آفاق الحوار إلى الغاية، بهدف رسم الحدود الواضحة بين الديمقراطية وبين الاستبداد.

ويجب القول أن الديمقراطية ليست موقفاً إيديولوجياً يلزم صاحبه بخيار فلسفي محدد، إنه برنامج تشاركي في الحكم، ويمكن أن يكون صفة لأشكال الحكم كافة من اشتراكية وراسمالية وليبرالية وبراغماتية ووجودية ودينية، وهي كلمة مضادة للاستبداد الذي يتبرؤ منه الجميع، وإن وصف النبي الكريم بهذه الصفة لا يلقي عليه أي ظلال في المنهج والفكرة، وهو كما لو قلنا النبي الإداري أو النبي الحكيم أو المتواضع، فهي أوصاف أخلاقية كريمة لا تحمل مضموناً فلسفياً محدداً، بخلاف ما لو قلنا الرأسمالي أو

الاشتراكي أو البراغماتي أو الشيوعي أو الوجودي فهذه أوصاف لها حمولة إيديولوجية محددة، وقد لا تنطبق ضرورة على النبي الكريم.

إنها باختصار شكل من الإدارة والحكمة والمشاركة في بناء الحياة، وإنما نستخدم المصطلح الأجنبي لأنه غدا مصطلحاً عالمياً عابراً للثقافات واللغات، وقد اكتسب غناه وثروته واتساعه عبر القرون وعبر استخدام الحضارات المختلفة، فصار وصفاً جامعاً يستخدم في العالم كله للتعبير عن العدالة السياسية.

تأمل هذه الدراسة أن تضيء جوانب مجيدة من كفاح الرسول الكريم بوصفه قائداً ديمقراطيا حقيقياً عمل بصدق وشجاعة من أجل خدمة الإنسان، وناضل ضد الاستبداد والثيوقراطية والأوتوقراطية، وكافح من أجل مجتمع عدالة وحرية وديمقراطية يؤمن بإخاء الأديان وكرامة الإنسان.

تمهيد

أعلن النبي الكريم ولادة دولة المدنية تتويجاً لنضال ديمقراطي فريد استمر ثلاثة عشر عاماً واكتمل في يوم خالد مطلع ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة الموافق 9/24/ 622 ميلادية، يوم غنّت صبايا المدينة في يوم سلام وفرح وزهور احتفالاً بقيام الدولة الإسلامية الأولى الأغنية الرائعة: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع!

لقد شهد المشروع النبوي لبناء دولة المدنية والعدالة خمس محاولات متتابعة، اتصفت كلها بالسلمية التامة، وقد أخفقت أربعة منها فيما كتب للخامسة النجاح والنصر.

كانت أول محاولة لإقامة الدولة المسلمة في مكة المكرمة، وكانت مكة هي الأرض المناسبة للتبشير بالرسالة فهي قبلة إبراهيم ومحج العرب وبلد الكعبة والركن والمقام وفيها مشاعر العرب ومآثر العرب وأسواق العرب.

ولكن هذه المحاولة واجهت صدوداً كبيراً من قبل سراة قريش، وحين تيقنوا من طبيعة المشروع الجديد الهادف إلى قيم الحرية والعدالة والمساواة رفضوا ذلك بشكل قاطع، وكانت معظم اعتراضاتهم على المشروع النبوي أنه دعوة رعاع لا تقيم شأنا للامتيازات القبلية وأنه يسوي بين السادة والعبيد.

بعد عشر سنوات من المحاولة لم ينجح مشروع الرسول الكريم في قيام الدولة الإسلامية وحاصرت قريش المشروع بضراوة وقتلت عدداً من المؤمنين واضطهدت بشكل وحشي عدداً من العبيد والنساء، وحاصرت المؤمنين في شعب ضيق، وخططت بشكل جدي لقتل الرسول نفسه مما اضطره للخروج من مكة.

أما المحاولة الثانية فقد كانت في الحبشة، في السنة السادسة للمبعث، ومع أن الهجرة كانت بهدف الخلاص من الاضطهاد والظلم الذي مارسته قريش، ولكنها كانت أيضاً بهدف استطلاع أرض الحبشة لاستقبال الدين الجديد، وفي هذا السياق فقد أوفد النبي

الكريم عدداً من كبار رجال مكة وأشرافها كجعفر بن أبي طالب وعثمان بن عفان، مع المهاجرين المضطهدين، ولم يكن الرجلان بحاجة إلى هجرة فالأول ابن أبي طالب والثاني زعيم أموي، وكانت رسالتهما في البحث عن إمكانية استقبال الحبشة للرسالة وعلى الرغم من النجاح الكبير الذي صادفه المهاجرون والصلة العميقة التي بنوها مع الملك نفسه، ولكن تأكد في النهاية أن الحبشة تصلح أرض لجوء لا أرض هجرة.

أما المحاولة الثالثة فقد كانت في الطائف في السنة العاشرة للمبعث، وذلك عقب موت أبي طالب حامي الرسالة في مكة، حيث اشتد أذى قريش للرسول وهمت باغتياله عدة مرات، وتحت هذه الظروف القاسية فقد ذهب الرسول الكريم إلى الطائف بنفسه، وكانت الطائف تعتبر المدينة المنافسة لمكة، وكان فيها عدد من الحنفاء الذين يؤمنون بوحدانية الله وينبذون الأصنام، وقد رجا رسول الله أن يكون في الطائف من يؤيد الرسالة وينصرها، ولكن الطائف رفضت الرسالة ورفضت الرسول، وطردت النبي الكريم من الطائف ولم تقبله حتى كلاجئ سياسي وأغْرَت صبيانها وسفهاءها فضربوه بالحجارة حتى سال الدم من رأسه إلى أخمص قدميه.

أما المحاولة الرابعة فكانت صوب الحيرة وقد التقى النبي الكريم في موسمين متتاليين بزعماء الحيرة هانئ بن قبيصة والمفروق بن عمرو والمثنى بن حارثة الشيباني، وعرض عليهم استقبال الرسالة في الحيرة، وكان يرجو أن ينطلق برسالته من العراق من أرض جده إبراهيم حيث يكون أقرب إلى الحضارة المتتابعة، ولكن القوم بعد أن نظروا طويلاً في الأمر اعتذروا للرسول الكريم، وقالوا: إن هذا الأمر الذي تدعو إليه لهو الذي تكرهه الملوك، وإن من قِبَلِنا كسرى، وإن بيننا وبينه عهوداً ما نحن بقاطعيها، ولم تصل المفاوضات إلى نتيجة إيجابية واكتفى القوم بإعلان احترامهم للرسول دون موافقة على حماية الرسول والرسالة.

أما المحاولة الخامسة فكانت صوب يثرب، وقد استمر الإعداد لها ثلاثة مواسم متتالية بدءاً من موسم الحج في السنة الحادية عشرة للمبعث حيث التقى الرسول وفد الخزرج

برئاسة إياس بن معاذ، الذي توفي بعد ذلك في ظروف غامضة، وكذلك صاحبه أبو الحيسر، وفي العام التالي حضر اثنا عشر رجلاً من الأنصار فبايعوا النبي الكريم بيعة العقبة الأولى، وأوفد معهم مصعب بن عمير الذي سيبدأ في المدينة نشاطاً دعوياً سلمياً حثيثاً مع أسعد بن زرارة وعدد من وجهاء يثرب، وقد نجح الفريق المهاجر في نشر الدعوة بشكل واسع في يثرب، وفي العام التالي حضر إلى مكة وفد بالغ الأهمية يضم اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين، وكانت بيعة العقبة الثانية الكبرى التي أسست لقيام دولة المدينة، وانطلقت بعد ذلك بايام رحلة الهجرة إلى المدينة التي بداها الصحابة، واكتملت بهجرة الرسول الكريم بعد نحو شهرين.

لا أبتغي هنا تقديم سرد للسيرة النبوية ولكنني معنيّ بجانب واحد وهو أن الرسول الكريم في هذه المحاولات الخمس لم يستخدم إلا الدعوة والحوار والحجة والموعظة الحسنة، وعلى الرغم مما واجهه من صدود واضطهاد واعتداء وقتل لعدد من الصحابة فإنه أصر على مبادئه السلمية، ونقول بكل ثقة إنه ليس في كتب المؤمنين بالرسالة ولا في كتب الكارهين للرسالة أي رواية صحيحة أو حسنة أو ضعيفة تشير إلى أن رسول الله استخدم في محاولاته الخمس أي قطعة من السلاح، ولا حتى سكين مطبخ، ولم يلجأ إلى أي لون من العنف!!.

ولا يستطيع أحد على الإطلاق أن يشير في أي سياق أن الرسول الكريم قام بإرسال أفراد مسلحين للقيام بأعمال معينة لتخفيف الضغط المرير والحصار الذي كان يعانيه، ولا حتى للإفراج عن الأسرى من المستضعفين الذين كانت قريش توثقهم في الحديد.

كما أنه لم يشأ أن يعلن دولته في المدينة بعد العقبة الأولى حيث كان عدد المسلمين قليلاً، وإنما أعد بعناية وصبر مشروعه السلمي ولم يتوجه إلى المدينة ولم يعلن دولته فيها إلا بعد أن صار يشكل بكل يقين أغلبية مريحة في المدينة تتجاوز خمسين بالمائة، وتسمح له بإعلان حكم ديمقراطي ترسمه الأغلبية.

وتسمح لنا هذه الحقائق الاتفاقية التي لا يوجد حولها أي جدلٍ بين المؤمنين وغير المؤمنين، وبين الدراسات الروائية والدراسات التحليلية وكذلك الدراسات الاستشراقية، تسمح لنا هذه الحقائق الاتفاقية أن نقول بثقة إن النبي الكريم مارس نضالاً ديمقراطياً سلمياً نظيفاً تماماً في قيام دولته وإعلان رسالته.

وبعد أن نجح سلمياً في بناء الدولة على الأرض، أعلن عن قيام جيشه الوطني بعد ذلك تحت عنوان جيش الجهاد، ليقوم بواجبه في الدفاع عن الدولة والناس، وتأمين حماية الثغور، وكل ما روي عن الرسول في العنف فهو بعد قيام الدولة وليس قبل قيامها، فالدولة هي التي جاءت بالجيش وليس الجيش هو من جاء بالدولة.

وهكذا فإن هذه الدراسة معنية بإثبات حقيقة واحدة وهي أن الرسول الكريم قدم للعرب مشروعاً ديمقراطياً متنوراً سواء في التشريع أو في الإدارة، وهي حقيقة نجتهد هنا لإثبات أنها لا تتناقض أبداً مع الوحي المعصوم بل تشد أزره وتحقق رسالته وتبلغ به غايته، وتستلهم الأدوات التي منحنا إياها النص نفسه في بعث العقل واستخدام الخبرة البشرية للوصول إلى معرفة السنن الكونية التي عرفها الإنسان بعد عناء طويل، وسلم بها بيقين، وهي السنن التي يحق لنا أن نستخدمها في التشريع لما هو خير للعباد والبلاد.

لقد عاش حياته في خدمة الأمة ولم يجمع ثروة طائلة، يأكل كما يأكل العبد وينام كما ينام العبد، وفي وثيقته الأولى التي كتبها دستوراً لدولة المدينة الناشئة يظهر احترام المواطنة على أساس من المساواة بغض النظر عن الدين والنسب، وحين رحل إلى الله لم يكن في وصيته فرض حكم ثيوقراطي على الناس وإنما ترك الأمر شورى وتم تداول السلطة بعده في الخلافة الراشدة على وجه جيد من الشورى بغض النظر عن الأحساب والأنساب والثروات، قبل أن تتحول الخلافة إلى ملك عضوض.

إشكالية البحث وضرورته

يقع موضوع الإسلام والديمقراطية في جوهر الجدل السياسي اليوم، ويتناوب النقاد الاتهام حول طبيعة الإسلام والديمقراطية، ومنذ عقود تشتد النزعة السلفية في مسالة الوحي مصحوبة بغلو شديد في فهم النبوة بحيث تكون ظاهرة مفارقة، ترتبط بالتنفيذ الحرفي للنص الديني، و لا شان لها بعناء الإنسان وهمومه ومطالبه، ومن المحيّر أنهم يتبنون هذا الراي مع الإصرار على دور رائد للدين في السياسة، وعدم قبول أي فصل بين الدين والسياسة، وعدم قبول أي تغيير مستند على أساس مصالح الناس، أو زوال المعلول بزوال العلة، أو تبدل الأحكام بتبدل الأزمان.

فهل الإسلام طقس غيبي هائم معزول عن معاناة الإنسان وحاجاته، تتحدد رسالته في تقديم وصفة دقيقة للنجاة في الآخرة، وهل قصد النبي تماماً ما نفهمه أن الدنيا لا تعدل جناح بعوضة، وأن تعجيل الطيبات فيها لون من طمس الفؤاد، وأن عليك ان تعيش الدنيا كغريب أو عابر سبيل وأن الدنيا قنطرة وهْم فاعبروها ولا تعمروها، وأن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه؟

في سياق كهذا تتولاه حركات انطوائية ذات طابع صوفي يصبح الحوار في الديمقراطيات في النص الديني أشبه بحوار الطرشان، ولا معنى لنرتل فيه هذه المزامير، فالعالمان متناقضان، واللغات متلاعنة، والمشترك معدوم.

إن ما تراهن عليه هذه الدراسة هو أن الإسلام معني تماماً ببناء حياة رشيدة، وأن أهم دعاء علمه رسول الله للناس هو ما أمر به في التشهد حتى يقرؤه المسلم في كل يوم خمس مرات فرضاً وتسع مرات نافلة راتبة، وهو ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة

حسنة، وقد جرى تقديم الدنيا على الآخرة لمواجهة فكرة دنس العالم وطهر السماء التي بشرت بها ديانات غنوصية كان كهنتها يتعبدون الله بالقذارة المقدسة!

تصر هذه الدراسة على ان النبي الكريم بشر بعالم جميل، وقاد بنفسه محاولة بشرية واضحة تكللت بالنجاح في معظم منعطفاتها، وأسهمت في بناء مجتمع سعيد، وانطلاق نمط حياة حيوي يؤمن بقيم السماء والإحسان في الأرض بات أتباعه في العالم اليوم أكثر من مليار ونصف إنسان.

وتذهب الدراسة الى تأصيل مبدا التشارك الديمقراطي في بناء الحياة انطلاقاً من تجربة الرسول وهديه وصولاً إلى قيام الدول الإسلامية المتتابعة، مروراً بعدد من الفترات المضيئة التي تحقق فيها العدل والازدهار، وتقدم الدراسة الأدلة أن ذلك إنما كان نتيجة تعميق الديمقراطية وتعزيز دور المشاركة المجتمعية على أساس الشورى وأشكال التشاركية الأخرى.

ولا تنكر هذه الدراسة أنها تمارس الانتقائية، وفي الواقع فإننا جميعاً نمارس الانتقائية في التعامل مع التاريخ الإسلامي حيث يمكن قراءة مشاهد استبدادية فيه ويمكن قراءة ومضات ديمقراطية، ولا زلنا نواجه الحجاج بعمر بن عبد العزيز ومعاوية بالحسن بن علي، والخوارج بالتصوف، والظاهرية بالفقهاء.

ولا شك أن الانتقائية ثغرة في البحث العلمي، ولكننا نجتهد هنا أن نشير إلى الموقفين جميعاً، موقف الاستبداد وموقف الديمقراطية، ولا نخفي انحيازنا للثاني، ورغبتنا في توفير الأدلة على أنه الصورة الشائعة وأن الاستبداد استثناء، وأن ماروي في الديمقراطية أوثق سنداً ومتناً مما روي في الاستبداد، اعتماداً على قواعد العقل في الرواية وهو ما التزمه الرواد الأوائل في علم المصطلح قبل ان يتكلس فيما بعد بالجمود والتقليد، وكذلك فإننا نعتمد هرمونوطيقا النص مدخلاً لفهم مراميه على أساس فهم المتلقي، وأعتقد ان هذه الدراسة نجحت في تقرير ذلك على الأقل في فترة العهد النبوي

التي نعتبرها نبراساً للتاريخ الإسلامي، وهو المعنى الذي قصدناه بعنونة الدراسة بعنوان النبي الديمقراطي.

ونرجو أن تقدم هذه الدراسات شواهد مقنعة من السيرة النبوية لاعتماد أسلوب ديمقراطي في المجتمع الإسلامي، سواء على مستوى الحياة الفردية والأسرية أو على مستوى العمل السياسي والمشاركة الإيجابية في المجتمعات الإسلامية أو المجتمعات المتعددة الأعراق والأديان.

دراسات سابقة في ديمقراطية الرسول

لا أعتقد أن الحديث عن النبي الديمقراطي قد ظهر في عمل علمي مستقل، ولكن مع ذلك فقد تمت الاستعانة بأعمال علمية كثيرة تقارب هذا الوعي وتساعد على تصوره وبرهانه، فهناك دراسات كثيرة في السيرة النبوية كتبها عدد من الباحثين، تهدف إلى إظهار قيم الشورى والمساواة والتشاركية في حياة الرسول الكريم وفي إدارته للمجتمع والدولة، أعتبرها من مصادر هذه الدراسة.

ولا شك ان أهم مصدر رجعت إليه هذه الدراسة هو القرآن الكريم نفسه الذي وصف بدقة بالغة مشاهد ملهمة من حياة الرسول الكريم، ولا يعسر على الأريب رسم الملامح الديمقراطية التي أشار إليها القرآن الكريم في وصف رسالة النبوة وتوجيه الرسول الكريم لاعتماد أساليب ديمقراطية لإدارة المجتمع والدولة، وفي نصٍ جامع في سورة آل عمران أوضحت الآيات السياق المأمول من الرسول الكريم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران: ١٥٩

وفي هذا المعنى نزلت سورة كاملة باسم سورة الشورى وفيها التأكيد على حيوية الأمة المسلمة التي تختار مبدأ الشورى سبيلاً ومنهاجاً،

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الشورى38

وفي القرآن الكريم تحديد دقيق لدور الرسول في نشر قيم الشورى والعدالة ومواجهة الاستبداد والظلم، والقرآن يحدد بوضوح رسالة النبي الأكرم بوصفه بشراً آتاه الله الكتاب والحكمة، وليس له امتيازات على الناس ليقول لهم كونوا عباداً لي، وكذلك ليس للملائكة أن تزعم ذلك أيضاً، وتشير الآيات بوضوح أن اعتقاد الغيب والألوهية في الأنبياء والملائكة هو لون من الكفر الصراح:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝٨٠﴾ آل عمران: ٨٠

وسيأتي في الدراسة أمثلة كثيرة من القرآن الكريم في بيان منزلة الرسول وطبيعة الكفاح الديمقراطي المطلوب من الرسول الكريم في الإدارة والتشريع.

كما التمست مواقف الرسول الكريم كافة من كتب السنن المعتمدة، وبشكل خاص الكتب التسعة البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه ومسند أحمد والموطأ والدارمي، وقد أشرت لكل منها في مكانه في المصدر، وقلّ أن أروي من غير هذه الكتب التسعة، وفي الوقت نفسه فإنني ملتزم بالقول إنني أتخير من هذه الكتب تخيراً ومن الواجب أن أشير إلى وجود نصوص أخرى تعاند هذه الحقائق، وتكرّس منطق الخضوع والتسليم.

أما كتب السيرة التي اعتمدتها فهي سيرة ابن هشام والسيرة النبوية لابن كثير وطبقات ابن سعد والسيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي وعيون الأثر لابن سيد الناس والروض الأنف للسهيلي والشفا للقاضي عياض، وقد سبق أن تخيرت من هذه السير الكريمة كتابي الأول سيرة رسول الله الذي طبع ثلاثين طبعة بالعربية وتمت ترجمته للإنكليزية والرومانية والروسية.

وأشير هنا إلى الكتب التي اعتمدت تقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطابع ديمقراطي إنساني، وأبرزها كتاب عبد الرحمن الشرقاوي محمد رسول الحرية، وقد قدمه الشرقاوي على صيغة رواية واقعية ترصد جوانب الكفاح النبوي وتوجهه بشكل مباشر لبناء قيم ديمقراطية أصيلة في الأرض عبر رسالته السماوية.

كما قدمت المدرسة الإصلاحية سلسلة من كتب السيرة على نسق مختلف ونعد منها كتاب عبقرية محمد لمصطفى عباس العقاد وكتاب محمد لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وكتابا حياة محمد وفي منزل الوحي للروائي المصري محمد حسين هيكل.

كما أشير إلى كتاب فريد في السيرة النبوية وهو التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية، للسيد عبد الحي الكتاني فقد أعاد كتابة سيرة النبي الكريم بوصفه قائداً إدارياً، يقوم بتنظيم المجتمع وبناء العلاقات المجتمعية والسياسية، ويؤكد على جوانب واضحة من ديمقراطية الرسول تمثلت في المستشاريين والمعاونين ومجالس الخبراء والتكنوقراط التي كانت من حوله، وقد قدم صورة لمجتمع منظم يدار بطريقة شوروية وإن لم يبلغ به الأمر إلى حد القول بديمقراطية الرسول.

وأشير هنا إلى كتاب بالغ الأهمية شديد الصلة بهذا البحث وهو كتاب الشيخ علي عبد الرازق الذي كتبه قبل نحو مائة عام، وتحدث فيه بوضوح ومباشرة عن الطابع المدني والاجتماعي لكفاح الرسول السياسي، وأعلن أن تجارب الحكم المختلفة في التاريخ الإسلامي هي محاولات بشرية تجريبية محضة، وأن الخلافة بكل تفاصيلها نمط من أنماط الحكم ليس له قداسة ولا صمدانية، وأنه لم يعد شكلاً مناسباً للحكم في هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف، القائم على مبدا الدولة الوطنية.

أثار كتاب علي عبد الرازق ضجة هائلة في الأزهر انتهت بفصله من كل وظائفه الدينية والمدنية واعتبار ما في الكتاب هرطقة وضلالاً، ولكن الدكتور محمد عمارة قام قبل فترة بإعادة طباعة الكتاب والتقديم له وأكد ان الكتاب يقع في دائرة الرأي المقبول وإن خالف الجمهور، ولكن الضجة التي ثارت حوله إنما كانت نتيجة غضب الخديوي توفيق من مضمون الكتاب الذي رأى فيه استهدافاً مباشرة لمحاولاته إعلان الخلافة الجديدة من القاهرة، والتحول إلى حكم ثيوقراطي امبراطوري تحت عنوان الخلافة.

كما أشير إلى كتاب الشيخ محمد الغزالي فقه السيرة الذي ركز فيه على الأسلوب القيمي في كفاح الرسول، وتضمن الكتاب إضاءات بالغة الأهمية على الموقف الديمقراطي لرسول الله وإن كان الشيخ لم يستخدم هذا المصطلح في كتابه.

الباب الأول: القيم الديمقراطية والإسلام

الفصل الأول: الديمقراطية النظرية: المفاهيم

ظل إشكال علاقة الإسلام بالديمقراطية يؤرق الباحثين منذ أمد بعيد بهدف الوصول إلى مشترك حقيقي بين الإسلام والديمقراطية، واعتاد كثير من الباحثين أن يطرحوا الإسلام والديمقراطية خيارين متقابلين بحيث يلزمك الاستغناء عن أحدهما من أجل القبول بالآخر، فإما أن تلزم الديمقراطية وتتخلى عن الإسلام، وإما العكس بحيث تلتزم الإسلام وتتخلى عن الديمقراطية!!

ومضى كثير من الكتاب الإسلاميين إلى تبني التناقض المطلق بين الإسلام والديمقراطية واختاروا رجم الديمقراطية بالحجارة على أساس أنها محادة لله ولرسوله، وأصبحت الديمقراطية تقدم اليوم كما لو كانت منتجاً غربياً استعمارياً يراد فرضه على المنطقة، وقد أسهم في تعزيز هذه النظرة فشل التجارب الديمقراطية في المنطقة واستقرار التجارب الاستبدادية.

فإلى أي مدى كان الخيار الديمقراطي نقيضاً للمشروع الإسلامي؟

أيهما أقرب لروح الإسلام العدالة أم الاستبداد؟ الجواب بالطبع العدالة، ولكن يجب الاعتراف أن التراث الإسلامي طافح بشواهد العدالة كما هو طافح بشواهد الاستبداد، والمنابر تتحدث عن العدالة ولكنها أيضاً تسوق في خدمة المستبد عشرات النصوص التي تجعل الحاكم ظل الله في الأرض والرعية بعض متاعه، وهناك خلط لدى الواعظين بين احترام القانون وبين الخضوع للمستبد، أو كما أوردته أحاديث ضعيفة مشهورة:

يا عبادي! لا تشغلوا قلوبكم بسب الملوك، ولكن تقربوا إلى الله تعالى بالدعاء لهم يعطف الله قلوبهم عليكم!![2]

وفي رواية أخرى: لا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك، ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم!!).[3]

أو في الرواية الشهيرة: اسمعوا وأطيعوا، ولو أُمِّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ولو أخذ أموالكم وضرب أبشاركم.[4]

وبالطبع فإن هذه الروايات تختلط في التأويل بين طاعة القانون وبين الخضوع للمستبد والفارق كبير، وستكون هذه النصوص محل تأويل مقبول إذا استقامت على طاعة القوانين، ولكنها ستكون مرفوضة تماماً إذا كانت تعني الخنوع للمستبد المتغلب، واكتفاء شره بتنفيذ أوامره في الظلم والمنكر، وستكون مضادّة بشكل حادٍ للوصية النبوية الذهبية: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان.[5]

ولا شك أن المطلوب هو الانتصار لنصوص الحرية والمساواة ورفض الاستبداد، ورد النصوص الداعية إلى الخضوع والخنوع أو تأويلها بما يستقيم مع حرية الإنسان وكرامته ومنزلته.

وهذه القيم التي يناضل من أجلها الشرفاء صار اسمها في الثقافة العالمية: الديمقراطية، وهو ما يجب أن نقدمه للمجتمع الإسلامي وفق هدي النبوة وخيارات الراشدين.

ولا بأس أن نستهل هنا بهذا النص الفريد لعمر بن الخطاب، في شرح ثلاثية: الناس والحاكم والقانون، وجانبها الديمقراطي المتصل بأن الناس سواسية كأسنان المشط.

---

2 المناوي، محمد عبد الرؤوف ، رواه عن القضاعي وقال إنه مرسل، وفيه ضعف، فيض القدير ، ج 1 ص 112
3 الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط عن أبي الدرداء، ج9 ص 9
4 الطبراني/ سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، عن أبي الدرداء ج 1 ص 79
5 مسلم بن الحجاج القسيري النيسابوري عن أبي سعيد الخدري، ج 1 ص 50

خطب عمر بن الخطاب فقال: ألا أني والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفسي بيدي إذاً لأقصّنّه منه!

فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أو رأيت ان كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته؟ أإنك لمقتصه منه؟! قال أي والذي نفس عمر بيده لأقصّنّه منه! وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقصّ من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمّروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفّروهم.[6]

ويبدو ان هذاالحوار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص كان توطئة لاستدعائه مع ولده إلى المدينة للمحاكمة في مسالة ضرب القبطي، التي انتهت بإدانة ابن عمرو بن العاص وعقابه، وقول عمر متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

لإدراك هذه الحقيقة يتعين أن نجري قراءة تحليلية للعلاقة التشريعية بين النص الديني ومصالح الناس المعتبرة التي أنتجت الديمقراطية، وإلى أي مدى يمكن أن يكون الإسلام ديمقراطياً أو تكون الديمقراطية إسلامية، وهل الديمقراطية والإسلام مصطلحان متقابلان بحيث يتعين الترجيح بينهما، أم أنهما مصطلحان متوازيان لا يلغي أحدهما الآخر ويمكن أن يتعاونا على تحقيق مصالح الناس.

وباختصار: حين يكون الإسلام هو تطبيق نمط حياة محدد مارسه السلف قبل عشرة قرون، لا يجوز الابتداع عليه ولا الزيادة فيه، ويكون كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، وحين نقول نحن أمة النص، وحين يصير العقل تهمة، وتؤلف الكتب في الرد على العقلانيين واتهامهم بالردّة والكفر فسيكون ذلك بالطبع مناقضاً للقيم الديمقراطية، ولا أظن أنه سيكون هناك معنى لأي لقاء.

ولكن حين ندرك جهود الفقهاء المستمرة تاريخياً لعقلنة النص وتخصيصه وتقييده، وفق آليات الاستحسان والاستصلاح العميقة، ويمكننا أن نقول عندئذ الديمقراطية آلة اجتماعية

---

[6] أحمد بن حنبل، مسند الامام أحمد ج 1 ص 284

هدفها تدبير حياة الناس بما يسعدهم ويحقق حاجاتهم، وفق ما يعتقدون ويؤمنون فإن الديمقراطية هنا تغدو آلة من آليات العدالة، وهي من يحقق للناس حقوقها وأمانيها بما في ذلك الحقوق الدينية والاعتقادية.

والديمقراطية في نظري صعود حضاري وهي في الجوهر غير متعارضة مع قيم الإسلام في الشورى والعدالة، وأن الإسلام لا يسعى في جوهره ومقاصده لفرض نمط ثيوقراطي ميتافيزيقي يحكم الناس بقواعد الغيب ويقاسمهم ما يجمعونه في عالم الشهادة.

وخلال قرون طويلة من الكفاح الإنساني بلغ الإنسان شاطئ العدالة في الإطار النظري على الأقل، وهو ما صار يسميه الديمقراطية، وبدا واضحاً أن الأمم التي تتبنى الخيار الديمقراطي تعيش في رغد من العيش، وتقترب من المساواة والعدالة الاجتماعية، الأمر الذي جعل الشرط الديمقراطي أساسياً للانخراط في المجتمع الدولي، وأصبحت منجزاته يتبناها الإنسان في سائر المحافل الدولية.

ولكن هذه الديمقراطية التي تباهي بها المجتمعات المتحضرة تتعرض لعناء كبير في الشرق؛ إذ لحقتها آفة الريبة في كل وافد من الغرب، وهو ما يجتهد المحافظون في مقاومته من منطلقات مختلفة.

ويمكن إجمال الأسباب التي تَحُول دون قبول المنجز الديمقراطي من الوجهة النظرية في أمرين اثنين:

الأول: قدوم الدعوة إلى الديمقراطية عبر مؤسسات ودول غربية سبق أن مارست الاستعمار والبغي، الأمر الذي أشاع جواً من الريبة حول دوافع هذه الدعوات وغاياتها، ومن خلال ذلك فقد رأت بعض القيادات الوطنية فيه محاولة لتسلل الاستعمار من جديد على مركب الإصلاح، وقد تم تبرير مقاومة ذلك وفق منطق الخوف من التبعية الاستعمارية والغزو الفكري والاستلحاق.

الثاني: الجدل الفلسفي في المنطق الديمقراطي، حيث مضى عدد من رواد الصحوة الإسلامية إلى تقرير حتمية التناقض الفلسفي بين القيم الإسلامية والقيم الديمقراطية، على

أساس أن الإسلام احتكام إلى الله، فيما الديمقراطية احتكام إلى الشعب، وبذلك فإن المنطلق والغاية في سبيل تناقض، ولا يمكن أن يتأسس على ذلك أدنى وفاق.

وقد ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح في كتابات سيد قطب الذي تحدث عن الوثنية البرلمانية الجديدة التي تحول دون الحكم بما أنزل الله، وكذلك ما كتبه تقي الدين النبهاني الذي لم يتردد في اعتبار العمل البرلماني عملاً وثنياً مناهضاً للحكم بالشريعة!!.

وتجدد ظهور هذا التناقض في فهم الديمقراطية فيما كتبه كثير من الكتاب الإسلاميين في الخمسينات والستينات من قراءة نقدية للديمقراطية على أساس أنها معارضٌ حتميٌ لمنطق حاكمية الله، وأنه لا يمكن القبول بحكم النص الديني والاحتكام إلى إرادة الشعب في آن، ذلك أن إرادة الناس منبثقة في الغالب من الهوى وهو ما يتعارض بشكل حاد مع الشريعة الإلهية المنبثقة عن مصدر مختلف تماماً هو الوحي!

وهكذا فإن بعضهم ذهب إلى حد القول إن العدالة والمساواة وغير ذلك من القيم الإنسانية النبيلة ما هي إلا انحرافات عن هدي الوحي الذي يدل ظاهره على عدم المساواة بين الرجل والمرأة وبين الحر والعبد وبين المؤمن والكافر، وأن البحث عن إرادة الأغلبية هو جحود لمنطق القرآن الكريم: ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقوله: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله!.

وصرح تقي الدين النبهاني منظّر حزب التحرير الإسلامي بالقول: إن الديمقراطية هي أوثان القرن العشرين، وأن البرلمانات هي الأصنام الجديدة! وكتب سيد إمام في العمدة ما نصه: الديمقراطية شرك بالله وكفر أكبر صريح، إذ تسلب حق التشريع من الله وتعطيه للبشر، وقال تعالى: إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا أياه، ويكفي في كفر الديمقراطية أن قرارات البرلمان تخرج مُصَدَّرَة (باسم الشعب) وليس (باسم الله) فهم قد وضعوا الشعب موضع الله سبحانه، ولهذا فإن الديمقراطية هي من صور تأليه البشر من دون الله، وقد حرمها الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آل عمران: ٦٤

وهذا النظام الشركي قد لجأت إليه الأمم الكافرة كاليهود والنصارى بعد ما بَدَّلوا دينهم ولم يبق لهم شرع صحيح[7].

وفي نص أكثر وضوحاً لعبد القادر عبد العزيز في كتابه العمدة في إعداد العدة وهو أشهر كتب المجموعات المتطرفة وأكثرها تأثيراً:

ولا يدخل في هذا: الجماعات المتلاعبة بشرع الله كالتي تسعى إلى حكم الإسلام عن طريق الديمقراطية الشركية والبرلمانات العِلمانية وأشباه ذلك مما سقط فيه الكثيرون باسم الدعوة إلى الإسلام فَضَلّوا وأضَلّوا كثيرا من الناس واتبعوا خطوات الشيطان8

وللأسف فإن هذه الافكار المتطرفة أنتجت بشكل تلقائي موقفاً مماثلاً في الثقافة الغربية ، وقد يكون من العدل أن نقول إن التيارين تبادلا التأثير والتناوب في القطيعة بين الشرق والغرب وكتب كثير من المستشرقين أن الإسلام منهج معاد للقيم الديمقراطية الإنسانية، وأنه غير معني بالمساواة في الأرض، وراحوا يستحضرون الدليل تلو الدليل على الاستبداد الذي وقع في التاريخ الإسلامي، للتدليل على أنه كان نتيجة اعتماد خيار الوحي وتنكب الخيار الديمقراطي!

وفي مواجهة الموقفين أهل الجمود من المسلمين وأهل الجحود من خصوم الإسلام فإننا نطرح تطبيق الرسول الكريم للقيادة والحكم الرشيد وسنرى أن النبي الكريم أسس أول دولة حقيقية في جزيرة العرب بإعلان دستور المدينة، وفي أول سطر منه عبارة أن محمداً ومن معه ويهود بني عوف الذين كانوا آنذاك مواطنين في المدينة أمة واحدة من دون الناس، وهذا يقتضي تأسيس العلاقات الاجتماعية على أساس المساواة والعدالة، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وليس على أساس الاصطفاف الديني.

وحين قام النبي الكريم بعقد أهم صلح سياسي في حياته، بين دولته الناشئة وبين الزعامة التقليدية العربية في قريش، وهو صلح الحديبية نص بصراحة أن من شاء الدخول في حلف محمد دخل فيه ومن شاء الدخول في حلف قريش دخل فيه، وبغض النظر عن

---

[7] عبد القادر عبد العزيز، العمدة في إعداد العدة ص 88

[8] عبد القادر عبد العزيز، العمدة في إعداد العدة ص 96 ة

الدين دخلت قبائل عربية في حلف محمد وصارت جزءاً من الدولة الإسلامية، وبعضهم مسيحيون كنصارى نجران وآخرون يهود كيهود فدك وبعضهم وثنيون كقبيلة خزاعة، وقد نال هؤلاء حقوقاً متساوية من جهة المواطنة والحريات وحماية الدولة لهم بغضّ النظر عن دينهم.

ومن المدهشِ أن فتح مكة وهو أكبر أيام النبي محمد وأهمها، وهو نصر الله والفتح، كان سببه المباشر هو حماية بعض الوثنيين من مواطني الدولة من قبيلة خزاعة الذين تعرضوا لاضطهاد مباشر من قريش حين نكثت العهد، وكان على الدولة الإسلامية أن تحميهم وتدافع عنهم.

وهذه الحقيقة تؤكد تماماً أن النبي لم يكن يؤسس في مدينته لدولة ثيوقراطية ولا لدولة دينية يحكمها الملالي بل كان يؤسس لدولة ديمقراطية مدنية يتساوى فيها الناس في الحقوق والواجبات.

وبالتأكيد فإنني لا أزعم أن كل التراث الإسلامي مضى على وفق هذه الصيغة من تقبل القيم الديمقراطية، بل إن كثيراً من الاستبداد أيضاً تمت ممارسته باسم الرب والنصوص المقدسة، وهو ما أعتقد أنه التحدي الأكبر أمام خطاب التنوير العربي لانتقاء ما هو أكثر ملاءمة لقيم العدالة في التراث الإسلامي.

إن رعاية مصالحة حقيقية بين الفهم الإسلامي والشأن الديمقراطي سيؤدي بكل تأكيد إلى إغناء الديمقراطية التي سترى في التجربة الإسلامية الغنية رصيداً حقيقياً للتجربة الديمقراطية، وسوف يسهم في تجريدها من اللبوس الغربي الذي يؤدي إلى تغريبها وغربتها في الشارع الإسلامي، وفي الوقت نفسه فإن التيار الإسلامي مدعو أن يدرك أهمية الإصلاح الديمقراطي وشأنه في تحقيق فهم أصح وأدق لرسالة النبي الكريم، وبالتالي سيمنح قناعة أكبر بقدرة الإسلام على تقديم الحلول الحقيقية في كل زمان ومكان.

الديمقراطية منجز إنساني

بغض النظر عن اشتقاق الكلمة وجذورها ومنابتها فإن من الممكن القول بأن الديمقراطية خيار أممي تنضوي تحته الإنجازات الإنسانية الكبيرة في إطار الحرية والعدالة والمساواة، ويلتقي عنده كفاح الإنسان في مقارعة الاستبداد.

ولا نطيل هنا في تعريف الديمقراطية والمدارس السياسية التي تتولى التعريف بها، وأعتقد أنها أصبحت من باب المعروف الذي لا يعرف، وغاية ما نذكره هنا هي أنها مرادفة للعدالة السياسية في اللغة العربية، وبإمكانك أن تسقط مفردة العدل على كل مفرزات الديمقراطية فهي المساواة بين الناس وتداول السلطة واحترام القانون واحترام الحريات وتحقيق الشورى، ويدخل في مقاصدها كل ما أنجزه الإنسان في باب العدالة الاجتماعية، وقد كان من الممكن أن نكتفي بالاسم العربي القرآني وهو العدل، ولكن المصطلح اكتسب صفة عالمية إنسانية، وأصبح له تراث وتاريخ تجتهد الأمم في شرحه وتمثله والعمل في سبيله، ولا أعتقد أن من المصلحة في شيء أن يدير المجتمع الإسلامي ظهره للمنجز الإنساني في العدالة بحجة أنه يستخدم مصطلحاً آخر، بل المنطق يقتضي أن نستفيد من الكفاح الإنساني وتجارب الأمم وفي قاعدة قرآنية شريفة: نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم.

وهكذا فإن الديمقراطية بوصفها مرادفاً لكلمة العدل السياسي فإنها تشتمل على ما أنجزه الكفاح الإنساني من تطوير للعدالة وتحقيق لأدواتها ومقاصدها، وتأكيد على أهدافها في الحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وهي غاية ما جاء من أجله الرسل، كما قال تعالى في القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ الحديد: ٢٥

ويجب القول أن الديمقراطية في مؤدّاها العالمي ليست منجزاً إقليمياً ولا يحق احتكارها فلسفة ولا منشأ ولا تطبيقاً لأي شكل من أشكال النظام السياسي في العالم، بل إنها منجز إنساني عالمي دفع الإنسان خلال التاريخ ثمنه بدمه وكفاحه، واشترك في إنجازه وبنائه، ومن حق سائر الأمم أن تنعم بما تم إنجازه في هذا السبيل على أساس أنه تراث عالمي متاح لكل شعوب الأرض.

إن الحضارة التي نشهدها اليوم هي حضارة إنسانية بامتياز وليست شرقية ولا غربية، وإن القيم التي أعلن عنها القرن العشرون في الحرية والتسامح والعدالة والديمقراطية والعلاقات الدولية هي قيم إنسانية كافح الإنسان طويلاً في الشرق والغرب لتحقيقها، واشتركت فيها الحضارات جميعاً من يونانية ورومانية وإسلامية وأوربية، وإن ربط هذا المنجز الحضاري بأمريكا أو أوربا أو أي مكان في العالم يتبنى هذه القيم الحضارية ليس موقفاً صحيحاً، وإن الناس من سائر الأمم شركاء في هذه الحضارة الإنسانية، بما أنجزه آباؤهم وأجدادهم من كفاح شريف للوصول إلى هذه القيم الإنسانية المشتركة.

ويجب القول إن منطق صدام الحضارات الذي تبناه متطرفون في الغرب ومنطق الفسطاطين الذي يتبناه متطرفون في الشرق كلاهما مجاف للحقيقة وبعيد عن هدي الأنبياء، وإن السبيل الوحيد لقيام عالم آمن هو التعاون والتواصل والتكامل.

وفي جدل صدام الحضارات أو حوارها وهو ما يرسم ظلال العلاقة المستمرة بين الإسلام والغرب فإني لا أعتقد أن حوار الحضارات هو المنطق المناسب للتعبير عن العلاقة بين الحضارات، إنني مؤمن بأنها حضارة واحدة تتناوب الأمم حمل رسالتها وشعلتها، وتتناوب فيها تأثراً وتأثيراً.

وخلال تاريخ طويل، انتقلت شعلة الحضارة من الشرق الأدنى والشرق الأقصى إلى اليونان إلى فارس إلى الرومان إلى الحضارة الإسلامية ثم إلى الحضارة الأوربية

والأمريكية، وهي اليوم نتاج كفاح الأمم جميعاً، وبإمكانك أن ترى في مشافي كليفلاند في أمريكا أثراً واضحاً للرازي وابن سينا تماماً كما كنا نرى في بيمارستانات بغداد والأندلس أثراً واضحاً لأبقراط وجالينوس، والأمر نفسه في سائر العلوم الكونية، وكذلك في السنن الاجتماعية من الحرية والعدالة والمساواة والإخاء التي شاركنا فيها خلال التاريخ، وحين يتم إنجاز الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ويتم الإعلان عنه في نيويورك فإنني أبصر بين الرجال الذين حققوه عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وكفاح الأنبياء من قبل، فهؤلاء جميعاً شركاء في شرعة حقوق الإنسان التي مرت عبر التاريخ في مواجهات كثيرة ضد الاستبداد والقهر، وشارك حكماء هذه الأمة صيحتهم في وجه العالم: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

إنها إذن شعلة واحدة للحضارة الإنسانية، فالحضارات تتكامل ولا تتقاتل، وتتواصل ولا تتدابر، والصراع لا يكون بين الحضارة والحضارة أو بين النور والنور، وإنما يكون الصراع والصدام بين الحضارة والتخلف، وبين العلم والجهل، وبين الظلمات والنور، وإنها إذن الأسرة الإنسانية الواحدة التي جاءت من نسل آدم، ومسؤولية أبنائه أن يتعاونوا لاستثمار خيرات هذه الأرض وضبط مقاطع الحقوق فيها وتوفير العيش الكريم لسائر الأمم والشعوب.

ومن سياق ذلك فإن المنجز الديمقراطي بوصفه صورة العدالة السياسية هو نتاج لكفاح الإنسان في العالم بأسره، ومنه هذه الأمة الإسلامية التي مارست قيادة واضحة للإنسانية نحو سبعة قرون، وعلينا من وجهة نظري أن نتمسك بموقعنا كصناع للديمقراطية، وليس أن نتهرب من التزاماتنا نحو العدالة عن طريق رجم الديمقراطية وتكفيرها وتخوينها كما تفعل الحركات الإسلامية الأصولية التي قدمت في تجاربها أسوأ صورة للاستبداد السياسي والقمع والقهر، ولكنها استمرت في رفض الديمقراطية بوصفها سلوكاً شركياً محاداً لله ولرسوله..

الديمقراطية والإسلام السياسي

ليس من شرط هذه الدراسة أن نمضي إلى بحث أصولي فقهي تفصيلي ولكن ما أردت تعزيزه هنا هو أن الشرط الديمقراطي لا يتناقض من وجهة نظري مع حضور النص الديني، ولا يستلزم الإقرار بالديمقراطية في سن القوانين ومراقبتها أي حاجة لرفض النص المقدس أو استدباره.

ولعل أوفى دراسة في هذا السبيل هي ما قدمه العلامة الأزهري الشيخ علي عبد الرازق قبل تسعين عاماً في كتابه الشهير الإسلام وأصول الحكم الذي أعاد كتابة الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية في ضوء المنجز الديمقراطي العالمي، وقيم الحضارة الحديثة في إصلاح علاقة الحاكم بالمحكوم، وتحدث فيه عن القيم العلمانية في نظام الحكم في الإسلام، وثارت عاصفة هوجاء عنيفة ضد الكتاب واتهم الرجل بالكفر والزندقة وأحيل إلى محاكمة دينية كهنوتية حكمت عليه بالطرد من الأزهر وسحب شهادة العالمية منه، وتم منعه من الوظائف الدينية، وسرعان ما استجابت أيضا وزارة الحقانية فحكمت بفصل الشيخ المذكور من وظائفه في القضاء ومنعه من تولي اي وظيفة حكومية، وهي سابقة ليس لها قبل ولا بعد، حيث لا يجوز بحال أن يكون القضاء الرسمي المستقل ظلاً تابعاً لموقف هيئة مسلكية خاصة بإحدى المؤسسات العلمية.
ولا يعرف في تاريخ المطبوعات العربية أن كتاباً أثار من الجدل والنقد والردود مثل ما أثار هذا الكتاب على الرغم من أن صفحاته لا تتعدى 71 صفحة، نصفها يتحدث عن الراهن السياسي بلغة صحفية أخبارية.
تضمن الكتاب فيما يشبه أن يكون بيانات مباشرة ومقصودة أموراً اعتبرها الكاتب ملامح واضحة في نظام الحكم في الإسلام، ويمكن اختصار أهمها بالبنود التالية:

الرسول قائد إيماني وروحي، ونشاطه في بناء الدولة وحمايتها هو عمل سياسي منفصل عن دوره الروحي والإيماني.

الدول الإسلامية خلال التاريخ بما فيها دولة الراشدين هي دول سياسية مدنية، أعلت قيم الإسلام الروحية، ولكنها حكمت الناس بمنطق الإدارة والسياسية، فيها حكام عادلون وفيها حكام ظلمة.

الخلافة نظام من أنظمة الحكم السياسي قد يناسب بعض الأمم وقد لا يناسب بلاداً أخرى، وللأمة أن تختار الواقع السياسي الذي يناسبها، والخلافة وما يرتبط بها من قيادة الجيوش ونظام الدواوين وولاية العهد شؤون دنيوية محكومة بمصالح الناس.

الخلافة التي لا تؤمن بدور الشعب ولا تخضع لسلطانه بغي سياسي والإسلام بريء منه.

الحاكم رجل انعقدت بيعته بالشورى، وقيامه وسقوطه شان الناس، ولا يوجد حق إلهي يمنح أحداً سلطة في الحكم بدون إرادة الناس.

أثارت هذه الكلمات غضب المشايخ، وفي دراستنا الشرعية كان علي عبد الرازق يقدم لنا كمرتد مارق، يمثل أعداء الدين ويمارس مؤامرة مقصودة لإخراج الدين من الحياة، وأنه رجل أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة!!

ولكن تطور الوعي في المؤسسة الإسلامية والعلمانية على السواء جاء اليوم بنتائج مختلفة تماماً، وبات من غير المفهوم أن تثير هذه الكلمات غضب المؤسسة الدينية وأن تعتبر هرطقة في الدين تخرج صاحبها من الملة وتجرده من حقوقه المدنية، ولو كتبتها لك اليوم بدون ذكر قائلها لحسبت أنها فقرة من البرنامج السياسي للأحزاب الإسلامية من حمس إلى النهضة وما بينهما.

بعد تسعين عاماً من محاكمة علي عبد الرازق تبدو هذه الأفكار اليوم جزءاً من بديهيات العمل السياسي في العالم الإسلامي، الذي تبنى بوضوح أن الدولة الإسلامية دولة مدنية وأنها لا تحكم بسلطان الله وإنما تحكم بسلطان الشعب، وأن الوحي لا يعين خلفاء ولا

وزراء ولا نواب، وإنما الشعب هو من يختار حكامه وهو من يحاسبهم ويعزلهم، وأن الامتيازات الموهومة للخلفاء المستبدين لا تعكس روح الإسلام في شيء.

وقبل سنوات أصدر الدكتور الجليل محمد عمارة أبرز علماء الأزهر المعاصرين طبعة جديدة لكتاب علي عبد الرازق وأضاف إليها كل وثائق المحاكمة وقرارات العقاب التي اتخذت ضد الشيخ وأثبت بما لا يقبل الشك أن المحاكمات كلها كانت سياسية بامتياز وأنها كانت تستهدف إرضاء الملك فؤاد وولي عرشه فاروق الذي رأى الكتاب هجوماً مباشراً على استبداده بحكم مصر، ورغبته بتسمية ابنه فاروق ملكاً تالياً لمصر.

ومنذ سنوات قمت بإدراج كتاب علي عبد الرازق كمصدر أساسي لطلابي في كلية القانون في مساق نظام الحكم في الإسلام، باعتباره أكثر الكتب تعبيراً عن الحركة الإسلامية السياسية المعاصرة.

إن الأفكار التي قدمها علي عبد الرازق وأغضبت مشايخ الأزهر والسلطات الدينية في مصر هي في الواقع اليوم جوهر الخطاب السياسي الذي الحركات الإسلامية التي انخرطت في العمل السياسي ودخلت البرلمانات في البلاد العربية والإسلامية.

لقد حان الوقت لوقف الصراع الموهوم بين الإسلامي والعلماني في السياسة، وهذا الأمر في حقيقته قد تحقق بنجاح على مستوى الحركات الإسلامية الديمقراطية والأحزاب الوطنية.

يبقى خارج دائرة اللقاء الإسلامي العلماني حركات السلفية الجهادية المؤمنة بالعنف، والأحزاب القومية أو الماركسية الثورية التي تتبنى نهجاً انقلابياً شاملاً.

يجب أن يلتقي الإسلاميون والعلمانيون على بناء الأوطان ومواجهة تحديات المرحلة الرهيبة، أما ما يتبقى من خلاف في الإدارة والسياسية فهو حيوي وضروري يتم في إطار المشروع الوطني الجامع، وتحكمه قاعدة: بوارق الحقائق تنبع من مصادمة الأفكار.

وهكذا فإن دعوة الجمهور الكريم لإدراك إسلامية المنطق الديمقراطي في الحكم وأنه ليس متعارضاً مع الشريعة يقع على رأس أولويات الخطاب السياسي الديني لحركة التغيير الاجتماعي.

وهنا ببساطة فإنني ضد قيام أحزاب ثيوقراطية تنتج الاصطفاف الديني في المجتمع، وتسلب السلطة من الشعب إلى الإكليروس، أو الملالي، أو الفقهاء، وهنا فإنني أدفع باتجاه قيام أحزاب ذات مرجعية إسلامية، لا تحتكر اسم الإسلام وتقبل صراحة بالشرط الديمقراطي من تداول السلطة وتكافؤ المواطنين وتساويهم أمام القانون ومنع تغول الإكليروس وتقرير حق الأمة في التشريع وفق مصالحها الكبرى.

إن علينا كإسلاميين أن نقدم مشروعنا للناس على المركب الديمقراطي، ويتعين علينا أن نقنع به الناس بالفكر والممارسة، وحين نخفق في ذلك ولا يتفهم الشعب عدالة مطلبنا فإن الاستجابة هنا لمطالب الشعب تبدو أكثر ديمقراطية من استئثارنا بالتفكير والتقرير نيابة عنه، ومن المطلوب حينئذ إتاحة الفرصة لهذا للون من التدافع السياسي والقبول بنتائجه تحت شرط الديمقراطية الواضح من القبول بالمساواة وتداول السلطة.

وفي إشارة ذات دلالة نهى النبي أصحابه بوضوح أن يتحدثوا في السياسة باسم الرب وفي حديث حازم قال لأحد أصحابه وهو يسيره في مهمة قتالية وهو بريدة بن الحصيب امض باسم الله وإن أرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا ولكن أنزلهم على حكم نفسك[9].

---

[9] حديث صحيح ، رواه الإمام مسلم عن بريدة بن الحصيب، ج 2 ص 1357

الديمقراطية والشورى

أعلن الإسلام عن احترام خاص للشورى وعقد سورة خاصة في القرآن الكريم باسم الشورى، وقد تكرر في القرآن الكريم شرح مواقف محمودة للشورى ومواقف مذمومة للاستبداد.

أما شكل هذه الشورى فهو أيضاً لم يتحدد بنصوص سماوية وإنما تحدد بمصالح المسلمين الكبرى فالملاحظ أن أبا بكر رضي الله عنه تولى الخلافة ببيعة شورى من أهل الحل والعقد، جماعة الشورى في سقيفة بني ساعدة ثم بايعه الناس فيما بعد، أما عمر فقد وليها بالنص الصريح من أبي بكر بعد شورى من الصحابة، ثم بايعه الناس، وأما عثمان فقد وليها بالشورى بين الستة من العشرة المبشرين الذين عهد إليهم عمر بن الخطاب بذلك، ثم بايعه الناس، أما علي رضي الله عنه فقد وليها في ظروف مختلفة وبايعه الثائرون في ظروف أشبه بحالة الطوارئ ثم بايعه الناس فيما بعد، فهذه أربعة أنماط من البيعة تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً وهي ترسم أفق الاختيار للأمة فيما فيه رشدهم ومصالحهم، وتمنح الأمة هامشاً واسعاً من الاختيار فيما يتناسب مع ظروفهم وأحوالهم، وهذا الأمر هو عينه ما نشير إليه اليوم في حاجة الأمة وظروفها.

ومن المؤكد أن النبي الكريم لم ينصَّ صراحةً على شكل النظام الشوروي الذي يريده ولكنه رسم خطوطه العامة وترك للأمة أن تختار، وتبحث عن الإرادة الجماعية في ذلك كله.

ومن المؤكد ان الديمقراطية باتت اليوم مصطلحاً أوسع من الشورى، فالشورى تنصبُّ على آليات الديمقراطية في الوصول إلى رأي الأكثرية، أما الديمقراطية فقد غدت اليوم تعبيراً عن منظومة واسعة جداً من القيم السياسية تشتمل على العدالة والمساواة وحقوق

الإنسان والحريات وحقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق الأقليات وهي بالطبع أوسع من المفهوم المشهور لمصطلح الشورى.

ويمكن القول إن الشورى تقابل الديمقراطية في جوانب كثيرة، وهي المصطلح الإسلامي المقابل لآليات الديمقراطية.

ومع ذلك فإن من المهم جداً ملاحظة المعنى المتفرد لمصطلح الشورى وهو أكثر حمولة وموضوعية ودقة من مصطلح الديمقراطية فيما يتصل بالوصول إلى رأي الجمهور، فبينما تقيم الديمقراطية الاعتبار لرأي الأغلبية وتطبق مساواة صمّاء للوصول إلى مصطلح 50 +1 فإن الشورى تطرح سبيلاً آخر للوصول إلى رأي الجمهور يتجاوز المنطق الكمي إلى المنطق المعياري.

وهكذا فإن الشورى هي المصطلح الإسلامي لمبدأ المشاركة في الحكم وهي ليست مرادفاً دقيقاً للديمقراطية، ومع أن الديمقراطية تمثل مرحلة متقدمة من الكفاح الإنساني ضد الاستبداد، ولكن الإسلام يطرح الشورى بمضامين أكثر عدالة ومع أن الشورى في القرآن الكريم وردت على هيئة شعار عمل الجماعة، وأمرهم شورى بينهم، ولم تتضمن تفصيلات تحليلية لأصول هذه الشورى ولكن روح الإسلام ومقاصده تكشف لك عن جوانب دقيقة لتطبيق الشورى في الإسلام.

إن الناس يولدون متساوين ويجب أن يبلغوا راشدين متساوين ولكنهم لا يبقون كذلك، فلكل مجتهد نصيب والناس فيهم الكسول وفيهم المجد، وفيهم الذكي وفيهم الخامل، وهذا هو الفارق الجوهري بين الشورى والديمقراطية.

الديمقراطية تتضمن مساواة الناس في الإدلاء بأصواتهم والشورى مخبرة عن مضمونها فليس كل أحد يستشار وإنما يستشار العليم ولا يستشار الجاهل، فرأي الجاهل هدر وهو ليس بصيراً بمصلحة نفسه فضلاً عن أن يكون بصيراً بمصلحة سواه.

وهذا الفهم التراكمي لأصوات الناس الذي تتبناه الديمقراطية التقليدية أنكره القرآن في غير موضع ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ الأنعام: ١١٦

إن الجمهور في الغرب حين يستفتى ديمقراطياً عن رأيه في الخمر أو الفحشاء فإن النتائج تجيء مخيبة لآمال العقلاء والحكماء، إذ أن الناس – للأسف – ليست مستعدة للتخلي عن رغائبها ونزواتها من أجل مثل أخلاقية، ولكن لو طرح هذا الأمر نفسه ديمقراطياً على خبراء الاجتماع والصحة وحدهم فإن النتائج ستكون مختلفة بكل تأكيد.

إن خبراء القانون يمكنهم في كل جيل أن يصلوا إلى وضع اعتبارات عادلة، تحدد قوة الورقة في الصندوق الانتخابي على أسس أكثر عدلاً من البيانات الرائجة حالياً من خلال قوائم دوائر النفوس.

على سبيل المثال تمنح الديمقراطية السائدة رئيس الجامعة صوتاً واحداً على الرغم من درجاته العلمية العالية، فيما تمنح الآذن المكلف بخدمته صوتاً واحداً على الرغم أنه قد لا يقرأ ولا يكتب، وإذا كان له عشرة من الأولاد، فربما تضاعف صوته الانتخابي كأسرة أربع أو خمس مرات عن رئيسه، وأنت بصير بأنه لا يمكن تصور تساويهما من حيث الوعي الاجتماعي بمصالح الأمة.

إن صدور القوائم الانتخابية عن وزارة التعليم العالي مثلاً وفق مستوى الدرجة العلمية أعدل بكثير من صدور هذه القوائم عن دائرة النفوس العامة، وإن يكن ذلك ليس مظهر عدالة تاماً ولكنه على كل حال سعي في درب العدالة.

إني أتصور ضرورة إيجاد (بنك) للأصوات الانتخابية يتساوى فيه الناس حين يبلغون راشدين فيكون لكل منهم صوت واحد ابتداء، ثم يسجل له رقم لدى كل إنجاز علمي أو عملي، وفق معايير عادلة تتخيرها لجنة مكلفة من خبراء القانون والاجتماع فتتضاعف الأرقام كلما حصل على شهادة علمية جديدة، وكلما أنجز التزاماً إدارياً أو خدمة للناس

أو براءة اختراع أو وساماً عاماً، وهكذا فإن بنك الأصوات يحتوي على أرقام لكل مواطن، فهذا صوته بعشرة وهذا بمائة وهذا بألف ولكل مجتهد نصيب.

إن إحياء الشورى التي هي باختصار (رأي العليم) يجعل الديمقراطية التي نتوخاها أكثر عدالة وتعبيراً عن إرادة أهل العلم والحكمة في المجتمع.

وإني عارف بأن ما قدمته هنا ليس إلا تصوري الخاص لمسألة إحياء الشورى، ولا يخفى أن المجتمعات تعتمد معايير مختلفة لتطوير الديمقراطية التي تتخذ في العالم اليوم أشكالاً جدّ مختلفة.

وأود ان أضيف هنا أن تحقيق هذه الغاية يحتاج للإقرار بوجود سلطة رابعة إلى جانب التشريعية والقضائية والتنفيذية، يمكن تسميتها بالسلطة الانتخابية، تتولى ديواناً خاصاً لتسجيل خدمات الناس في المجتمع، وخبراتهم وقدراتهم وفق تصور رقمي، يمنح أصواتهم تثقيلاً خاصَاً ويتيح لهم فرصة أكبر في صناعة القرار السياسي والاجتماعي، ولا شك ان ذلك يحتاج تطوراً دستورياً شاملاً.

ومن المؤكد ان فرصة التأثير على أهل الكفاءات والخبرات في العملية الانتخابية أقل من فرصة التأثير على الجمهور، حيث تحتاج النخب دوماً إلى المحافظة على الاسم والسمعة، ولا تتأثر بمهرجانات المرشحين وولائمهم، فيما يبدو الأمر أقل أهمية بالنسبة لعموم الشعب.

إن الشورى التي أتحدث عنها أيضاً ليست بالضرورة نمطاً واحداً، ولكنها في النهاية شكل من أشكال ما أمر الإسلام بإحيائه من النهج الشوروي، وليس بالضرورة تكراراً لما كان يسمى (رأي أهل الحل والعقد) وهو وإن كان صيغة شوروية ولكنه كان في كثير من الأحيان صيغة استبدادية (فوقانية)، ترمي إلى التدثر بعباءة الجماعة وهي في النهاية مجمع خاص بأهل القدرات الزئبقية القادرة على التسلل إلى قاعة اتخاذ القرار، بل وإن الشورى التي أقصد هي إعادة تصنيف الناس وفق خدماتهم وعلمهم على أساس معياري.

وتلتمس جذور هذا المنهج من الشورى (رأي العليم) من نصوص الكتاب والسنة النبوية، فاسالوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

وهكذا فإننا في الحديث عن الشورى (رأي العليم) في الإسلام نبدو أكثر وضوحاً عندما نقارن ذلك بفلسفة جان جاك روسو عميد الديمقراطية السياسية الحديثة، حيث يرتكز جوهر الفلسفة السياسية عنده على اعتبار أن الخير العام القائم لا يعود إلى أسس الأخلاق والقانون الطبيعي، بل إن المعيار الوحيد عنده لذلك الخير هو العدد حيث يصبح القانون البشري هو معيار ذاته، وهو قيمة أخلاقية بنفسه، لأنه يعبر عن الإرادة العامة وهكذا فعن طريق جمع حسابي للأفراد بوصفهم هويات مجردة تصير القوانين مجرد تسجيل للإرادات على أساس كثروي.

وهنا يتعين القول: إن الشورى لدى مقارنتها بالديمقراطية فإنها تشكل معها مركبة لا متقابلة تتجه نحو التكامل لا نحو التدافع، وهي تتفق مع الديمقراطية بأن رأي الجماعة خير من رأي الفرد، يد الله مع الجماعة، من شذ شذ في النار، صلاة الرجل في الجماعة تفضل صلاته وحده بسبعة وعشرين ضعفا، وكلها سنن نبوية ملهمة، تأمر بتلمس الأكثرية، ويبقى السؤال واحداً: أكثرية من؟ في الديمقراطية التقليدية: الأكثرية العددية وفق بيانات دوائر النفوس.

وفي الشورى (رأي العليم): الأكثرية الموضوعية بحيث يمنح العليم والعامل والمنتج والمتفوق عموماً رصيداً مكافئاً على ورقته الانتخابية.

ويجب القول في هذا السياق أن البلاد المتحضرة في سعيها المستمر لتطوير الديمقراطية تتجه نحو مفهوم أكثر مقاربة للشورى، وفي هذا السياق قامت مجالس الأعيان والخبراء وقامت الديمقراطيات النخبوية كمجالس الزراعة والصناعة والنقابات التي باتت تتضمن أشكالاً من الانتخابات لا تلتزم المساواة الصمّاء وإنما تحقق التمايز بين الناس على أساس كفاءاتهم وخبراتهم ومعارفهم.

الفصل الثاني: الديمقراطية التطبيقية .. الوسائل

يمكن دراسة الديمقراطية في سياق: الديمقراطية التطبيقية او ما نسميه وسائل الديمقراطية كما يمكن أن ندرسها أيضاً في سياق الديمقراطية التشريعية.

ومن السهل أن نجد في الحركات الإسلامية تفهماً عريضاً للقبول بالوسائل الديمقراطية من حكم الأكثرية والشورى والانتخابات وتداول السلطة والالتزام بالدساتير والقوانين، حيث يتم اعتبار ذلك كله من باب الشورى المأمور بها شرعاً، بالطبع لا يشمل ذلك الحركات التكفيرية التي ترفض أي احتكام الى الاغلبية وتقوم بتعيين المناصب فيها وفقاً للولاء لهيئاتها القيادية والالتزام بمشروعها الإقصائي دون أي اعتبار للناس.

ولكن الجدل يشتد في إمكانية اعتبار الديمقراطية مصدراً للتشريع، وهو ما تعتبره معظم الحركات الإسلامية محادّة لله ولرسوله، وتقيم التناقض فيه بين حكم الله وحكم البشر.

وسنتناول هذه المسألة في الباب التالي تفصيلاً تحت عنوان الديمقراطية التشريعية.

وعادة ما تقدم الحركات الإسلامية المختلفة مواقف واقعية في التعامل الإيجابي مع الشرط الديمقراطي بوصفه وسائل للوصول إلى رأي السواد الأعظم من الناس، وهو في الجوهر مطلب إسلامي وقد مارسه الرسول الكريم مراراً في حياته الكريمة.

ففي إطار الانتخابات...

تشارك الحركات الإسلامية عموماً في الانتخابات إذا توفرت فيها ظروف معقولة من النزاهة، وتؤسس لذلك عبر سلسلة تطبيقات مارسها النبي الكريم في حياته ومنه قوله: إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم[10] وهذه دعوة واضحة لاختيار من يتعين أن يقود الأمة عبر

[10] الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، المصنف، رواه عن عمر بن الخطاب، وله شواهد في الصحاح، وهو في المصنف ج 4 ص58

تشاور وتحاور، وفي يوم بيعة العقبة الثانية دعاهم لاختيار ممثليهم وقال: ابعثوا إلي نقباءكم،[11] وكان يريد بالفعل أن يصل إلى تمثيل مناسب للناس عبر اختيار من يملك الكفاءة والقدرة على تمثيل الناس، وفي ذلك ورد التوجيه النبوي الكريم: من استعمل على المسلمين رجلاً وهو يرى أن غيره خيراً منه فقد خان الله ورسوله.[12]

وفي عام الوفود فقد كان النبي الكريم يستقبل القبائل القادمة من أطراف الجزيرة العربية، وكان يصغي باهتمام وإنصات لخياراتهم، وحين كان يختار لهم أميرهم كان واعياً بالرجل الأكثر مقبولية والأقل خصومة في قومه، وتجد تفاصيل ذلك في كتب السيرة النبوية الكريمة.

ومن المؤكد أن النبي الكريم لم يحددْ خلفاً له ولم يسمّ خليفة بالاسم وترك المسلمين يختارون لأنفسهم وكان ذلك أول اختبار حقيقي للديمقراطية، على الرغم من الدهشة التي أصابت فريقاً كبيراً من النصيين الذين لم يصدقوا أبداً أن رسول الله سيترك الأمة بدون خليفة وأنه سيترك الأمر انتخاباً يمارسه الصحابة دون وجود رقيب من الوحي ولا ولي فقيه يحدد لهم ما يجب أن يحتاروه وما يجب أن يتركوه.

وقد اتفق أهل النسة والجماعة أن النبي الكريم ترك الأمر شورى بين أصحابه ولم يسم خليفة من بعده، وأن اختيار أبي بكر كان عن شورى من الناس، ولم يكن بين يدي المتحاورين أي نص يحدد الخليفة الآتي، فقد شاء رسول الله أن يترك هذا الأمر قراراً للأمة تتحمل مسؤوليته، وتتعامل مع الحاكم تعاملاً عادلاً ديمقراطياً فتنصبه بشرطه وفي محله وتحاسبه وتحاكمه إذا هو أخطأ وهذا في الواقع موقف الدول المتحضرة في كل مكان.

وقد اشرنا إلى ذلك هنا عرضاً وستجد نفصيلاً أكثر في الفصل المخصص لرحيل الرسول.

---

[11] حديث النقباء مروي في كل كتب السيرة النبوية عند بيعة الحديبية وأشهرها ابن هشام وابن إسحاق

[12] النيسابوري، الحاكم ، المستدرك على الصحيحين، ج 4 ص 104

ومن التقاليد المستقرة في الدولة الإسلامية عبر التاريخ مبدأ البيعة، وهو موقف دلت له الأحاديث النبوية الكثيرة، وهي متشابهة في تقاليدها، حيث يحضر النخب والعامة لبيعة الخليفة او الأمير، وتكون البيعة ملزمة من بايع ولا تنعقد في حق من لم يحضر البيعة، وهذا موقف واعٍ يكرس حق الإنسان في الاحتيار وبالتالي، يوجب على وليّ الأمر طرح الحلول المقبولة لدى الناس لينخرطوا في البيعة.

ولا يمكن بالطبع إنكار سلوكيات الاستبداد المستمرة هلال التاريخ والتي مضت إلى إكراه الناس على البيعة، وهو سلوك الاستبداد الذي لم يتغير، وظل باستمرار يرمز إلى القمع والإكراه.

وفي هذا المعنى فإن الإمام مالكاً كان يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث ليس على مستكره بيعة[13] ويعتبره أصلاً في وجوب تحصيل البيعة بالرضا واعتبار بيعة الإكراه باطلة، وهو النص الذي تعرض بسببه للاضطهاد والظلم أيام الخليفة المنصور.

وفي إطار التعددية....

قد يكون المبالغة القول بان التعددية كانت مزدهرة في الدول الإسلامية عبر التاريخ، وخاصة في الجانب السياسي، فقد كانت المعارضة مصطلحاً غير مألوف ولا مقبول، وكانت تنتهي عادة بأساليب دموية قمعية مريرة، ومن العسير أن نحصل في التاريخ الإسلامي على مشهد التعددية السياسية الديمقراطية المألوفة اليوم.

أما في الجانب الديني فقد ظل الحكم الإسلامي في التاريخ قائماً على تعدديات دينية وإثنية وطبقية، وظلت الكنائس إلى جانب المساجد والمعابد إلى جانب الجوامع، وفي القرآن الكريم إشارة واضحة لوجوب حماية المعابد أياً كانت عقائد معتنقيها،

---

[13] حديث صحيح ، أخرجه الإمام مالك في الموطأ ، ج1 ص 62 بصيغة ليس على مستكره طلاق، ولكنه عوقب بسببه إذ رأوه إرمازاً على بيعة الإكراه،

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾

البقرة: ٢٥١

وفي حياة النبي الكريم فإن اليهود على سبيل المثال وهم الطائفة الرئيسية التي كانت في المدينة حظيت بتعاقد محترم في أول عهد الرسول بالمدبنة، كما قرأناه في وثيقة المدينة، وبخلاف المشهور في الروايات التاريخية من أن الرسول أخرجهم من المدينة، فإن وثيقة المدينة تذكر ثلاث عشرة قبيلة يهودية في المدينة وقد أخرج الرسول الكريم في السنوات الخمس الأولى ثلاثة منها وهي قينقاع والنضير وقريظة، (من الغريب أنها لم تذكر وثيقة المدينة) فيما بقيت القبائل الأخرى في المدينة، وفي الحديث الصحيح ان النبي الكريم مات ودرعه مرهونة عند يهودي، والحادثة تكشف أن الوجود اليهودي استمر إلى نهاية عصر الرسول، وأن اليهود كانوا في وضع اقتصادي جيد لدرجة أنهم يقرضون رئيس الدولة، وإذا كانت القبائل المذكورة الثلاث قد أخرجت بسبب مواقف سياسية محددة كانت ضارة للغاية بأمن الدولة، فإن العشائر اليهودية الأخى مارست حياة طبيعية في المدينة ومن الممكن القول إنها ذابت في النهاية في المجتمع المسلم عن طريق اعتناق الإسلام أو الهجرة الطوعية.

ويمكن قراءة واقع مماثل خلال التاريخ الإسلامي، في العراق مثلاً ظل التنوع الديني سمة المجتمع الإسلامي خلال التاريخ، ومع أن العراق كان مركز الخلافة العباسية نحو 524 سنة وظلّ بعد ذلك مركزاً قوياً للدولة الإسلامية ولكنه ظلّ كما نشاهده اليوم متحف أديان، ولو كان المجتمع الإسلامي لا يعرف التعددية الدينية لتم اجتثاث تلك الأقليات، ولكنها ظلت تعيش في عافية وانسجام في ظل الدولة الإسلامية، وظلت الأقليات في العراق مسيحيون ويهود وزرادشتيون وكاكائيون ويزيديون وصابئة وشبك وسنة وشيعة، ولم تتعرض الأقليات للاضطهاد المنظم إلا على يد الجماعات الخارجة على القانون.

وترتبط التعددية ارتباطاً مباشراً بالحرية وهو ما أكدت عليه نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ويقول لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، ويقول ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم.

وقد ظلت الأديان والطوائف تعيش في كنف الإسلام، ونحن مدينون للصابئة والمسيحيين واليهود الذين أسهموا في نشر الحضارة الإسلامية وطرحوا قيمها في العالم، وقد ظلت العلوم الكونية لعدة قرون بيد المسيحيين والصابئة العرب، وكانوا جسراً معرفيا نقلوا لنا ثقافات الأمم الأخرى ولم يتعرض أي من هم للاضطهاد أو القمع، وظل هؤلاء في معابدهم وكنائسهم يمارسون دينهم ويحظون بحماية الدولة والمجتمع، بل إن الدهريين أنفسهم وهم الملحدون الذين لا يؤمنون بالخالق وجدوا فرصتهم للتعبير عن آرائهم وكلنا يعرف القصة المشهورة عن حوارات أبي حنيفة مع الدهريين، وهو الحوار الذي كان ينعقد في بغداد على شاطئ دجلة بإشرافِ الخليفة أبي جعفر المنصور حيث كان الدهريون يقدمون آراءهم وأفكارهم المختلفة أمام أبرز رجال الدولة في العراق، وكانوا بعد الحوارات ينصرفون إلى بيوتهم ويمارسون دورهم في التعريف بأفكارهم ومنها قدم العالم والعقل الكلي وهي أفكار صنفت فقهياً على أنها كفر، ولكن الدولة المسلمة لم تقمع هؤلاء بسطوة السلطة طالما أنهم كانوا يمارسون التعبير عن آرائهم باحترام ومسؤولية.

وخلال التاريخ الإسلامي ظلت الكنائس المسيحية والكنس اليهودية تقوم بممارسة دورها بحرية داخل المجتمع الإسلامي وظلت كتب التثليث والأقانيم محفوظة في الكنائس ولم يسجل خلال التاريخ أي اعتداء عليها على الرغم من مخالفتها الصريحة والواضحة لقيم العقيدة الإسلامية في التوحيد.

بل إن كتب الصابئة والدهرية والملاحدة ترجمت إلى العربية على يد أمهر علماء اللغات، ودفع ثمن ترجمتها وزنها ذهباً ومن بيت مال المسلمين على الرغم من أنها كانت في العمق تتناقض تناقضاً تاماً مع قيم الإسلام في التوحيد.

وبالطبع لا أنكر أن القمع كان موجوداً أيضاً، وقد مارسه خلفاء ووزراء كثير، ولكن الصورة الغالبة هي التسامح والتعددية وهذا سبب بقاء هذه الاديان المتفرقة.

وقد أشرنا في هذه الدراسة إشارة عابرة لما أورده القرآن الكريم في شان إبليس ودلالة ذلك حيث أعرب إبليس عن عدم قناعته ولا رضاه بالمشروع الإلهي في خلق آدم، ورفض السجود له بل إنه أعلن موقفه بوضوح أنه ماض لغواية بين آدم، ولآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين، ومع ذلك فإن القرآن الكريم أشار بوضوح إلى هذه الحقيقة، وأن الله تعالى أتاح له أن يمارس حريته واختياره، وحين طلب إبليس بعض الحريات ليتمكن من تنفيذ برنامجه المعارض لله أعطاه الله على الفور ذلك، قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، ثم قال له القرآن: واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

كان في قدرة الله بالطبع أن يمحق إبليس من الوجود ويجعله أثراً بعد عين، لم يفعل، أراد أن يبقى جدل الحق والباطل وأن يدافع الحق عن نفسه بالحجة والبرهان وليس بالبطش والسلطان.

ومع أن جدل اللاهوت هذا لا يقنع حوار الناسوت، ولكنه على كل حال إرماز ذو دلالة في الإذن بالتعددية السياسية والاجتماعية والطبقية في هذا العالم كما اختارها الله تعالى حين شاءت قدرته أن يعيش على الأرض آدم وأبناؤه وإبليس وذريته، ولو كان ذلك محض كوميديا إلهية رامزة.

وفي إطار حكم الأغلبية...

في إطا ر حكم الأغلبية تجدر الإشارة إلى ما أوضحناه سابقاً حول دولة الرسول الكريم، وحين كان أقلية في مكة وفي الحبشة لم يكن في وارده على الإطلاق إقامة حكم إسلامي أو إعلان دولة إسلامية، وفيما بعد بدأت يثرب بدعوته منذ السنة العاشرة للهجرة عندما أسلم إياس بن معاذ وأبو الحيسر وأصحابهما، ولكن الرسول لم يشا أن يلبي هذه الدعوة، وبدلاً من ذلك بدأ برنامج دعوة سلمية احتماعية لمدة ثلاث سنوات اكتملت بجهود مصعب بن عمير ورفاقه بين العقبتين، ولم يهاجر الرسول إلى المدينة إلا عندما تأكد تماماً من توفر أغلبية مريحة فيها تطالب بالحياة الإسلامية، وقد اختار توكيد هذه الحقيقة في مهرجان باسم وسلمي على مشارف ثنيات الوداع حين غنى له أهل المدينة طلع البدر علينا من ثنيات الوداع.

لقد باتت هذه البداية النبوية ملهمة لحركات العمل الإسلامي المختلفة اليوم، حيث تعلن معظم الحركات الإسلامية المعاصرة القبول التام بمبدأ حكم الأغلبية، ولا شك أن هذه الشعارات لم تطبق بنزاهة ودقة، كما هو الحال عند كل الحركات السياسية المختلفة، ولكنها على الأقل الموقف النظري المؤيد بجملة من الأدلة الشرعية والبراهين.

وفي الحديث الشريف: اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة[14]، وعلى ذلك أيضاً النصوص العامة في الإسلام: الزم السواد الأعظم، وإن الله مع الجماعة، ولا يجمع الله أمتي على ضلالة[15]، وغير ذلك من النصوص العامة.

وفي الحديث أيضاً: من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية[16]

وخطب ابن مسعود فقال: أيها الناس اتقوا الله وعليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به وإن ما تكرهون في الطاعة والجماعة خير مما تحبون في الفرقة

---

[14] حديث صحيح، أخرجه الإمام البخاري عن أنس بن مالك ج 1 ص 140

[15] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، عن أبي بصرة، وقال شعيب الأرناؤط الحديث صحيح لغيره، ج45 ص 200

[16] حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم في الجامع الصحيح، ج 3 برقم 1848

وفي وصية واضحة للرسول الكريم لالتزام خيار الجماعة قال: لا يجمع الله هذه الأمة على الضلالة أبدا، وقال: يد الله على الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار.[17]

والتعبير بسواد الناس الأعظم يتضمن إشارة دقيقة للمقصود، فقد عبر عن الجمهور بالناس ولم يخص به المسلمين، والتعبير بالسواد إشارة إلى العدد المحض، وعدم اشتراط أية شروط على الأفراد الذين تتشكل منهم صورة المجتمع الساحقة.

ومع ذلك فإن الإسلام سبق إلى التنبيه أن حكم الأغلبية لا يجوز أن يقوم على اضطهاد الأقلية أو سلبها حقوقها لصالح الأكثرية، وهو شرط لم تشر إليه الدساتير الديمقراطية إلا في مرحلة متأخرة.

وفي إطار تداول السلطة...

فإن الحركات الإسلامية تتقبل ذلك على منطق حق الناس في اختيار حاكمهم، وتغييره وتبديله، ويمكن القول إن النبي الكريم والخلفاء الراشدين رسخوا مبدأ تداول السلطة، ولم يقم أي منهم بتوريث أحد من أسرته أو أولاده، وكانت الخلافة تنتقل بشكل سلس ومناسب للخليفة التالي دون التزام بعشيرة أو قبيلة أو أسرة.

ومع أن أبناء الخلفاء الراشدين كانوا شخصيات عامة بالغة التأثير في المجتمع كمحمد بن أبي بكر وعبد الله بن عمر وأبان بن عثمان والحسن بن علي، ولكنهم لم يتطلعوا أبداً لتسمية اولادهم في الحكم من بعدهم، وكان هذا أمراً اتفاقياً بين الراشدين.

ولكن هذا الأمر تغير بشكل جذري منذ العصر الأموي، حيث انتقل إلى الملك الوراثي العضوض، الذي استمر في الدول العباسية في العراق والأموية في الاندلس والفاطمية والعثمانية، وجرى العمل كذلك في الدول الرئيسية في التاريخ الإسلامي على القيام

17

بتوريث الحكم في الأسرة الواحدة، ولا يمكننا للاسف أن ندافع عن تداول السلطة عبر التجارب التاريخية للدول الإسلامية المختلفة.

ومع ذلك فإن الشواهد كثيرة على تداول السلطة في حياة الرسول الكريم الذي ولى وعزل، وعقد الألوية لبعضهم ثم عزلهم عنها، ولم يستخلف أحداً من أهل بيته.

وفي موقف ذي دلالة فقد عزل الرسول الكريم سعد بن عبادة عن حمل اللواء يوم فتح مكة، على الرغم من منزلته ومكانته، وذلك حين صاح في وجه أبي سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشاً، ولكن النبي عزله على الفور وقال بل اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشاً.

وفي الواقع فإن مفهوم تداول السلطة بالمعنى الديمقراطي الحديث لم يكن موجوداً في عصر الرسالة، ولكن تداول السلطة على كل حال مفهوم في الجانب الاعتقادي كما أخبرت عنه الآية الكريمة: وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم اللله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء.

كما يمكن تأسيس مبدأ تداول السلطة وتحديد المدة في المنصب تأسيساً على قاعدة العقد الاجتماعي، وعموم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ ١﴾ المائدة: ١

الفصل الثالث: الديمقراطية التشريعية ...الحاكمية

هل يسوغ القول إن رسول الله قد اتخذ منهجاً ديمقراطياً في التشريع، أم يجب الوقوف عند عموم الآيات: إن هو إلا وحي يوحى، وما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي، إن أتبع إلا ما يوحى إلي؟

سنحاول في الباب التالي الإجابة عن هذا السؤال بسرد مواقف محددة من حياة النبي الكريم، وهدفنا واضح إثبات قدر من الديمقراطية في الحركة التشريعية التي كانت تجري في عصر الرسول الكريم، ولكننا نتحدث هنا عن مدى قبول الحركات الإسلامية اليوم للديمقراطية في شقها التشريعي.

بينا في الفصل السابق أن الإسلاميين عموماً باتوا يتقبلون الديمقراطية في شقها العملي المتصل بآليات الديمقراطية ووسائلها، في حين أنهم لا يزالون يشككون بالديمقراطية كآلية تشريع بحيث يتوجب اتباع الأغلبية في قراراتها وتشريعاتها وخياراتها، ولا زال قسم كبير من الإسلاميين في المجتمع الإسلامي يعتبر ذلك افتئاتاً على الله واحتكاماً لغير أمره وهديه، وطاعة للجبت والطاغوت.

وحين يتم الحديث عن التشريع بالوسائل الديمقراطية فإن التساؤلات التقليدية التي نسمعها هي ماذا لو اتفقت الأغلبية على حكم مخالف للشرع، كأن أحلّت الخمور أو الزنا أو الشذوذ.

والحقيقة أنه لو اتفقت الأغلبية على ذلك فمعنى ذلك أننا نعيش في بلد غير مسلم، ومن الطبيعي أن ينتج أحكاماً غير إسلامية، وفي هذه الحال فإن لنا في مهاجري الحبشة قدوة حسنة، فقد كانوا يعيشون في بلد نصراني ولم نسمع منهم أبداً إنكاراً لقيام الحبشة بإباحة

الخمر أو ترك إقامة الحدود في الزنا والشذوذ أو منع الرموز التي تدعو إلى الشرك، لقد كان ذلك كله موجوداً في الدول المسيحية ولم يكن بوسع المسلمين إلا احترام رأي الأغلبية والتكيف معها لأنهم يعيشون في بلد غير مسلم.

الأمر نفسه عاناه المسلمون خلال التاريخ عندما كتب عليهم أن يكونوا أقليات لا تملك أمر التشريع.

ومع أن تياراً أصولياً لا يزال يرى في الديمقراطية التطبيقية انحرافاً عن الأصول الإسلامية أو عدواناً على النص، أو خرقاً لمبدأ الحاكمية، فإن ما يمكن تقريره هنا بثقة هو أن هذا التيار آخذ في الانحسار، وأن بقاءه مرهون بهمود الوعي بحيث تكون النتائج مختلفة إذا نجح التنوير.

وقد ظهر الموقف المتشدّد من الديمقراطية في ما كتبه كثير من الكتاب الإسلاميين في الخمسينات والستينات من قراءة نقدية للديمقراطية على أساس أنها معارض حتمي لمنطق حاكمية الله، وأنه لا يمكن القبول بحكم النص الديني والاحتكام إلى إرادة الشعب في آن واحد، ذلك أن إرادة الناس منبثقة في الغالب من الهوى وهو ما يتعارض بشكل حادٍ مع الشريعة الإلهية المنبثقة عن مصدرٍ مختلف تماماً هو الوحي!

وهكذا فإن بعضهم ذهب إلى حد القول إن المساواة والحرية وغير ذلك من القيم الإنسانية النبيلة ما هي إلا انحرافات عن هدي الوحي الذي يدل ظاهره على عدم المساواة بين الرجل والمرأة وبين الحر والعبد وبين المؤمن والكافر، وأن البحث عن إرادة الأغلبية هو جحود لمنطق القرآن الكريم: ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقوله: وإن تطع أكثر من في الأرض جميعاً يضلوك عن سبيل الله.

وصرح بعضهم بالقول: إن الديمقراطية هي وثنية القرن العشرين، وأن البرلمانات هي الأصنام الجديدة![18]

[18] عبد الرزاق عبد القادر، العمدة في إعداد العددة، ص 96، والكتاب من أهم الكتب المعتمدة عند التيارات المتشددة

وبالمقابل فقد أطلق منكرو الوحي خطابهم في الحكم على الإسلام بأنه معاد للقيم الإنسانية وأنه غير معني بالمساواة في الأرض، وراحوا يستحضرون الدليل تلو الدليل على الاستبداد الذي وقع في التاريخ الإسلامي، للتدليل على أنه كان نتيجة اعتماد خيار الوحي وتنكب الخيار الديمقراطي!

وبغض النظر عن التجارب التاريخية فإنني أزعم أن الدول الإسلامية القائمة اليوم هي دول مدنية، تنص دساتيرها على حكم القانون، وتستبعد دور رجال الدين من الحكم، وربما يتعين استثناء بلد واحد وهو إيران التي نص دستورها وتطبيقاها على وجود هيئات دينية ثيوقراطية فوق البرلمان وفوق الدولة، والأمر نفسه وبدرجة أقل في المملكة العربية السعودية التي لاتزال تمنح دوراً سياسياً وإن كان بدرجة أقل لهيئة كبار العلماء وهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوصفها هيئات دينية ومدنية في آن معاً.

وبالطبع يختلف الأمر في أشباه الدولة التي شهدتها العقود الأخيرة كطالبان في أفغانستان وتنظيم الدولة في سوريا والعراق والمحاكم الإسلامية في الصومال، وهي حالات استبداد لا تعبر عن طبيعة المجتمع الإسلامي المتسامح وقد جاءت بعنائه وقهره وليس باختياره ورغبته.

ولست أقصد أن المؤسسات الدينية غير فاعلة في الدول الإسلامية، إنها فاعلة تماماً وحيوية، ولكن دورها في البلدان الإسلامية لا يتعدى دور النقابات في المجتمع الغربي، وهي تفتي ببطلان قوانين وممارسات، وتحشد لمنع بعض التشريعات، ولكنها في النهاية ملتزمة بالقانون ولا تطالب بالخروج على ولي الأمر إذا رفض الالتزام فتاويها، وبهذا المعنى فهي في سياق العملية الديمقراطية.

إنني أؤكد أن الثيوقراطية الدينية مرفوضة في الإسلام، وإن إقامة حكم ديني في الإسلام بالمعنى القروسطي الذي عرفته أوروبا هو منطق مرفوض إسلامياً، وغير موجود في الدول الإسلامية المعاصرة، وهو ليس على برنامج الحركات الإسلامية الحالية التي

تعمل في السياق الديمقراطي، وأن ما يتوجه الإسلام لبنائه في الأرض هو نظام مدني، بشروط ديمقراطية تتفاوت اتساعاً وضيقاً بين علماء السياسة الشرعية في الإسلام.

إن المشكلة تتمثل في أننا نعمد إلى منهج انتقائي في قراءتنا للتاريخ الإسلامي بحيث نعمد إلى أشد الآراء تطرفاً وظلامية فنتصور أنه واقع الأمة الإسلامية في التاريخ وأنه ما تسعى له الحركات الإسلامية، وكأن ليس في التاريخ الإسلامي غير هذا الخيار.

وفي مسألة الديمقراطية فإن العلمانيين عادة ما يخوفون من الإسلام على أساس شعار لا حكم إلا لله، أو الإسلام هو الحل، أو الحاكمية لله وحده، ويقولون إن هذه الشعارات مناقضة بالكامل للديمقراطية..

ولكن شعار لا حكم إلا لله على طهارته ومصداقيته هو شعار مرفوض حاربه الوعي الإسلامي إبان الرشد وخاض الإمام علي حرباً ضروساً ضد الخوارج عندما رفعوا شعار لا حكم إلا لله، وقد حاربهم بشدة دفاعاً عن حقوق الناس في الحريات والإرادة الشعبية، مع عدم الاعتراض على الشعار من جهة المبدأ، وهو ما قال عنه الإمام علي: كلمة حق أريد بها باطل.

وفي بيانه الشهير قال لهم: إنما كتاب الله مصحف بين دفتين لا ينطق! وإنما ينطق به الرجال.

ولا يخفي كاتب هذه السطور ميله إلى تأكيد التوافق بين التشريع بالنص الديني وبين التشريع بالأغلبية الديمقراطية، والتأكيد على إمكانية الوصول إلى تنائج متشابهة سواء كان المنطلق هو النص الديني أو الأغلبية الديمقراطية.

وسنقدم عدداً من المداخل الأصولية الفقهية التي نأمل أن تكون فصل مقال يؤكد ما بين الشريعة والديمقراطية من الاتصال.

الديمقراطية ومبدأ السواد الأعظم

تشترط الديمقراطية الالتزام بحكم الأغلبية باعتبار أن الوفاق المطلق مسألة غير ممكنة، وقد تحددت خلال التاريخ تقاليد راسخة لحكم الأغلبية، وأصبح تكريس هذا الواقع جزءاً لا يتجزأ من مهمة الدستور الوطني والقوانين المحلية.

والسؤال الآن هل يتعارض هذا التوجه مع القيم الإسلامية؟

إن السنة النبوية طرحت مبدأ هاماً يعزز مبدأ التزام الأغلبية وهو مبدأ اتباع السواد الأعظم، وهو ما ورد في سلسلة أحاديث صحيحة يدعو فيها الرسول الكريم إلى اتباع السواد الأعظم من الناس.

وقد جاءت مواقف الرسول الكريم جواباً على أسئلة الصحابة المختلفة حول التعامل مع الأيام الآتية حين يتوقف الوحي وينقطع التشريع من السماء.

ومن هذه الصيغ: إذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الأعظم،[19]

وفي الحديث أيضا الدعوة إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، وفيه النهي عن الانفراد: يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.[20]

ويذهب عامة الفقهاء إلى أن الأغلبية المقصودة هنا هي أغلبية المتقين والمصلين والصائمين الملتزمين بشرع الله وهديه، أما عموم الناس فلا يجوز اتباع الأغلبية منهم وقد قال تعالى: وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله، وفي القرآن أيضاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

---

[19] ابن ماجه القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه عن أنس، ج 4 ص 82 قال الهيتمي في الزوائد سنده ضعيف، وبمثله قال الألباني

[20] أبو داود السجستاني، سليمان بن الأذعث، سنن أبي داود، عن أنس بن مالك ح 1 ص 205 قال الألباني حديث حسن

والحقيقة أن اتباع سواد الناس الأعظم في أمور الدين من عبادات وشعائر هو خاص بالأغلبية من المتقين المسلمين.

ولكن المعنى الذي تسعى إليه الديمقراطيات هو الخضوع لرأي الأغلبية فيما يتصل بأمور الحياة العامة من بيع وشراء وسياسة وإدارة واقتصاد ورياضة... وهذه مصالح إنسانية مرسلة، لا يوجد فيها نص مباشر من كتاب أو سنة، فلا يوجد كما هو معلوم نص فقهي ينظم أحكام المرور والسفر والجوازات والإقامات وغيرها من مصالح الناس، ولا بد هنا من الاجتهاد بالرأي، وقد علم العقلاء أن لا قيمة لأي اجتهاد في شأن من شؤون الدنيا إلا إذا أخذ بالاعتبار تجارب الأمم والشعوب ووقف عند استقراء رأي الغالبية من الناس .

وقد أصّل الفقهاء رأي الأغلبية تحت عنوان أصولي دقيق اسمه العرف وصار العرف مصدراً أساسياً في التشريع فيما سكت عنه النص عند الحنفية والحنابلة، وللشافعية والمالكية كلام قريب من هذا، ولم يقل الفقهاء إن المقصود بالعرف هو ما اعتاده المتقون، بل المقصود ما اعتاده أهل حرفة أو صنعة أو تجارة في باب من أبواب السعي أو العمل بغض النظر عن إيمانهم أو تقواهم.

ولعل أكثر ما يرد على فكرة السواد الأعظم ما لو كان المسلمون في بلد غير إسلامي، وذهبت الأغلبية إلى اختيار ما يصادم الشريعة من أحكام.

والجواب على ذلك يسير، وهو ما علّمه الرسول الكريم لأصحابه في هجرتهم الأولى إلى الحبشة فقد أقاموا في دولة نصرانية، يكتب شرعها وأحكامها بطارقة وكهنة وأهل اختصاص ونظر وكان المسلمون يلتزمون اختيار الجماعة، ويعتبرون أنهم ملزمين برأي السواد الأعظم من أهل الحبشة في صعيد العلاقة الاجتماعية، ويأخذون أنفسهم فيما يتصل بأحكام الفرد بما يأمرهم به دينهم.

ولم نسمع من الصحابة طيلة اقامتهم في الحبشة التي استمرت اربعة عشر عاما أي موقف اعتراض على ما تختاره الحبشة من تشريعات وفق الآليات الدستورية التي كانت

سائدة، وسجل الصحابة الكرام في الحبشة أعلى درجة من الالتزام الوطني، واحترام القوانين السائدة في بلاد غير مسلمة، وفي روايات متعددة قام الصحابة بالقتال إلى جانب النجاشي عندما خرج عليه بعض المعارضين من قومه.

ويجب القول أن السلوك الشخصي للمسلم ليس موضوع نقاش في البرلمانات، والديمقراطية تمضي عادة إلى تجنب الدخول في الحياة الفردية للناس، وهو ما كان المسلمون يحتاجونه في الحبشة لعبادة ربهم والتمسك بدينهم.

إن ما يقرره السواد الأعظم من الناس عبر الآليات التشريعية المحترمة في البلدان المتحضرة بات بالنسبة للمسلم المقيم في الغرب ملزماً، تأسيساً على هدي النبي الكريم في توجيهه لمسلمي الحبشة وأخذاً بعموم الأحاديث التي تأمر بالتزام سواد الناس الأعظم، والتزام الجماعة، في كل أمر يتصل بمصالح المجتمع.

وفي هذه النقطة يمكننا الحديث عن توافق كبير بين الوعي السياسي في الفقه الإسلامي في مسألة السواد الأعظم وبين منطق الأغلبية في الديمقراطيات الحديثة.

ولا شك أن الأنظمة الدستورية في العالم كله تترك مساحة كافية ووافية لخيارات الفرد بما لا يؤثر على عمل الجماعة، وهذا هو القدر الذي يمكن للمسلم أن يتميز به ديمقراطياً عن الناس في خياراته وشعائره وعباداته.

كما أن الديمقراطية أنجزت تطوراً هاماً في العقود الأخيرة وتجاوزت مصطلح تسلط الأغلبية على الأقليات واستبدلته بحق الأغلبية في الحكم، وحق الأقلية في الاستقلال بخصائصها وشخصيتها الذاتية.

الديمقراطية والفطرة

يختلف المفكرون الإسلاميون اختلافاً شديداً في الموقف من الديمقراطية التشريعية، فبينما يقول جودت سعيد الديمقراطية هي التوحيد الخالص لله، فإن محمد قطب يسميها: الطاغوت!!

وفي بيان موقفه كتب محمد قطب كتاب جاهلية القرن العشرين وفيه تحدث عن التناقض العمودي الجذري بين الإسلام وبين الديمقراطية بوصف الديمقراطية احتكاماً إلى الشعب لا إلى الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

ولكن الديمقراطية كما يقول جودت سعيد هي محاولة لقراءة إرادة الله تعالى عبر الوصول إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فمن المعلوم أن الفطرة في جوهرها إلهام إلهي سائق لذوي العقول السليمة إلى الخير والفلاح، على وفق ما أراده الله تعالى، وبذلك فإن الديمقراطية إذن هي محاولات عميقة تستهدف معرفة ما تدعو إليه الفطرة السليمة عند الناس، وتحقيق ذلك، حيث يؤمن المؤمن بأن فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تزال حاضرة في ضمير الإنسان، وهي تماماً أثره وفعله وسره.

وعندما تبتكر الديمقراطية آلات جديدة تستطيع أن تقرأ بحياد ما في الضمائر والفطر فهي تمارس قراءة لفطرة الله، وهي لون من الوحي، وهي تماماً تقرأ في الكتاب المنشور ما يقرؤه الناس في الكتاب المسطور، أنهم يقرؤون في الكتاب المجلو ما يقرؤه الناس في الكتاب المتلو، إنهم يقرؤون من آيات الآفاق والأنفس ما يقرؤه الناس في سطور المصاحف!

يشترك المسلمون على اختلاف مذاهبهم في الغيمان بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، والفطرة في المفهوم العقدي في الإسلام هي نفحة من روح الله نفحها الله في ابن آدم، تلهمه الخير والصلاح والرشاد، وتزين له طريق الحق وتحذره من طريق الباطل، وهذا المعنى هو ما شرحته الآيات الكريمة: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وقد جاء المعنى في السنة النبوية بصيعة أكثر وضوحاً وحضوراً: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه ينصّرانه أو يهوّدانه أو يمجّسانه.

ومقتضى ذلك ان الله تعالى تولى بنفسه زرع قيم الخير والعدل والاستقامة في نفوس الخلق جميعاً على اختلاف أديانهم وأقوامهم وشعوبهم، ولو رحت تسأل الأطفال عن الخير والشر والإيثار والأنانية فإنك ستحظى بأجوبة متشابهة، وحين تظهر نوايا عدوانية عند الطفل فإنه يعتبر شاذاً يحتاج للمراقبة والمتابعة.

وتعتبر عقيدة الفطرة من المسائل الاتفاقية بين الفقهاء المسلمين، وبهذا المعنى فإن الوصول إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها هو لون من قراءة الوحي، ولون من التبصر بإرادة الله تعالى.

إن القرآن يتحدث في الجوهر عن الإنسان بوصفه مشروع الله الرئيس على هذا الكوكب، وعن الفطرة التي أودعها فيه قبل أن ينزل الكتب ويبعث الأنبياء ويشرع الدين، ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

إنه الكائن الذي خلق على صورة الله، وفيه عطره ولونه وريحه، عربيا أو أعجميا أو أمريكيا أو استرالياً، ليبراليا أو متديناً، اشتراكياً أو رأسمالياً، لا يوجد خالق آخر، إنهم جميعاً قدموا من مخاض يتم بطريقة واحدة، أرحام تدفع وعيون تخشع، والله ذاته هو من نفخ فيها الروح وهو نفسه مسح منها الجبين وهو نفسه ألهمها فجورها وتقواها...

إنها إذن إرادة الله التي شرحتها الكتب السماوية، سواء في السماء حين نفخ من روحه في آدم، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (سورة البقرة) أو في الأرض عندما بات ينفخ من روحه في كل مولود جديد على الفطرة، كما في الآية الكريمة: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه (سورة السجدة)

وحين نقترب من هؤلاء الوافدين من مهبط السماء على أطراف الكوكب، سواء كانت حكاياتهم على نسق آدم وحواء أو على نسق إيزاناجي وإيزانامي، او على نسق آدم أند إيف، أو على نسق أهورا مزدا،[21] وما لحق بذلك كله من الأساطير، فإننا نقترب من كائن واحد، يحمل الرغائب ذاتها والغرائز ذاتها والآمال ذاتها، فلا يوجد في هذا الكوكب أحد يحب الموت ويكره الحياة، ولايوجد أحد يحب الخيانة ويكره الأمانة، ولا يوجد أحد يحب الوخم ويكره العطور، ولا أحد يحب الكذب ويكره الصدق.

والخاطئون والمنحرفون عن الفطرة قلة نادرة، وهم حصاد تشويه للفطرة، ولهم مكانهم في سجون العالم المتحضر، في برامج مدروسة لإعادة تأهيلهم وإعادتهم إلى الفطرة الأولى التي كانوا فيها .

والانحراف قد يحصل في سلوك الفرد فيتم تطهيره في معاهد الإصلاح الجنائي، وقد يحصل في الديمقراطيات نفسها، وهنا تطهره حركة التاريخ والثورات البرتقالية، أما المستبد فلم تكن له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً.

هناك قيم إنسانية مشتركة، تعكس اتفاق الإنسانية في معظم أهدافها وقوانينها، لا تزال فطرة الإنسان السوي متشابهة في كل مكان من العالم، ويمكنك حين تنزل ببلد متحضر أن تتصور أحكام القانون فيها على أساس من العدالة المطلقة المسكونة في فطرتك، وحين تخطئ في التقدير فذلك لأنك لا تحيط بمبررات القوانين وأسباب نزولها وورودها.

---

[21] إيزاناجي وإيزانامي هما آدم وحواء عند اليابانيين، وكذلك أهورا مزدا هي عقيدة الزرادشتيين في الثنائي الذي جاء إلى العالم أولاً.

في تجربة الاتحاد الأوروبي فبعد خمسة قرون من الحرب والدم، استيقظ العقل والفطرة في ماستريخت، وخلال عقود قليلة أصبحت قوانين أوروبا في دولها الخمسين متطابقة في أكثر من 90 بالمائة من تفاصيلها، وتكاد تكون متفقة تماماً في المبادئ العليا والقيم الكبرى في الحرية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان.

إنها في النهاية الفطرة الواحدة، القادمة وفق قواعد الإيمان من نفخة الروح التي أنجزها الله في ضمير ابن آدم

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ السجدة: ٧ – ٩

إنها نفحاته وعطاياه، ومنحه ومزاياه، تتجلى في آهات الإنسان، في عذاباته وأفراحه، في شعره ونثره، في مناهجه التعليمية وأحكامه القضائية وأغانيه الشعبية، إنها الحقيقة التي عبر عنها إقبال بقوله :عطرك اللهم في الإنسان ما زال ولونك!!

قد تبدو هذه القراءة إنشائية وعاطفية، وربما نبدو كمن ينسج نظاماً من محض آمال، ليس لها براهين محسوسة وعليها ألف استثناء، وربما كان ذلك كذلك، ولكن التطور الحضاري الذي نشهده اليوم في الدول ديمقراطية، والتقارب التشريعي المدهش، خاصة في الجوانب القيمية وأخلاقية يقدم أوضح الأدلة على أن الإنسان يحمل قيماً مشتركة أكثر مما نعتقد، وأن فطرته التي فطره الله عليها ليست محض قشرة عارضة بل هي جوهر النفس الإنسانية وروحها ومشروعها النقي.

القيم التي بشرت بها الأنبياء :العدل والمساواة والحرية والفضيلة والخير والجمال والحب والسلام والطهارة والرحم والاسرة والعفاف.... لا تزال هي صورة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا تزال تحصد الأغلبيات في برلمانات العالم لأنها في العمق قراءة من أعماق فطرة الإنسان:

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ الروم: ٣٠

ما البرلمانات وما الديمقراطية؟؟ إنها الحفر في الإنسان والبحث بدقة عن رغائبه ومطالبه بعيداً عن كل تأثير ديماغوجي، إنها البحث في حاجاته الحقيقية التي يطالب بها الإنسان السوي، وإذا لم تكن كذلك فإنها تسعى لتكون كذلك، إنها البحث عن الإنسان في الأفق الأعلى الذي ينبغي أن يسعى إليه في عالم من التدافع والتنافس، تصطدم فيه الارادات والمصالح.

لا نعبد الديمقراطية، ولا نزعم أنها وحي معصوم، ولا نشك انه تعرض لها تأثيرات وتشويهات وتضليل، ولكن ذلك ينحسر يوماً بعد يوم بأدوات الديمقراطية نفسها التي كان الرسول الكريم يذكر بها بين الحين والآخر، الزم سواد المسلمين الأعظم، لاتجتمع أمتي على ضلالة، ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وحيثما كانت المصلحة فثم شرع الله، أنتم أعلم بأمور دنياكم.

إنها نداءات بسيطة ولكنها تقع في جوهر العملية الديمقراطية، وحين يطلقها الرسول في المدينة، في عالم لا يزيد سكانه عن بضعة آلاف معظمهم من الأوس والخزرج وقريش، وليس فيهم هنود ولايابانيون ولا برازيليون ولا استراليون، فإن الترجمة الطبيعية الواضحة بلغة القرن الحادي والعشرين هي: الزم سواد المواطنين الأعظم، ولا يجتمع الناس على ضلالة، وما رآه الشعب حسناً فهو عند الله حسن، وحيثما كانت مصالح الناس فثم شرع الله، وتبقى عبارته الواضحة لا تحتاج إلى تعديل: أنتم أعلم بامور دنياكم.

الديمقراطية والعقل

وكما أن الفطرة هي روح الله في ابن آدم، فإن العقل إذن إرادته، وهو في انبثاقه عن الله تعالى خلقاً وفيضاً، يلزمك الاعتقاد بان سبيله سبيل هدى، وفي الوصايا القرآنية المتكررة أفلا تعقلون مطلب واضح لتحمل مسؤولية إعمال هذا العقل فردياً أو جماعياً للوصول إلى مصالح الناس المعتبرة، وإقامة المجتمع الرشيد على الأرض..

والديمقراطية هي استقراء لعقول الناس في اختيار ما يعتقدونه رشداً، والعقل هو أيضاً منحة الله لابن آدم، وكتب ابن رشد: لا يمكن أن يعطينا الله عقولاً ثم يعطينا شرائع تناقضها، فمقتضى التوحيد يفترض أن يكون مصدر الوحي ومصدر العقل واحد، فالخالق سبحانه واحد، وهو يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير.

ولكن هل العقل معصوم؟ وماذا لو ضل العقل أو زلّ، فكيف ينبغي أن نسلمه زمام أمورنا، أليس الوحي في انتمائه المباشر للخالق أقدر على تحديد الصواب من الخطأ، وأقوم دليلاً وأدى سبيلا؟

إن الوحي في عصر التنزيل قطعي الدلالة وحاسم البرهان، يتناول الأشياء مباشرة بحضرة نبي كريم، ولكن الوحي بعد رسول الله ورحيل الأشخاص والأشياء التي تناولها هو قياس نقيسه على أحوالنا في كل زمان ومكان، وهذا القياس يعرض له الخطأ والوهم والزلل في الرواية، ولذلك فقد لجأ المسلمون إلى ابتكار الإجماع مصدراً من مصادر الشريعة للحيلولة دون الوقوع في شرك تناقض الروايات وانطباقها أو عدم انطباقها على أحوال الناس، بحث يصبح الإجماع هو الدليل لمعرفة انطباق النص فيما يدل عليه.

وتماماً كما يتم تصويب الروايات بالإجماع، فإنه يتعين تصويب العقول بالديمقراطية، لأن الديمقراطية رأي الجماعة ويد الله مع الجماعة والشيطان من الأفراد أقرب.

لقد توفرت لنا اليوم من وسائل التواصل والاتصال إنجازات كبيرة وحديثة توفر بيئة ضابطة للعقول ومنظمة لما يصدر عنها، وأصبح بالإمكان استقراء العقول بوسائل حاسمة لا تحتمل شكاً وبالتالي أصبح من المؤكد أن السبيل لمعرفة ما أودعه الله تعالى في عقول الناس ممكناً ومتاحاً وقابلاً للتحليل والتصنيف والدرس، وبات من الممكن الوصول إلى حكم جماعي للعقل معصوم إلى حد كبير من الزلل والهوى والخطيئة تأسيساً على العقيدة المطلقة بأن العقل هو إرادة الله في ابن آدم.

القواعد الديمقراطية في أصول الفقه الإسلامي

يعتبر علم أصول الفقه قانون العقل ومنهج التفكير في الإسلام، وبعكس الصورة النمطية لهذا العلم الذي يشتهر بخدمة الفقهاء فإن الصورة الجوهرية لهذا العلم هي رسم ملامح اللقاء والتكامل بين العقل والنص، وبين الديني والاجتماعي في الحياة.

وقد تحدد علم أصول الفقه للإجابة على تساؤلين: كيف نفهم النص وكيف نجتهد في غياب النص.

وبخلاف القاعدة السائدة لا اجتهاد في مورد النص فإن هذا العلم يبحث في معظم فصوله باب الاجتهاد في مورد النص وأصول هذا الاجتهاد، ويقدم تجارب متتالية عن اجتهاد السلف في مورد النص، ومن أشهر هذا اللون من التطبيق تقييد المطلق في النص وتخصيص العام فيه، والقول بالمجاز والحقيقة والقول بالمتشابه فيه، فهذه كلها آليات للاجتهاد في مورد النص، والأدلة على ذلك لا تحصى، وقد أتينا على ذكر طرف منها في فصل القيم الديمقراطية في حياة الرسول.

ونتحدث هنا عن القواعد الأصولية المشتهرة لدى الفقهاء، ونقصد بالقواعد تلك العناوين الرائزة في اجتهاد الفقهاء والتي كانوا يحتكمون إليها بوصفها مسلمات فقهية لا نقاش فيها، وأن الاستدلال لها من الكتاب والسنة أمر محسوم، ولا شائبة فيه.

وقد قمنا بتصنيف هذه القواعد في خمسة مجموعات[22]:

[22] هذه القواعد كلها وردت في كتب القواعد الفقهية ، وبوجه خاص موسوعة القواعد الفقهية، تأليف محمد صدقي البورنو الغزي، وكتاب شرح القواعد الفقهية لمحمد أحمد الزرقا بتحقيق عبد الستار أبو غدة، وكلها قواعد اتفاقية وليس فيها خلاف

1. **قواعد تدل على تغير الأحكام بتغير الأزمان، وكذلك تغير الأحكام بتغير عللها وأسبابها، وبالتالي تكرّس حق الأمة في تشريع أحكام جديدة تناسب واقع المجتمع، وتقبل التطور والتجدد لمراعاة سائر الأحوال..**
   - لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان
   - الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً
   - ما ثبت بعلة يزول بزوالها
   - إذا زال المانع عاد الممنوع
   - الضرورات تبيح المحظورات
   - الحاجة تنزل منزلة الضرورة
   - القرآن ينسخ بالقرآن وينسخ بالسنة وينسخ بالإجماع

2. **قواعد تدعو إلى رفع الحرج على الناس وتدعو إلى تشريع الاحكام المناسبة لأحوالهم ورفع معاناتهم، واعتبار التيسير على الناس أصلاً في الشريعة، وبالتالي تؤكد ارتباط التشريع بمصلحة الجمهور.**
   - الاستحسان ترك القياس والعمل بما هو أوفق للناس
   - المشقة تجلب التيسير
   - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر
   - إذا ضاق الأمر اتسع
   - الضرر يزال
   - درء المفاسد أولى من جلب المصالح
   - الأصل في الأشياء الإباحة

3. **قواعد تدعو إلى الاستماع لرأي الأغلبية، والتشريع وفق حاجات المجتمع، واعتبار الأعراف والعادات، وحاجات المحتمع وضروراته، وتدعو إلى تشريع الأحكام الجديدة بناء على حاجات المجتمع وخياره الديمقراطي.**

- حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله
- العادة محكمة
- استعمال الناس حجة يجب العمل بها
- الزم سواد الناس الأعظم
- لا تجتمع الأمة على ضلالة
- المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً
- التعيين بالعرف كالتعيين بالنص
- العبرة للغالب لا للشائع النادر

4. **قواعد تدعو إلى النظر في المآلات والمقاصد ومصالح المجتمع، ولو أدى ذلك إلى تجاوز ظاهر النص، وهي تشير إلى مبدأ تقديم العقل وتأويل النقل، ومعالجة الأسلوب الحرفي الظاهري في التعامل مع النص ووجوب الانتقال إلى روحه ومقاصده.**

- الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال
- لا يلزم من صحة الدليل صحة المدلول
- قد يثبت النص وليس عليه العمل
- قد يصح السند ولا يصح المتن
- العبرة في العقود للمقاصد والمعاني لا للألفاظ والمباني
- الأمور بمقاصدها
- التصرف على الرعية منوط بالمصلحة

- شرط الواقف كنص الشارع
- لا ضرر ولا ضرار
- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

5. قواعد تدعو إلى تقييد النص بظروف الزمان والمكان، ووجوب ملاحظة ما تطور في الزمان والمكان والإنسان، ووقف الإطلاق في دلالات النصوص ومقاصدها ومعانيها.

- إذا تعذرت الحقيقة يصار إلى المجاز
- إذا تعذر إعمال الكلام يهمل
- لا حجة مع الاحتمال
- الصحيح إذا خالف ما هو أصح منه صار شاذاً
- ما ثبت على خلاف القياس فغيره عليه لا يقاس

فهذه نحو أربعين قاعدة شرعية، تحظى باحترام الفقهاء جميعاً، ومنها ما يحظى باتفاقهم، ولا يخلو منها كتاب من كتب أصول الفقه، وقد اخترت أن أرويها لك دون تفاصيل، لوضوحها ووضوح مراميها ومعانيها، وكلها تؤكد حقيقة واحدة أن التشريع في الإسلام مرتبط بحاجات المجتمع وأن إمكانية التطوير والتعديل فيه محققة ومشروعة، وأن الوحي الكريم معني بمصالح الناس، وأنه قد يعرض له التخصيص أو التقييد أو النسخ وفي ذلك كله يمكننا التماس مصلحة الناس الراجحة التي تفرض تغير الأحكام بتغير الأزمان والظروف والأحوال.

ومدار معظم هذه القواعد على اختيار الناس ومصالحهم، وهذا مطلب ديمقراطي جوهري، ولا بد لتعين موقف الناس ومعرفة حاجاتهم ومصالحهم من استعمال الادوات الديمقراطية التي تكشف عن رأي الجمهور، وهذا هو جوهر العملية الديمقراطية في التشريع.

لقد كانت هذه القواعد الفقهية أشبه بدستور الاجتهاد، وكان فقهاؤنا في العهد الذهبي للتشريع الإسلامي يطبقون هذه القواعد الديمقراطية من غير نكير، وكان هذا التطبيق ربما يصرف نصوصاً عن ظاهرها، أو يفرض فيها التخصيص أو القيد، أو يصرفها إلى المجاز، أو ينشئ أحكاماً جديدة تناسب مصالح العباد.

ومن المؤسف القول إن رواية هذه القواعد أو إعمالها اليوم يواجه باستنكار التيارات السلفية التي تتوجه عادة للعمل بظاهر النص وترفض هذه القواعد الاصولية الفقهية الديمقراطية التي حققت تاريخياً تطوير الشريعة ومجد الفقه الإسلامي.

وبدلاً من الروح العلمية والفقهية العميقة التي سادت في التاريخ الإسلامي ووفرت نظماً تحكم بها دول متحضرة، فإن الخيار السلفي يعود بنا إلى لحظة معصومة من التاريخ يمنع الاجتهاد عليها أو التغيير فيها، ويطالب بإطلاق الأحكام وفق ظاهر النص ولو عادت هذه الأحكام على مصالح الناس بالحرج والضرر نظراً لاختلاف الزمان والمكان.

وأجد من الواجب أن أشير هنا إلى بعض الإطلاقيات التي استخدمها كثير من الفقهاء لمنع الاجتهاد والتطوير في الشريعة مهما كان مطلباً احتماعياً ضرورياً، والاكتفاء بظاهر النص:

- لا اجتهاد في مورد النص

من المؤكد أن هذه القواعد التي يرويها كثير من الفقهاء على سبيل الحسم والجزم تتعارض مع النزعة الديمقراطية التي نفترضها في الفقه الإسلامي، وبخلاف هذه القاعدة الإطلاقية فإننا نؤكد أن الاجتهاد في مورد النص لم يتوقف أبداً خلال التاريخ الإسلامي وقد تدخل الفقهاء مئات المرات لطرح القيد على إطلاق النص، والتخصيص في معظم النصوص العامة، كما تدخلوا للحكم بأن النص من باب المجاز أو المتشابه وهذا كله اجتهاد في مورد النص، إضافة إلى التأويل المعروف بمذاهبه المتعددة، ولكن تبقى

القاعدة صحيحة فيما هو قطعي الدلالة قطعي الثبوت، لا يعارض العقل والمصلحة الراجحة للأمة

- قف على ما وقف عليه الأولون فإنهم عن علم وقفوا

يستخدم الواعظون عادة هذه الصيغ الإطلاقية لمنع الناس من الاجتهاد في الرأي، باعتبار أن الأولين قد كفونا مؤونة الاجتهاد والنظر في المسائل، وأن الأمر مسألة اتباع وخضوع وليس مسألة اجتهاد ونظر، ولكن هذه القاعدة لا تشير إلى ما وقف عليه الأولون، فالأولون من السلف الصالح عليهم رضوان الله لم يكونوا أياً واحداً في المسائل كلها، بل إنهم اختاروا مذاهب متباينة حتى في المسائل الجوهرية في الإسلام، وقد وقع الخلاف بين الصحابة الكرام في مسألة تدوين القرىن نفسه، وظهر معارضون للفكرة من حيث المبدا وعلى رأسهم أبو بكر الصديق نفسه، ثم تجددت المعارضة لدى قيام عثمان بنسخ المصاحف وظهر عدد من المعترضين من الصحابة على هذه المسائل التي تبدو اتفاقية للغاية.

إن العبارة تفترض عادة أن الوقوف على ما وقف عليه الأولون يلزمك بالمذهب السلفي، مع أن السلف كالخلف كان فيهم مؤولة وفيهم مفوضة، وفيهم أهل نص وفيهم أهل راي، وفيهم تيار النقل وفيهم تيار العقل.

- كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار

تنسب هذه الكلمات للرسول الكريم، وقد اختار السادة السلفية أن يكون هذا الحديث في صدر كل خطاباتهم ومواعظهم باعتباره نصاً إطلاقياً حاسماً في منع الاجتهاد والتزيد وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف.

ولكن الفقهاء المجتهدين تمكنوا من توضيح هذه النصوص النبوية الكريمة واختاروا أن تكون بدعة الضلال هي ما يناقض مقاصد الدين المباشرة، وساتحسنوا في هذا السبيل التعبير عن البدعة المحمودة والبدعة المذمومة أو البدعة الحسنة والبدعة السوء، واستدلوا لذلك بقول عمر بن الخطاب في الجمع على التراويح: نعمت البدعة هذه.

فهذه القواعد وغيرها كانت في العادة من أبرز ما يواجه به دعاة الإصلاح الديني حيث يتم إطلاق هذه العبارات بدون تحفظ الأمر الذي يلقي الريب على جهود التجديد المبنية على مصالح الناس وحاجاتهم، ولنك كما رايت فقد تمكن الأصوليون من تجاوز هذه الإطلاقيات وإن تكن في الأصل نصوصاً من القرآن الكريم الحديث الشريف.

الباب الثاني: مواقف ديمقراطية في حياة الرسول

تمهيد

بخلاف ما تعودته الناس من الأساطير التي تنسج عن رجال الغيب والناطقين باسم الرب، فإن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم رسم لنفسه ملامح أخرى تتأكد فيها بشريته وضعفه الإنساني أكثر من أي شيء آخر، تقرأ ذلك مئات المرات في نصوص التنزيل: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي (سورة الكهف) قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء (سورة يونس) قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (الأنعام) قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم!! (سورة الأحقاف) الأمر الذي جعل يهود المدينة يقولون: كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به ولا بنا؟؟

إنه نبي شجاع بكل المقاييس، لقد وقف أمام الناس وهو يحدثهم عن حجم معرفته البشرية بأمانة: أيها الناس إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأسمع منه فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي جمرة من النار فلا يأخذها.

إنها قراءة أخرى لنور النبوة لا تشبه في شيء تلك القراءة الأسطورية التي تختصر كفاح النبي الكريم وجهاده وجراحه في سلسلة من العجائب التي جادت بها قرائح المحبين، كان فيها يركب الهواء ويمشي على وجه الماء، ويسارع ربه في هواه، وتأتي لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم، ويكلمه الضب والبعير، ويسبح في يده الحجر، ويفوق جوده الدنيا وضرتها، وتشتمل علومه على علم اللوح والقلم!

وفي موقف بالغ الشجاعة يتحدث الرسول الكريم عن حدود علمه فيقول: لا أدري أذو القرنين كان نبياً أم لا، ولا أدري أتبع كان لعيناً أم لا، ولا أدري هل الحدود كفارات لأهلها أم لا[23]

ولا أعتقد ان نبياً في التاريخ امتلك شجاعة كهذه، ووقف أمام العالم ليعلن أنه لا يعلم إلا ما علمه الله، وأنه لا يقرأ بسجاف الغيب ولا يتصرف بتدابير الأقدار، وأنه محض بشر يشرق الله في قلبه فتجري الحكمة على لسانه.

وحين كانوا يسألونه عن محدودية المعرفة لديه لم يكن يجيب بكلام السحرة والعجائبيين، ولم يكن يبرر عجزه عن الجواب بالصمت المقدس، بل كان يتلو عليهم بوضوح ورهبة ما أنزل عليه:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾
الأنعام: ٩٣

ولم يجد اي حرج أن يقول في المسالة التي لايعلم فيها جواباً: ما المسؤول عنها باعلم من السائل!! ومراراً صرح بوضوح إنني لا أعلم الغيب:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ الأنعام: ٥٠

لقد كتب المؤرخون التقليديون السيرة النبوية بقلم روائي صرف، ينقل المشاهدات والروايات بهدف الجمع والتدوين، وهذا هو حال سائر كتب السيرة النبوية بدءاً من السيرة التي كتبها أبان بن عثمان بن عفان ومغازي عروة بن الزبير والواقدي وابن سعد والبخاري ومسلم، وغيرهم من المحدثين والرواة حتى تصل إلى ما حرره ابن حجر في المواهب اللدنية ثم النبهاني في الأنوار المحمدية، وهو تراث عارم فيه الغث والسمين وفيه الأصيل والدخيل، ولكن ذلك لن يكون وافياً لأولئك الذين يريدون أن يروا في حياته رمز كفاح إنساني تقتدي به الأمم.

---

[23] رواه الحاكم عن أبي هريرة في المستدرك على الصحيحين، وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم، ج 2 ص 17

إنني أرحب بكل ما أنجزوه في السيرة النبوية، ولكن معرفة مقاصد السيرة وغاياتها البعيدة تحتاج إلى قراءات هادفة من مرصد بصير بحاجات العصر، ولكنني أدعوكم لقراءة السيرة الكريمة مرة أخرى على منهج محمد عبده ومحمد إقبال وعبد الرحمن الشرقاوي وحسين هيكل وعباس محمود العقاد وطه حسين وروجيه غارودي ومالك بن نبي ووحيد الدين خان وجودت سعيد.

إنه بكلمة واحدة: النبي الذي نقل العالم من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن.

ونحاول في هذه الأوراق قراءة الكفاح الديمقراطي الذي خاضه الرسول الكريم في إطار قيادته للدولة والمجتمع، وما أنجزه أو علّمه من فقه العدالة السياسية، وستكون اختياراتنا انتقائية من السيرة النبوية، أما قراءة السيرة كاملة فتحتاج إلى دراسة مطولة لا يتسع لها هذا البحث.

وفي اعتقادي فإن النص المؤسس لمشاركات الناس الديمقراطية في التشريع والممارسة هو الحديث المشهور المروي في كل كتب الصحاح: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله؟ فقال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.[24]

والحقيقة أن شروح الحديث لا تعود عليك بطائل، ويتم تأويل النصح لله بأنه النصح في سبيل الله، والنصح لكتابه ولرسوله بمعنى التصديق بالقرآن الكريم واتباع السنة النبوية.

ولا شك أن هذا التأويل للحديث هو صرف قسري لمعانيه الواضحة من معنى النصيحة التي هي الإرشاد وتقديم المشورة، والتحول إلى مجاملات ومشاعر تطوف حول النص.

ولا أجد سبباً لرد ظاهر الحديث كما ورد، وأعتقد أن مواقف النبي التي ستقرؤها في هذا الفصل يوم المعراج بتنزيل عدد الصلوات يوم المعراج، وكذلك مطالبة الرسول الكريم بتعدد الأحرف السبعة في القراءات، ومطالبته بتغيير القبلة، فهذا كله وغيره هو قيام الإنسان بالنصح لله تعالى.

---

[24] البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح عن سعد بن أبي وقاص، ج1 ص 21 ، والحديث شهير ومروي في الكتب الستة.

إن النصح لأجل الله أو في سبيل الله لا يشبه النصح لله، فالنصح لله أو لرسوله أو لدينه كما هو ظاهر الحديث هو أن يقدم الإنسان رأيه وخبرته واجتهاده في سبيل تحسين أداء النص أو الرسول، وهو ما نسميه اليوم الممارسات الديمقراطية ومسؤولية الجمهور.

وإذا كان هذا التأويل الذي مضى إليه شراح الحديث مستقيماً أو ضرورياً في جانب ذات الله تعالى الذي هو غني عن العالمين، فهو ليس ضرورياً ولا مستقيماً في النصح للرسول والنصح للكتاب والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، فالرسول بحاجة لنصح الناس وقد أمر أن يشاورهم وقد استشار بالفعل وأخذ بالشورى، والكتاب كما نرى يكتمل دوماً باقتراح الناس، وفي ضوء ذلك تأسس علم كامل اسمه علم أسباب النزول يتناول سياق تنزيل الآي وما طرأ فيه من أقوال الناس ومطالباتهم ومراجعاتهم، وكيف استجاب الكتاب لما طلبه الناس، تنزيلاً وتأويلاً، والقرآن طافح بمثل هذا، وفي الصحابة مئات ممن يقال فيهم إنه نصَحَ لكتاب ربه، من الذين نزل فيهم الوحي.

ولعل أقرب ما نذكره هنا من الناصحين لله ولكتابه الصحابي الجليل عمر بن الخطاب وما اشتهر عنه في باب موافقات عمر، وهي نحو عشرين موقفاً وقف عمر فيها ينصح لكتاب ربه أو للرسول الكريم، وقد كانت الآيات نفسها تتنزل بناء على مناصحته، وسنأتي على شرح ذلك، وإن أفضل اسم نسمي به هذا النشاط الاجتهادي الذي قام به عمر، هو أنه نصح لكتاب الله، ونصح لرسول الله.

ثم ما المبرر أن نصرف ظاهر النص عن الفقرة الأخيرة فيه، وهي النصح لأئمة المسلمين وعامتهم؟ وإعمال النص أولى من إهماله، وقد اتفق الفقهاء على أن النصح للولاة وللناس من أخص ما يدعو إليه المؤمن ومن أبرّ ما يشتغل به الصالحون، وأنه واجب المسلم ومسؤوليته، ولا يثير ظاهر النص هنا أي إشكال وهو محل اتفاق الكافة.

ولا شك أن النصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم الذي ظهر في حياة الرسول بشكل ممارسات عفوية قام بها الصحابة ناصحين لله ولرسوله ولكتابه كما رأينا

في أسباب النزول وفي موافقات عمر وغيرها، ينبغي أن يتطور وفق مطالب العصر وحاجاته وشروطه، ولا أشك أن المجالس الاستشارية ومجالس الخبراء والبرلمانات نفسها والاستفتاءات والإحصاءات الوطنية والعلمية التي تقوم بها جهات متخصصة كل ذلك يعتبر تطبيقاً عملياً وحضارياً لمبدأ النصح لله ولرسوله ولكتابه وللأئمة والعامة.

وقناعتي أن الدعاء نفسه الذي يقوم به كل مسلم، في سائر الأوقات والذي هو مخّ العبادة، هو نصح لله، وكذلك كان دعاء الأنبياء والصالحين والصديقين والعامة، ألا ترى أنك تقوم بصيغ الأمر: اغفر وارحم واشف وفرج واستر وانصر وانتقم، وهي أشياء لا نفتأ نذكرها في كل صلاة وفي كل دعاء، وهي الامتثال المباشر لقول الله تعالى: ادعوني أستجب لكم، وقوله: ادعوا ربكم تضرعاً وخفية، ومئات الآيات والأحاديث التي تأمر بالدعاء.

ولقد عزف قوم من سادة الصوفية عن الدعاء تأدباً مع الله، وصاروا يكتفون بالثناء على الله، وذلك على قاعدة علمه بحالي يغني عن سؤالي، وهذا المقام من ترك الدعاء هو مقام شهود صوفي نفيس، يستقيم مع التأويل المذكور للحديث، ولكنه ليس ما أمرت به الأمة من الدعاء والضراعة والرجاء، وهو بالضبط ما أفهمه في قول الرسول: النصح لله.

الفصل الأول: في الشورى

كان رسول الله أكثر الناس شورى في كل شؤونه، وقد أمره الله تعالى بالشورى فقال وشاورهم في الأمر، وكان يعجبه أن يقول أشيروا علي أيها الناس.
وسننتقي طرفاً من شوراه، حيث يتطلب استقصاء ما ورد في شورى النبي الكريم إلى مجلدات كبيرة لا تناسب هذه الدراسة المختصرة.[25]

يوم بدر

وفي معركة بدر على سبيل المثال أظهر النبي الكريم خضوعه للشورى في أربعة مواقف:

- في قرار الحرب
- وفي مكان الحرب
- وفي خطة الحرب
- وفي غنائم الحرب

ففي قرار الحرب يوم بدر عقد الرسول الكريم لقاء جماهيرياً بهدف اتخاذ موقف شوروي من الحرب بعد أن بدا أنها قادمة، والقصة بتفاصيلها أن الرسول خرج في مطاردة قافلة لقريش كانت تضم أموال المهاجرين التي تركوها بمكة، ولم يكن القتال وارداً في هذه المطاردة، ولا يوجد سبب لاشتباك ألف مقاتل مع خمسين تاجراً من قريش، وكان المفترض أن تنتهي المسألة باستسلام القافلة واسترداد النبي والمسلمين

[25] سائر ما نرويه في الهذا الفصل هو مما اتفقت عليه كتب السيرة المعتمدة، ابن هشام وابن إسحق وابن كثير

أموالهم التي سرقتها قريش مما تركه المهاجرون بمكة، ولكن القافلة تمكنت من الفرار إلى مكة، وعلى الفور حشدت قريش جيشاً من ألف مقاتل لتحارب النبي الكريم.

جمع الرسول أصحابه الذين رافقوه للقافلة وقال لهم بوضوح أشيروا علي أيها الناس!!

كان موقفاً في غاية الأهمية أراد به الرسول الكريم أن يكرس حق الإنسان في رفض الحرب الظالمة، حين لم يقرر الخوض في هذه الحرب إلا بعد أن استمع رأي أصحابه من أهل المدينة خاصة، حيث كان العهد بينهم وبين رسول الله هو حمايته في المدينة وليس خارج المدينة، ولا بد من فهم رأيهم والاستماع إليه قبل اتخاذ قرار الحرب، وهذا يؤسس لحق الإنسان في التمرد على الحرب الظالمة.

ومع أن المهاجرين أبدوا آراء متحمسة في القتال الى جانب الرسول كما ظهر من كلام أبي بكر وعمر والمقداد ولكن النبي الكريم لم يكتف برأيهم وظل يقول: أشيروا علي أيها الناس، وكان من الواضح أنه يريد رأي الأنصار الذين كانوا لم يرتبطوا بعد بعقد يلزمهم القتال مع الرسول خارج المدينة، وبعد طول إصرار تقدم سعد بن معاذ سيد الأنصار وأعلن تأييد الأنصار للنبي الكريم في موقفه القتالي.

وفي مكان الحرب في المعركة نفسها نزل الرسول الكريم بأصحابه قبل ماء بدر ونصب الخيام، وكانت جموع المقاتلين تتأهب للمعركة حين اعترض الحباب بن المنذر وهو صحابي خبير بفنون الحرب وطرح رأياً هاماً في التنبيه إلى خطأ العسكرة قبل الماء، وأن المنطق يقتضي أن نعسكر بعد ماء بدر حتى نضمن توفر الماء لدى الجيش، وعلى الفور ترك رسول الله رأيه وأخذ برأي الحباب بن المنذر في موقف من الشورى حكيم.

وفي خطة الحرب في المعركة إياها كان الرسول الكريم قد تقدم إلى الصف الأول ليدفع أصحابه إلى القتال، فقد عودهم أنه أول المجاهدين، ولكن عدداً من الصحابة اعترضوا على ذلك، وعلى رأسهم سعد بن معاذ، وقالوا يا رسول الله إن هُلكَنا هُلكُ رجل واحد ولكن هُلْكَك هُلْكُ أمة، فلو تراجعت عن الصف الأول وصنعنا لك عريشاُ فتكون فيها، فإن أظفرك الله كنا معك وكنت معنا، وإن تك الأخرى وهي ما نكره فإننا نعدٌّ لك نجيبة

من نجائبنا (ناقة فتية) فتحملك إلى المدينة، فإن من وراءنا من أهل المدينة قوماً ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو علموا أنك تلقى عدوك لم يتخلفوا عنك!

وبالفعل استجاب النبي الكريم للشورى وترك رأيه الأول وأمر بإعداد عريش فكان فيه يقود المعركة حتى انجلت بالنصر.

وفي غنائم المعركة فقد وقع في يد الرسول الكريم سبعون أسيراً من مشركي قريش وكان من الوارد أن يبرم فيهم رسول الله أمره، ولكنه عقداً مجلساً مشهوداً للشورى مع الصحابة بشأن الأسارى، وقد شارك في الشورى عبد الله بن حذافة وعمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق، وقد استمع رسول الله لكل منهم حججاً وبراهين وأدلة، ثم مال إلى رأي وسط بين شدة عمر وبين حلم أبي بكر، وكان عمر وابن حذافة قد اختارا قتل الأسرى فيما مال أبو بكر إلى العفو عنهم، وقد اختار رسول الله الفداء مع تعويض مالي يناسب مكان كل واحد منهم.

وفي أمر ذي دلالة نزل الوحي فيما يعد بتأييد رأي عمر، وهو الحزم والشدة، ولكن الرسول الكريم لم يشأ ان يرجع عن قرار الشورى الذي انتهى إليه، ولم يشأ أن يقدم الوحي على قرار الشورى، واختار أن يبقى نص الوحي بمثابة تهديد للمشركين لئلا يفكروا بالإغارة على المدينة من جديد.

فهذه أربع ممارسات ديمقراطية سجلها الرسول الكريم في معركة واحدة، تشتمل على قرار الحرب ومكان الحرب وخطة الحرب وغنائم الحرب، ولو تتبعت سائر أيامه الكريمة لرأيت نظير ذلك من احترام القيم الديمقراطية وعلى رأسها الشورى.

يوم أحد

وفي معركة أحد قرر البقاء في المدينة والدفاع عنها من الداخل، ولكنه واجه ضغطاً شديداً من شباب الصحابة الذين كانوا يشكلون أغلبية بين الناس وقد كان رأيهم هو الخروج لقتال العدو وليس التحصن في المدينة.

ولما تحقق من ذلك ترك رأيه واستجاب لرأي الأغلبية الذين كانوا يرون أن الأفضل هو الخروج من المدينة ومواجهة العدو خارجها، وبعد حوار طويل استجاب لرأيهم وترك رأيه.

وقد شعر الصحابة أنه رضي مكرهاً فدخلوا عليه وقالوا يا رسول الله لعلنا أكرهناك ؟ فإن شئت فالزم رأيك.. لا نعصيك أبداً !! ولكن الرسول الكريم لم يرجع إلى رأيه وظل ملتزماً بخيار الجماعة.

وقد أغضب موقفه هذا عبد الله بن أبي سلول الذي كان يرى رأي الرسول ويرفض الخروج من المدينة، وكان عبد الله بن أبي بن أبي سلول يمثل النخبة التقليدية الارستقراطية في يثرب، ولم يقبل أبداً أن ينصاع لرأي الأكثرية بحجة أنهم شباب عاديون وليسوا زعماء أو أشرافاً، وهكذا فإنه رفض تغيير رأيه إلى خيار الأكثرية وخرج من المسجد مغضبا وقال: أطاع الصبيان وعصاني!! والله لا أدري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!!

ومع أن موقف ابن أبيّ كان خطيراً وضارّاً بالأمة حيث انسحب بثلاثمائة مقاتل من معركة أحد تحت عنوان رفض الخضوع لرأي الأكثرية، ولكن موقف النبي الكريم ظل راسخاً وثابتاً وهو الالتزام برأي الأغلبية على الرغم من خطورة الموقف، فقد كان الانفراد بالرأي ورفض رأي الأغلبية سيجلب أخطاراً أشد وأبلغ.

يوم الخندق

وفـي يـوم الخنـدق كانـت الخطـة الحربيـة هـي المواجهـة مـع العـدو الغـازي وكـان عـدد المشركين نحو عشرة آلاف مقاتل، وكان رأي الرسول الكريم هو الخروج ومقاتلة قريش خارج المدينة، وبعد شورى عميقة ترك رسول الله رأيه وأخذ برأي سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق حول المدينـة، وكـان ذلك استجابة للشورى التـي دعـا إليهـا الرسول ورغبة في حقن الدماء بين النـاس، وبعد شـورى بـين أصـحابه ألـزم المجتمـع كلـه بتنفيذ رؤية سلمان وحفر الخندق مع أنها مكيدة ما كانت تعرفهـا العرب من قبل، ولـم تكـن فـي تصور النبي الكريم عند بدء الاستعداد للمعركة.

ولكـن الجانـب الأكثـر أهميـة فـي الخيـار الـديمقراطي يـوم الخنـدق إنمـا ظهـر عنـد اشـتداد الحصــار علــى المسـلمين فقـد أحاطـت قـريش وحلفاؤهـا بـالخنـدق أربعـين يومـاً، ومـراراً أوشك المشركون على اختراق الخندق وقد فعلوا ذلك بالفعل، وكان من الـوارد أن يتكـرر ذلك، وحين بلـغ الحصـار أشده أرسل النبـي الكريم بعض أصـحابه للتفـاوض مـع فـزارة وثقيف وعرض عليهم الانسحاب مقابل عوض مالي كبير يؤديه لهم، وبالفعل حضـر إليـه زعيم فزارة عيينة بن حصن وزعيم ثقيف الحارث بن عـوف وتمت المفاوضـات السـرية مـع القـوم، وكتـب الكتـاب بين النبـي وبين المحـاربين وفيـه ان النبـي يـدفع لهـم ثلـث ثمـار المدينة مقابل أن يفكوا الحصار!

وقبل أن يبرم الكتاب دعـا رسـول الله زعمـاء الأنصـار وفيهم أسيد بـن حضـير وسـعد بـن معاذ حيث هم أصحاب الحق في ثروة المدينـة وأمنهـا، وشـرح لهـم مـا كـان مـن التفـاوض وأراهم الكتاب الذي تم إعداد مسودته، وطلب رأيهم في الكتاب وكـان فـي المجلس عيينـة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف الثقفي، وكلاهما يتهدد ويتوعد.

قال أسيد بن حضير: يا رسول الله.. إن كان أمر من السماء فامض به، وإن كان غير ذلك فـوالله مـا نعطـيهم إلا السيف! لقد كـانوا يـا رسـول الله يجهـدون فـي الجاهليـة حتـى يـأكلوا

العلهز، ما يطمعون أن ينالوا ثمرالمدينة إلا قرى أو بيعاً أفبعد ان أكرمنا الله بالإسلام وأكرمنا بك نعطي الدنية! والله لا نعطيهم إلا السيف! وقام سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فقالا مثل ذلك...

وتبين للنبي الكريم أن الجمهور من أهل المدينة لن يتقبل هذا الاتفاق، وأنه يشكل مساساً مباشراً بكرامتها وهيبتها، وتيقن ان ما اجتهد فيه لأجلهم لم يكن على وفق ما يرغبون، وأن لديهم اليقين للصبر والجهاد، وحين قال له سعد بن معاذ أتأذن لي بالكتاب؟ قال افعل به ما شئت فأخذه فتفل فيه ومزقه أمام الوفد المفاوض من فزارة وغطفان، وحين قال عيينة بن حصن الفزاري ستندمون على ما فعلتم صرخ عباد بن بشر في وجهه قائلاً: يا عيينة أبالسيف تخوفنا ؟ ستعلم أينا أجزع، والله لولا مكان رسول الله لما وصلتم إلى أقوامكم.

وفي الواقع فإن الموقف النبوي يوم الخندق يرسم صورة واضحة لخضوع النبي الكريم للشورى والديمقراطية، وعلى الرغم من أنه صاحب المبادرة، وأنه صنع ذلك لاسباب تتعلق بأمن البلاد واستقرارها ورفْع العدوان عنها، ولكنه مع ذلك تراجع عن رأيه حين تأكد من موقف الجمهور في المدينة، وقد كان تمزيق الكتاب بهذه القسوة إشارة واضحة لحق الشعب ومسؤوليته وسلطته في الدولة النبوية.

وهكذا فإن ما أوردناه هنا عن أيامه الكريمة في بدر وأحد والخندق هو واقع حياته الكريمة، في احترام الشورى والنزول عند رأي الناس، وعلى الرغم من حضور الوحي قبل الحدث وأثناءه وبعده، فقد رأينا كيف كان النبي الكريم يحترم الشورى ويعتبرها أصلاً راسخاً في الدين، وبهذا المعنى قال أبو هريرة: ما كان أحد أكثر شورى لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن تلقى أمر الله تعالى: وشاورهم في الأمر، لم يكن رسول الله ليترك الشورى في شأن من شؤون حياته، وقد وصف القرآن الكريم واقع مجتمع الرسول الكريم بقوله: والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم.

الفصل الثاني: في المساواة:

حقق الرسول الكريم قدراً كبيراً من المساواة في المجتمع الإسلامي، سواء في إطار الأفراد أو على مستوى الأقليات، واشتهرت مواقف كثيرة للرسول الكريم في رفض اي نوع من الاستعلاء الطبقي او القومي أو العرقي، وأعلن موقفه بوضوح: الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.
ويمكن قراءة هديه الكريم في المساواة في عدد من الجوانب:

في الأقليات

كان الرسول الكريم واضحاً في رعاية الأقليات، وقد أدرك ذلك من اليوم الأول للهجرة، ومع أن وثيقة المدينة كانت تتحدث عن مساواة تامة، ولكنها خصت اليهود بمواد خاصة رعاية للوضع الأقلوي الذي باتوا فيه، وتأميناً لحريتهم ومساواتهم في الحقوق والواجبات، وسوف نأتي على دراسة عدد من المواد الواردة في الصحيفة.
ولا شك أن هذا الموقف في تأمين حريات المختلفين في الدين هو ما أكده القرآن الكريم بصريح العبارة حين تحدث عن الآخر بحقوق كاملة في ظلال الشريعة وهو ما أقره الفقهاء في إطار السياسة الشرعية بل إن هذه الدراسة ماضية لتقرير أنه هو حكم الله في الدنيا وفي الآخرة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ البقرة: ٦٢

ومن الجدير بالذكر أن هذه الآية نزلت مرة ثانية في سورة المائدة بنفس الصيغة إياها مع تغيير طفيف في ترتيب الطوائف:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ المائدة: ٦٩

وفي سورة آل عمران في سياق حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب:

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝١١٥﴾ آل عمران: ١١٥

وفي النص القرآني: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٢٣﴾ النساء: ١٢٣

في خطابه في حجة الوداع كان يرسم الملامح النهائية للإسلام في رسالته نحو المساواة: أيها الناس إن أباكم واحد وإن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. [26]

وفي التأكيد على المساواة وردت سنن كثيرة عن النبي الكريم، ومنها قوله:

الناس سواسية كأسنان المشط ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح[27].

وفيها نداؤه لقرابته وأهل بيته: يا فاطمة بنت محمد!... اشتر نفسك من الله أنا لا أغني عنك كمن الله شيئاً ياصفية عمة رسول الله اشتر نفسك من الله أن الا أني عنك شيئاً[28]

وفي موقف ذي دلالة فقد تعرض أبو ذر الغفاري وهو من أشراف العرب لبلال بن رباح وهو عبد حبشي، وقال له مغضباً يا ابن السوداء، وكان مثل هذا الموقف يعتبر أمراً عادياً في المجتمع الطبقي بمكة، ولكن الرسول الكريم حين بلغه ذلك غضب أشد الغضب، وقال لأبي ذر: ويحك يا أبا ذر... أعيرته بأمه؟؟ أعيرته بأمه؟؟ إنك امرؤ فيك

---

[26] الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح ، ج 5 ص930

[27] الأصبهاني الأنصاري، عبد الله بن محمد، جزء أحاديث أبي الزبير،ج1 ص 64 وفي سنده انفراد ولم يروه أصحاب الصحاح والسنن،

[28] البزار العتكي، أحمد بن عمرو، مسند البزار البحر الزخار ج 14 ص 392

جاهلية!! إخوانكم خوَلكم.. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإذا كلفتموهم فأعينوهم.[29]

وبلغ من غضب الرسول الكريم أن أبا ذر مضى إلى بلال ووضع خده على التراب وأقسم أن لا يرفع خده عن التراب حتى يطأها بلال! وبالفعل لم يرفع رأسه حتى وطئ بلال تراباً ثم حمله بيده ووضعه على خد أبي ذر تحلة القسم!

ولا أريد أن أستفيض في نصوص المساواة التي وردت في الكتاب والسنة وهي كثيرة جداً، ولكنني حريص أن أؤكد المعنى السياسي للمساواة الذي حققه الرسول الكريم، وربما كان دستور المدينة أوضح صور المساواة السياسية بين أفراد الأمة من المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وطبقاتهم.

دستور المدينة

كتب رسول الله أول وثيقة عقد اجتماعي بينه وبين سكان المدينة، ونختار منها هذه البنود التي نظمت حياة اليهود في المدينة، واعترفت بحقهم الكامل في اختيار دينهم، واختيار انتمائهم، ومنحتهم فرصة المشاركة الفاعلة في الحياة السياسية كما منحتهم حق البقاء في المدينة كما منحتهم حق الانتقال والسفر.

وفي المادة الأولى التي ننقلها تأكيد لمبدا المواطنة الذي منحته الوثيقة للسكان اليهود الذين اختاروا البقاء على دينهم، وأعلنت الوثيقة أنهم أمة واحدة مع المؤمنين:

1. إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.
2. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

---

[29] حديث صحيح، رواه البخاري عن إبي ذر الغفاري، ج1 ص 15

3. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.
4. وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.
5. وأنه من خرج آمن، ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم أو آثم.[30]

ومن المدهش أن الرسول الكريم وصل إلى المدينة المنورة وفيها يهود ونصارى ومشركون، ولا نعلم أن واحداً منهم قد نزح لدى وصول النبي الكريم، ولا نعرف أي لون من الهجرة أو النزوح اضطر إليه أي ساكن في المدينة من المشركين أو اليهود أو المسيحيين.

وربما نحتاج إلى تحفظ واحد وهو أبو عامر الراهب وهو كاهن من الأوس نزح من المدينة بعد قيام الدولة الإسلامية فيها، وبعد شهور من وصول النبي الكريم لحق أبو عامر بمكة يحرض قريشاً على غزو المدينة، وبالفعل فقد جاء في جيش قريش الغازي يوم أحد.

ويعترض بعضهم بأن النبي أخرج النبي اليهود جميعاً من المدينة بعد سنوات قليلة!

والحقيقة ان اليهود الذين ذكروا في وثيقة المدينة كانوا ثلاث عشرة قبيلة أو عائلة، وخلال خمس سنوات وقعت مجابهة مع ثلاث عوائل منها وهم قينقاع والنضير وقريظة نتيجة مواقف سياسية خطيرة على أمن الدولة، وقد أخرجهم الرسول من المدينة، ولكن العوائل العشرة الأخرى ظلت في المدينة، وحين مات الرسول الكريم كان عدد منهم لا يزالون في المدينة المنورة.

وقد أشرنا من قبل إلى أن النبي نفسه مات ودرعه مرهونة عند يهودي،[31] ومعنى ذلك ان اليهود ظلوا يعيشون في المدينة في وضع اقتصادي قوي، حتى كانت الدولة نفسها تقترض منهم عند الحاجة، وهذه الرواية متفق عليها عند الرواة جميعا.

---

[30] ابن هشام المعافري، عبد الملك، السيرة النبوية ، ج 1 ص 504

[31] حديث صحيح، رواه البخاري عن ابن عباس، ج 5 ص 388

ولا شك أن الكلام في جوانب المساواة التي حققها الرسول الكريم كثير، والكتب النمطية مليئة بهذا اللون من الأخبار ولا أجد كبير فائدة في استعراضها.

وربما كانت الفكرة الوحيدة التي يتعين الجواب عليها هي هل حقوق المسلم في دولة الرسول أكبر من حقوق غيره؟ وهل يجب تقسيم المجتمع إلى مسلمين وأهل ذمة؟ فيكون الأولون بمثابة مواطنين من الدرجة الأولى والآخرون مواطنين من الدرجة الثانية.

ومع قناعتي ان هذا الواقع كرسته كتب فقهية كثيرة، ومارسته دول إسلامية كثيرة، ولكن الموكد أن دستور المدينة نص على المساواة التامة كما نقرؤها هنا، وأن الرسول نفسه طبق قدراً كبيراً من المساواة بين الناس وخاصة في مسائل التقاضي والنشاط الاقتصادي.

ولعل أوضح الأمثلة من حياة الرسول هي الحادثة المشهور في موقفه من طعمة بن أبيرق وزيد بن السمين، فقد كان الأول مسلماً والآخر يهودياً، وقد وقعت حادثة سرقة اتهم فيها زيد بن السمين اليهودي في حين أن السارق الحقيقي كان طعمة بن أبيرق، وحين تساوت الأدلة أوشك الرسول أن يحكم للمسلم ضد اليهودي بقرينة وجود المتاع المسروق لديه فنزلت آيات شديدة جداً في القرآن الكريم تنتصر لليهودي وتأمر الرسول بعدم ارتكاب أي تمييز ضد المواطن اليهودي، مهما كان خصمه المسلم تقياً ومصلياً وصائماً.

ولا نحتاج أكثر من النظر في الآيات الكريمة الصارمة التي نزلت في هذه الحادثة وفق ما رواه المفسرون جميعاً بلا استثناء:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ ﴾ النساء: ١٠٥ - ١٠٩

الفصل الثالث: في الحريات

في الحرية الإنسانية

تعرض الإسلام في السنوات الأخيرة لهجوم عنيف بسبب الافعال التي مارسها متطرفون ونسبوها إلى الرسول الكريم وعلى رأسها الاسترقاق والسبي، وهو ما مارسته داعش بشكل متوحش في العراق ضد اليزيديين، ورغم بشاعة الجريمة وتوحشها فقد نسبها المحاربون الى الرسول الكريم واستدلوا ببعض كتب التراث.

ومع أنني لا أنكر وجود روايات مثل هذه ولكنني أعتقد أن القراءة الموضوعية لسياق الإسلام في قيامه ونهوضه وأدائه يجعلنا ملزمين موضوعياً برد هذه الروايات القبيحة على من رواها لأنها تناقض العقل والمنطق والبرهان.

فقد أعلن الرسول الكريم منذ أيامه الأولى رسالته في تحرير العبيد، أو تحرير الرقاب كما سماها القرآن الكريم، وفي التعبير بتحرير الرقبة معنى دقيق وهو الإشارة إلى عناء الرقيق ومظلوميته فهو مربوط الرقبة، ولا يوجد رهق أشد من هذا، وهو معنى قريب من الموت يشعرك بالخطر الذي يجب مواجهته على الفور ولا يجوز تأجيله لأي لحظة.

ومع أيام الإسلام الأولى بدأ الرسول الكريم حملة واسعة لتحرير العبيد بأموال زوجته خديجة بنت خويلد وصاحبه أبي بكر الصديق، وكان تحرير العبيد أكثر ما أغضب زعماء قريش الذين رأوا في المساواة بين العبيد والسوقة هدماً لأسس النظام الطبقي الذي بنوا عليه زعامتهم على مستوى العرب.

وقليل من الناس من يعلم أن خديجة افتقرت وهي تعتق الرقاب وكذلك أبو بكر الصديق الذي كان يعتق رقاب الضعفاء قبل الأقوياء وقد عاتبه في ذلك أبوه فقال أعتق رقاب الفتيان الأشداء حتى يدافعوا عنك فنزل القرآن الكريم في الثناء على أبي بكر: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ الليل: ١٩ – ٢١

وقد اعتبر القرآن إعتاق الرقاب ركناً أساسياً في الدين وجعله من مصارف الزكاة الرئيسة: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾﴾ التوبة: ٦٠

وقد مارس النبي نفسه الإعتاق وأعتق زيد بن حارثة وريحانة ومارية القبطية وصفية بنت حيي وجويرية بنت الحارث، وسنجد أسماء كثيرة في ثنايا الروايات من اللائي أطلقهن رسول الله.

وكان العبيد أهلاً له وشركاء في دولته، واختار بلال بن رباح مؤذناً يرفع صوت الإسلام على ظهر الكعبة، وأعتق بنفسه زيد بن حارثة وجعله أقرب المقربين إليه، وعقد له رايات كثيرة قائداً تحررياً، وأرسله قائداً عسكرياً على رأس جيش مؤتة، كما اختار ابنه أسامة بن زيد زعيماً عسكرياً في أول مواجهة مع الروم.

كما أنه اختار أم أيمن الجارية أمّاً له وكان يقول: أم أيمن أمي بعد أمي، تكريماً للنساء الجواري.

واشتهر تكريمه البالغ للعتقاء الأربعة الذين وجدوا الحرية في ظلال الإسلام وقاموا بدور رئيسي في نشر الإسلام، وهم بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، وعمار بن ياسر المخزومي.

ولكن أبرز من أعتقهن الرسول الكريم هن جويرية بنت الحارث التي ارتبط إعتاقها بإعتاق كل بني المصطلق من الذين وقعوا في الأسر بعد غزوة المصطلق، وكذلك صفية بنت حيي وكان هذا الإعتاق حافزاً لباقي الصحابة ليعتقوا ما بأيديهم، ولا نعرف اليوم في السيرة النبوية ذكراً لأمَة مصطلقية أو أمَة خيبرية، بعد أن نجح رسول الله في توفير الحرية لهن جميعاً عبر إعتاق السيدتين والزواج بهما قبل العودة إلى المدينة.

كما اشتهر إعتاقه للسيدة الفاضلة مارية القبطية التي أهداها له المقوقس، ولكن الرسول الكريم لم يعاملها كجارية عبدة بل منحها الحرية وتزوجها وصارت أماً للمؤمنين.

وذكر ابن القيم أن النبي الكريم أعتق بنفسه: أبا رافع، وأسلم، وثوبان، وأبو كبشة، وشقران واسمه صالح، ورباح، ويسار، ومدعم، وكركرة وهم من النوبيين . كما أعتق سفينة بن فروخ واسمه مهران، وأنجشة الحادي، وأعتق أنيسة وكنيته أبو مشروح ، وأفلح ، وعبيدة ، وطهمان قيل إن اسمه كيسان ، وذكوان ، ومهران ، ومروان ، وكذلك حنين، وسندر، وفضالة، ومأبور، وأبو واقد، وواقد، وقسام، وأبو عسيب، وأبو مويهبة رضي الله عن الجميع . وكذلك أعتق النبي سلمى أم رافع، وميمونة بنت سعد، وخضيرة، ورضوى، وريشة، وأم ضمير، وميمونة بنت عسيب رضي الله عنهن[32].

[32] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج 1 ص 113

وذكر الصنعاني في كتابه سبل السلام أن الرسول الكريم أعتق ثلاثة وستين نفسا بعدد سنوات عمره الشريف، وأعتقت زوجته السيدة عائشة وحدها سبعة وستين عبدا وجارية بعدد سنوات عمرها أيضا[33].

ونقل ابن شبة في تاريخ المدينة أن رسول الله لم يترك عند وفاته درهمًا ولا ديناراً ولا عبداً ولا جارية.[34]

وكان يقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأنام كما ينام العبد.35

ويمكن القول إن روح الشريعة كانت تائقة للحرية لا للعبودية، وللإعتاق لا للاسترقاق، ومن أجل ذلك فقد وضعت سبلاً للخلاص من الرق والعبودية وتحقيق حرية الإنسان وكرامته، وذلك عبر الدعوة إلى الإعتاق وبيان أجر المعتقين، ثم فرض نظماً متعددة للخلاص التدريجي من الرق كنظام المكاتبة والتدبير وأم الولد وهي نظم معروفة في كتب الفقه تهدف إلى شيء واحد وهو منح الإنسان حريته، وبشكل خاص في المكاتبة وهي العبد الذي يملك حرفة ويستطيع العيش مستقلا فقد أوجب القرآن على وليّه أن يمنحه حق تحرير نفسه مقابل مبلغ يؤديه على فترة محددة من خلال عمله، وهو نص القرآن الكريم: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ﴾ النور: ٣٣

وبحسبك إشارة إلى ذلك أنك لا تجد في كتب الفقه كلها باباً واحداً للرق، بل إن سائر كتب الفقه تختار عنوان: كتاب العتق، في إشارة واضحة إلى تشوف الإسلام للإعتاق، واشتهرت في التراث الإسلامي كلمة الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

---

[33] الصنعاني، محمد بن اسماعيل، سبل السلام، ج 2 ص 597
[34] ابن شبه، عمر بن عبيدة، تاريخ المدينة ج 1 ص 211
[35] ابن سيد الناس، محمد بن محمد، عيون الأثر ج 2 ص 402

ومع ذلك كله فمن المؤلم أن نعترف أن الاسترقاق والسبي استمر قروناً طويلة بعد الإسلام وأن حركة التوق إلى الحرية توقفت بموت الرسول وتباطأت في عهد الراشدين، ولكنها عادت بقوة في العصر الأموي والعباسي، وازدحمت قصور الخلفاء بشكل خاص بالعبيد والغلمان والجواري والخصيان، وهو أمر مؤسف لا يمكن تبريره ولا الدفاع عنه.

ويزداد حرجي وأسفي أن الفقه الإسلامي لم يقف موقفاً حاسماً في مواجهة ظاهرة ازدحام الجواري والغلمان في قصور الملوك، بل راح في الغالب يبرر ذلك، للملوك وللفقهاء ولعامة الناس، ولم يقم الفقهاء بتأصيل موقف الرسول في تحرير العبيد بمثابة نص تشريعي ملزم، وهذا ما أدى إلى توقف ظاهرة تحرير العبيد التي بداها الرسول الكريم هدفاً رئيسياً لدعوته ورسالته.

وغاية ما نقول إن عدداً من الخلفاء والمصلحين وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز خاضوا حرباً ضارية لإنهاء الرق، ونجحوا جزئياً في تحقيق ذلك.

ومع ذلك فلن أخوض في هذه الدراسة طويلاً في تاريخ الرق والسبي ولكنني مهتم أن أوضح رأيي في شخص الرسول الكريم كبطل من أبطال الحرية ومناضل تاريخي في وجه الاستعباد والرق والسبي.

وعلى الرغم من ورود روايات كثيرة في قيام الرسول والصحابة بالسبي ولكن من المحتم القول بأن ذلك كله قد نسخ أخيراً بآية سورة محمد التي تمنع على الحاكم المسلم أي تصرف بالأسرى بالاسترقاق أو القتل، كما هو نص الآية الصارمة

فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ محمد: ٤

وكانت هذه الآية هي آخر ما نزل بشأن الأسرى.

ولعل أدق تطبيق لهذا التطور الإيجابي نحو الحريات ومنع الاسترقاق والسبي بكل أشكاله هو يوم حنين والطائف بوصفهما آخر غزوات الرسول الكريم التي التحم فيها بأعدائه.

ولا باس أن نذكر الحادثة ببعض التفصيل، وكان ذلك بعد أن أنجز النبي الكريم في رمضان من السنة الثامنة فتح مكة المكرمة سلماً، وفور سقوط مكة تحركت الطائف التي كانت تنافس مكة تاريخياً في السيادة على الحرم، وبدا لأهل الطائف أنها فرصتهم لاحتلال مكة مستغلين الاضطراب الذي وقعت فيه مكة بسقوط حكمها الجاهلي، وقرروا النزول بكل قوتهم وما يملكون إلى مكة.

وبلغ النبي الكريم أن حشوداً كبيرة من هوازن وثقيف برئاسة مالك بن عوف تحشد عند وادي حنين، وكان مالك فتى مغامراً وفارسا متهوراً، لا خبرة له بالقيادة، وقد أمرهم بإحضار النساء والأطفال والأموال معهم لتكون لهم إرادة أكبر على القتال.

وبعد كرٍّ وفرٍّ في المعركة فر مالك ومن معه من وادي حنين، وكان من الطبيعي أن يقع الأطفال والنساء والأموال في الأسر، وكان عدد النساء يومذاك نحو ستة آلاف سبية كما رواه الطبري وإن كنا نعتقد أن في الرقم بعض مبالغة.

وستة آلاف سبية هو رقم مذهل ويشكل ثروة كبرى في سوق النخاسة، وهو ما أدى إلى استنفار الأعراب الذين كانوا في جيش النبي الكريم لحصاد هذا الصيد الوفير، وبدأت المطالبات من هنا وهناك بوجوب قسمة السبايا، وطالبوا النبي مباشرة بقسمة هذه الغنائم على المحاربين.

كان الرسول الكريم حريصاً أن لا يكتب في تاريخه أنه ارتكب حملة كهذه من الاسترقاق والعدوان على الانسانية، ولم يشأ أبداً أن يختم حياته الجهادية باسترقاق كهذا على الرغم من العائد المادي المذهل، وحزم أمره في منع أي استرقاق.

وتطور الأمر من مطالبات إلى غمز وهمز ولمز واتهامات، وكثر جدل الأعراب والطلقاء في أمر السبايا، وبدؤوا يثيرون القلاقل في الجيش، وقد نزلت آيات كثيرة في مخازي الأعراب وبحثهم عن المغانم والسبي في معركة حنين وقد جاء تفصيل ذلك في سور الأنفال والتوبة والفتح والأحزاب، ولكن الرسول الكريم أمر بصرامة وحزم أن تحبس الغنائم كلها في وادي الجعرانة وكلف عدداً من الصحابة بمنع أي

إساءة للسبايا، فيما توجه بجيشه إلى الطائف وفي نفسه أن يفاوض ثقيف على السبايا جميعا ويردهن إلى الحرية.

وانطلق النبي الكريم لحصار معاقل ثقيف في الطائف للوصول إلى حل بشان السبايا، واستمر الحصار قريباً من شهرين، والنساء والأولاد أسرى ولم يأذن الرسول بقسمة أي منهم كغنائم حرب، على الرغم من أن عدداً من القبائل التي شاركت معه في القتال كانت تصرّ على هذه القسمة، وبدؤوا يتهمون الرسول نفسه بالمحاباة والمحسوبية في توزيع الغنائم، وقد نزل قرآن كثير في الحادثة يشرح سوء أدب الأعراب مع الرسول في شأن الغنائم، ويوبخهم على تكالبهم على الغنائم، ويمكن مطالعة ذلك بوضوح في سور الفتح والأحزاب.

وبعد شهرين من الحصار والمتابعة، كان رسول الله يبذل كل جهد في المصالحة وأرسل إلى مالك بن عوف زعيم ثقيف: قولوا لمالك بن عوف إن جاءني رددت عليه أهله وماله، وبالفعل نجحت دبلوماسية النبي الكريم في إقناع وجهاء ثقيف بالسعي للمصالحة وإنهاء الحرب، وحين وصلوا إلى الرسول الكريم في الجعرانة وفيهم مالك بن عوف وكانوا قد أنهكوا نتيجة مغامراته الطائشة، وكان النبي الكريم أيضاً قد أضناه مطلب الأعراب والمؤلفة قلوبهم في وجوب قسمة الغنائم، وننقل بعض تفاصيل الخبر من زاد المعاد لابن القيم:

قدم وفد هوازن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أربعة عشر رجلاً، فلما صلى رسول الله الغداة قال: إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين. وقد استأنيت بسبيهم، فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرده عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفئ الله علينا، فقال الناس: قد طبنا بذلك لرسول الله!!

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت الأنصار مثل ذلك.

ولكن الأعراب من قبائل تميم وفزاره وسليم كان لهم رأي آخر مختلف تماماً، وقد صرحوا علناً برفضهم لمشروع الرسول الكريم في تحرير السبايا واعتبروا ذلك تآمراً على حقوقهم الشرعية بعد القتال الذي خاضوه دفاعاً عن الرسول.

وقال الأقرع بن حابس زعيم تميم: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا. ....وقال العباس بن مرداس السملي: أما أنا وبنو سليم فلا.......

ولم يزل رسول الله يحاورهم ويستأني بهم، ولجأ إلى إعطائهم المال، وقد اشتهر أنه أعطى كل واحد من زعمائهم مائة من الإبل حتى رضوا وكفوا عن السبايا، ونجح رسول الله في تحرير كل السبايا والأطفال دون استثناء.

وقد أدت سياسة النبي الكريم في دفع أموال طائلة للاعراب مقابل الإفراج عن السبايا إلى اعتراض شديد من الصحابة وخاصة من الأنصار الذين رأوا أن هذا الموقف فيه محاباة غير مقبولة، وجاء وافدهم سعد بن عبادة وقال : يا رسلو الله أبلغك ما قالت الأنصار؟ قال: وما تقول؟ قالوا يقولون إنك دفعت المال كله للاعراب والطلقاء من قومك وتركت أهل المدينة وهم من جاهد معك ونصرك وصدقك!

قال له رسول الله: فما قولك أنت يا سعد؟ قال والله لا أقول إلا كم اقال قومي!

ودعا الرسول الأنصار وجعل يلاطفهم ويحدثهم ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فالف الله بين قلوبكم بي؟ فجعل الأنصار يقولون : بل لله المنة والفضل، فقال ألا تجيبون يا معاشر الأنصار؟ ألا قلتم لقد جئتنا مكذباً فصدقناك وطريداً فئويناك وفقيراً فاعطيناك؟

فبكى الأنصار حتى أخضلت لحاهم وقالوا بل لله المنة والفضل! فقال لهم : يا معاشر الأنصار أوجدتم في أنفسكم أنني دفعت المال لقوم من الأعراب أتألفهم وأدفع شرهم، والله ووكلتم إلى إيمانكم؟

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. [36]

وسائر تفاصيل القصة تعزز حقيقة واحدة، وهي أن الأولوية كانت عند رسول الله هي تحرير الأسرى بالفداء ومنع كل أشكال السبي والاسترقاق، وقد نجح في ذلك.

ومن المدهش أن آخر آية نزلت في شأن الأسرى تحصر خيار ولي الأمر بين أمرين اثنين: المنّ (وهو الإطلاق بدون عوض) أو الفداء (وهو الإطلاق بعوض). ونص الآية في سورة محمد: ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ محمد: ٤

وعلى الرغم من أن نص الآية واضح في تحريم قتل الأسرى أو استرقاقهم وحصر التعامل مع الأسرى بالمن أو الفداء ولكن الفقهاء لم يأخذوا بهذا الدليل الواضح وظلوا يعتبرون السبي من محاسن الإسلام وشعائره!!.

وأقول هنا إنه ليس لدي شك أبداً أن الإسلام حرم السبي كله، وأنه اعتبره من أشنع شرائع الجاهلية، وأن السبي وقع في أيام ثلاثة في الإسلام هي قريظة والمصطلق وخيبر على قواعد الحرب الأولى، وقد نجح الرسول الكريم في إنهائه وتحرير أفراده خلال أسابيع، ثم إن الرسول الكريم نجح بعد ذلك في تحريم الرق كله، وأن ما جرى في السنوات الأولى للرسالة على قواعد الحرب في الجاهلية لم يكن إلا مرحلة من تحريم ذلك كله، وأن الرسول الكريم أطلق السبايا الأربعة اللاتي نسبن إليه وهن ريحانة القرظية ومارية القبطية وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي.

من المؤسف أن قراءة السيرة النبوية على هذا الوجه المسؤول المبني على عدالة الإسلام وكرامة الإنسان لا يحظى بالقبول في الفقه الاسلامي التقليدي، ونتّهم من قبل المتشددين بأننا نمارس الانتقائية، وأن الرسول الكريم وإن لم يمارس السبي يوم حنين ولكنه مارسه يوم قريظة والمصطلق وخيبر، وسيقولون إننا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض، وأننا نقوم بتمييع الدين ارضاء للكفار من اليهود والنصارى!!

[36] ابن هشام المعافري، عبد الملك ،وردت القصة بكامل تفاصيلها في كتابه السيرة النبوية،، ج 2 ص 499

ومع أن الفقه السائد لا يساعد على هذا التصور الذي رسمناه ولكنني أعتقد أنه لا يمكن احترام الرسول بطل حرية وبطل سبي في وقت واحد، ويجب أن تنزل هذه الوقائع على كفاحه البشري وعلى تطور الظرف السياسي، وقناعتي أنه لم يكن راغباً في السبي في أول مواجهاته مع المشركين، ولكنها كانت طبيعة الحرب وناموسها في صحراء العرب، وقد اتبع فيها على مضض قواعد الحرب السائدة، وحرر من السبايا ما استطاع ولكنه ختم حياته الجهادية بيوم مجيد وهو يوم حنين، الذي يمكن اعتباره أهم أيام حرية الإنسان في تلك المرحلة من التاريخ حيث وجدت ستة آلاف سبية من عيال المحاربين سبيلهن إلى حريتهن من جديد، بعد أن أوشك الأعراب أن ينتفضوا على الرسول ويخوضوا تمرداً مسلحاً ضارياً للوصول الى السبايا.

كم هو محزن أن نتحدث عن السبي والاسترقاق على أنه من محاسن الإسلام رغم عواقبه المتوحشة وصورته الظالمة السوداء، ركوناً إلى ظاهر النص، واستسلاماً لما وجدنا عليه آباءنا، ونمهّد من حيث نريد أو لا نريد لسلوكيات التوحش السوداء التي ترتكبها حركات التطرف في السبي والاسترقاق، على الرغم من أن مواقف الرسول الأخيرة أكدت أنه نسخ تلك الأحكام الظالمة وأسس لعدالة الإسلام وحقوق الإنسان.

في الحريات الديمقراطية

أعلن الرسول الكريم موقفاً ديقراطياً لافتاً وواضحاً من حرية الرأي، حيث أعلن مبدأ لا إكراه في الدين (سورة البقرة 256)

ومن طريف التقدير أن هذا النص القرآني جاء مباشرة بعد الآية العظيمة آية الكرسي، التي هي أعظم آية في القرآن، وكأنه يوحي بأن الحرية في الإسلامي متصلة تماماً بالتوحيد ومرتبطة بأهم نص في القرآن على الإطلاق.

وفي سبب نزول الآية أن ناساً من أهل المدينة كانوا قد أرسلوا أبناءهم إلى أحبار اليهود يتعلمون منهم الدين فتهوّدوا فلما جاء رسول الله إلى المدينة أمرهم آباؤهم أن يتركوا اليهودية ويتبعوا الرسول فامتنع بعضهم فأراد الآباء أن يكرهوهم على الإسلام فأنزل الله تعالى: لا إكراه في الدين.

وفي نصوص متتالية ذات دلالة نص القرآن الكريم بأن رسالة النبي الكريم لا يجوز أن تتعدى النصح والراي وأن الإجبار على أيّ اعتقاد هو أمر محاد لله ورسوله:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ الغاشية: ٢١ – ٢٢

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ الإسراء: ٥٤

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الأنعام ١٠٤

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩

وهي نصوص واضحة تحدد دور الرسول في الهداية والإرشاد ومنع أي شكل من إجبار الناس على الاعتقاد

وفي شاهد ذي دلالة فإن القرآن الكريم أشار أن الله استمع إلى حوار إبليس مع أنه أعلن أنه سيناضل ضد إرادة الله وقال ولأضلنهم ولأغوينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، وفي مكان آخر قال:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ الأعراف: ١٦ – ١٧

ومع ذلك كله فإن الله لم يشأ أن يقمع إبليس وأن يمنعه من حقه في الاختيار أو يلغيه من الوجود وهو قادر على ذلك بكلمة كن فيكون، بل مكّنه من فعل ما يريد وحين سأله أنظرني إلى يوم يبعثون، استجاب له بقوله: إنك من المنظرين، وقال:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسراء: ٦٤

وقد قدم النبي الكريم نموذجاً للدولة الرائدة في سياق الحريات الديمقراطية، وقد تجاوز معظم القواعد التي كانت في الأعراف السابقة سواء في مجتمع مكة أو الحضارات المتعاقبة في الشام ومصر والعراق.

فقد بعث النبي الكريم في عصر كانت تسود فيه ثقافة الناس على دين ملوكهم، وكان اختلاف دين الرعية عن دين الملك يشبه أن يكون خيانة، وهذا ما فعله قسطنطين الكبير حين كان عدواً للمسيحية وأجبر الناس على الردة عنها، ثم حين أصبح مسيحياً عاد فأجبر الناس على اعتناق المسيحية.

أما الرسول الكريم فقد حقق هذا الأفق الديمقراطي الفريد حين أعلن الحرية الدينية بوضوح ورفع شعار لا إكراه في الدين.

وربما كان دستور المدينة أول عقد اجتماعي يأذن بوجود مخالفين في الدين بحقوق مضمونة ومحترمة في نص وثيقة الدستور.

وكان سكان المدينة يمارسون درجات عالية من النقد والتعبير ولا يعرف في تاريخ النبوة أن الرسول الكريم حاكم أحداً على موقف فكري، ولم يقل أحدٌ من أتباع الرسول أو من أعدائه أن الرسول الكريم حاكم أحداً بسبب أفكاره، وإنما كان يحاورهم ويستمع إليهم ويتيح لهم أفقاً من الرأي المخالف داخل الدولة المسلمة.

والحقيقة أن مسألة حرية الرأي في الإسلام تعرضت في السنوات الأخيرة لهجوم كبير بسبب ما بات يعرف بحد الردة وهو ما تدرسه المدارس الشرعية باستمرار باعتباره حداً من حدود الله مع أنه لم يرد في القرآن الكريم من بعيد ولا قريب، ولا تطبقه اليوم أي دولة إسلامية على الإطلاق.

والأصل الذي استند إليه هذا الحكم الغريب هو الحديث المشهور: من بدل دينه فاقتلوه!!

فكيف يستقيم أن يقال إن الرسول الكريم أقر حرية الرأي أمام هذا النص الصارم.

والحقيقة أنني كتبت طويلاً في رد هذا الحديث الذي أعتبره من أسوأ مارواه الرواة، ولا أشك أبداً أنه غير مقبول سنداً ومتنا، وهو الحديث المؤسس لحد الردة الذي تتداوله كتب

الفقه الإسلامي وللاسف على أنه حد من حدود الله، مع أنه أكبر أسباب فوضى الدماء في المجتمعات الإسلامية.

ويعتبر حد الردة من أشد المسائل الإشكالية في الفقه الإسلامي، ولكن لا بد من دراسته ومناقشته بالأدلة الشرعية، وفق مقاصد الإسلام الكبرى وروح الشريعة.

والردة هي الخروج من دين الإسلام إلى سواه، سواء بالنية أو بالفعل المكفر أو بالقول، ثم توسع الفقهاء في إطلاق كلمة المرتد، فأطلقوا الردة على من أنكر وجود الصانع الخالق، أو نفى الرسل، أو كذب رسولاً، أو حلل حراماً بالإجماع كالزنا واللواط وشرب الخمر والظلم، أو حرم حلالاً بالإجماع كالبيع والنكاح، أو نفى وجوب مجمع عليه، كأنه نفى ركعة من الصلوات الخمس المفروضة، أو اعتقد وجوب ما ليس بواجب بالإجماع، كزيادة ركعة من الصلوات المفروضة، أو وجوب صوم شيء من شوال، أو عزم على الكفر غداً، أو تردد فيه. ومثال الفعل المكفر: إلقاء مصحف أو كتاب حديث نبوي على قاذورة، وسجود لصنم أو شمس37

وقد أفرد فقهاء الحنفية فصلاً خاصاً للحديث عن حد الزنديق والداعي إلى بدعته وألحقوا ذلك بباب الردة الموجبة للقتل[38].

وقد توسع عدد من الفقهاء خاصة الحنابلة في سرد الكلمات والألفاظ والتصرفات الموجبة للردة وبالتالي الموجبة للقتل ولا أعتقد أن السياق هنا مناسب لسرد هذه الأقوال ونحيل إلى ما كتبه محمد بن عبد الوهاب تحت عنوان نواقض الإسلام العشرة حيث أورد عشرة اعتقادات من رضي واحدة منها فقد كفر وارتد وحل دمه وماله!! وعد منها من عظم قبراً أو احتكم إلى غير الشريعة أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة[39].

ويبلغ حد الردة وتطبيقاته مداه الأقسى فيما اشتهر من فتاوى ابن تيمية في مسالة قتل المرتد، وقد أحصيت له في كتبه المرفوعة على المكتبة الشاملة 427 موضعاً استخدم فيها عبارة يستتاب فإن تاب وإلا قتل!!

---

[37] مغني المحتاج للخطيب الشربيني ج4 ص133
[38] الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد القيرواني ج 7 ص131
[39] الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ج1 ص86

ومع أن هذه المسالة ليست من شرط دراستنا هنا ولكنني أختار أن أروي بعض تفاصيل هذه الفتاوى حتى ندرك إلى أي مدى كان التكفير وهدر الدم أمراً مستباحاً لدى التيارات المتشددة في غياب شبه تام لمقاصد الإسلام في الرحمة والسلام.

وهذه طائفة من فتاوى ابن تيمية ولا تحتاج أكثر من البحث عن كلمة يستتاب في الموسوعات التي دمعت كتب ابن تيمية، والنقل هنا من المكتبة الشاملة التي جمعت أكبر قدر من كتب ابن تيمية وفتاويه :

- من لم يقل إن الله فوق سمواته على عرشه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل
- ومن قال لرجل: توكلت عليك أو أنت حسبي أو أنا في حسبك .. يستتاب فإن تاب وإلا قتل
- من اعتقد أن أحدا من أولياء الله يكون مع محمد كما كان الخضر مع موسى فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه
- الرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس أو ترك بعض فرائضها المتفق عليها فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل
- من لم يقل أن الله فوق سبع سمواته فهو كافر به حلال الدم يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه وألقى على بعض المزابل
- من قال القرآن محدث فهو جهمى يستتاب فان تاب والا ضربت عنقه
- من قال إن احدا من الصحابة او التابعين أو تابعى التابعين قاتل مع الكفار فهذا ضال غاو بل كافر يجب ان يستتاب من ذلك فان تاب وإلا قتل
- من جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر مرتد يستتاب فان تاب والا قتل
- وان اضمر ذلك (يعني تحريم اللحم أو الخبز أو النكاح) كان زنديقا منافقا لا يستتاب عند اكثر العلماء بل يقتل بلا استتابة إذا ظهر ذلك منه

- من ادعى ان له طريقا إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التى بعث الله بها رسوله فانه أيضا كافر يستتاب فان تاب وإلا ضربت عنقه
- أكل الحيات والعقارب حرام باجماع المسلمين فمن أكلها مستحلا لذلك فانه يستتاب فان تاب وإلا قتل
- من قال القرآن مخلوق وانه يستتاب فإن تاب والا قتل
- من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما يستتاب فان تاب والا يقتل
- من ظن أن التكبير من القرآن فانه يستتاب فان تاب والا قتل
- ومن أخر الصلاة لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب
- من قال إنه يجب على المسافر أن يصوم شهر رمضان وكلاهما ضلال مخالف لاجماع المسلمين يستتاب قائله فان تاب وإلا قتل

وأعتذر للقارئ الكريم في غيراد هذه النصوص حيث تبدو بعيدة عن عنوان الدراسة ولكن هذا اللون من الفتاوى وللاسف لا يزال يحظى بتأييد لدى كثير من الفقهاء، على الرغم من مناقضته الصريحة الواضحة لهدي النبي الكريم في التعامل مع المخالف.
وسنبين بعد قليل أن الرسول الكريم تعامل مع المنافقين في المدينة بروح مختلفة تماماً، ومع أن القرآن صرح بوضوح أنهم كفروا بعد إسلامهم وأنهم يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم، ومع أنه مأمور صراحة بأن يقاتل المنافقين ويغلظ عليهم، ولكنه لم يقتل أحداً منهم بإجماع الرواة كافة.
ونحتاج أن نستطرد قليلاً ونناقش الفقهاء فيما ذهبوا إليه من حكم شديد بشأن الردة، وهو قتل المرتد، ومستندهم في ذلك حديث مشهور عن عكرمة عن ابن عباس ونصه: من بدل دينه فاقتلوه[40].

---

[40]رواه البخاري في صحيحه ج6 ص2681 كما رواه النسائي وأبو داود وأحمد وابن ماجه

ومع أن عدداً كبيراً من الفقهاء أخذ بحكم قتل المرتد، ولكن الدراسة العلمية الموضوعية للمسألة وفق دلالات الكتاب الكريم وهدي النبي صلى الله عليه وسلم تلزمنا مراجعة هذه المسألة ورفض ما روي من حكم المرتد، ونحن ننكر هذا اللون من العقاب استدلالاً بما يلي:

أولاً:

إن من مبادئ القرآن الكريم حرية الاعتقاد وقد ورد النص على ذلك صريحاً في عشرات الآيات البينات ومنها قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ البقرة: ٢٥٦

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ٢٩﴾ الكهف: ٢٩

وقال: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ الأنعام: ١٤٩

فهذه النصوص وغيرها واضحة وجلية في أن أمر الاعتقاد حرية شخصية بحتة، وليس من حق أحد أن يرغم الناس على اعتقاده أو يلزمهم باختيار الإيمان.

ثانياً:

إن الإكراه لا يصنع إيماناً بل يصنع نفاقاً، والإصرار على معاقبة المرتد بالقتل يثبت الافتراءات الظالمة التي تتهم الإسلام بأنه انتشر بحد السيف وهو ما لا نقبله بحال.

ثالثاً:

ولو أن الإيمان بالإرغام فمن أين إذن يكون الثواب والعقاب، وكيف يثيب الله المحسن، وقد دخل في الإسلام بحد السيف.

رابعاً:

إن القرآن الكريم ذكر شأن الردة والمرتدين في آيات كثيرة تجاوزت ثلاثين آية، وتوعدهم بالعقاب في الآخرة، ولكنه لم يشر تصريحاً ولا تلميحاً إلى أي عقاب دنيوي على المرتد مؤكداً أن الردة اختيار شخصي يتولى الحساب عليه رب العالمين في الدار الآخرة.

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ النساء: ١٣٧

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ٩٠

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ محمد: ٢٥

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المنافقون: ٣

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ لقمان: ٢٣

فهذه الآيات وغيرها كثير لامست مسألة الردة بشكل مباشر وأشارت إلى بؤس ما أقدم عليه المرتدون من الكفر بعد الإيمان، ولكن لا تجد في أي من هذه الآيات تصريحاً ولا تلميحاً إلى أمر العقوبة أو الحد الدنيوي، بل وكلت كل هذه الآيات أمر حساب المرتد إلى الله تعالى، وهذا هو المتفق مع روح الشريعة في حرية الاعتقاد ومسؤولية الإنسان.

ولا يعقل أن يتأخر البيان في هذه المسائل الخطيرة رغم توفر الدواعي لوروده، والحاجة إلى الفصل فيه وهو يتصل بالدماء والأرواح.

خامساً:

إن سائر طرق رواية هذا الحديث تنتهي إلى عكرمة مولى ابن عباس، وهو رجل كثير الرواية، ولكنه متهم في مسائل كثيرة وقد اتهم بالإرجاء واتهم بالكذب واتهم بالقول بقول الخوارج، ومن المعلوم أن الراوي إذا كان مطعوناً فيه فإنه لا تقبل روايته في مسائل الدماء والحدود، خاصة إذا كان يروي في ما يوافق بدعته التي اتهم بها وهي القول برأي الخوارج فمن المعلوم أن الخوارج يستبيحون دم المخالف، ويتحتم لهذا السبب رد هذه الرواية، خاصة أنها تؤسس لحد من حدود الله، وشأن الحدود أن لا تثبت إلا بنص محكم من الكتاب.[41]

[41] انظر تهذيب الكمال في معرفة الرجال للحافظ المزي ج23 ص15، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج5 ص22 وانظر تهذيب التهذيب لابن حجر ج7 ص237 ومع ذلك فقد أخرج له البخاري أحاديث كثيرة، ورد مسلم رواياته ولم يرو له إلا حديثاً واحداً متابعاً.

وقد استفاض ابن حجر في جمع أقوال المحدثين في حق عكرمة، وأولها رفض الإمام مسلم الرواية عنه، وأن ابن عمر قال لنافع لا تكذب علي كما كذب عكرمة على بن عباس وكذا ما روى عن سعيد بن المسيب أنه قال ذلك لبرد مولاه أما علي بن عبد الله بن عباس فقد أوثق عكرمة بالحديد وقال: إنه يكذب على أبي، وقال سعيد بن المسيب عنه كذب مخبثان، وكان مالك لا يرى عكرمة ثقة ويأمر أن لا يؤخذ عنه وقال الشافعي لا أرى لأحد أن يقبل حديث عكرمة وقال عثمان ابن مرة قلت للقاسم إن عكرمة قال كذا فقال يا بن أخي إن عكرمة كذاب يحدث غدوة بحديث يخالفه عشية، وقد رد الامام ابن حجر على اقوالهم تلك بتعسف ظاهر.[42]

فكيف يسوغ بعد أقوال العلماء هذه في عكرمة أن يفوض برواية خطيرة ودقيقة تراق بها الدماء، ويخالف يها القرآن؟

سادساً:

يجب القول إن الردة التي عرفت في عصر النبوة هي ما قام به عدة أفراد من الناس كانوا مع النبي في المدينة ثم ارتدوا عنه ولحقوا بأعدائه من قريش وباعوا أسرار دولتهم لأعدائهم، وخرجوا يحرضون قريشاً على غزو المدينة، وهذه ممارسات تقع في باب الخيانة العظمى للدولة وتبنى عليه نتائج سياسية خطيرة، ومن الحكمة والعقل أن تفرض في هذه الجنايات الخطيرة عقوبات شديدة، وهنا بالضبط يكون ما أورده الفقهاء من حد الردة، التارك لدينه المفارق للجماعة المتآمر ضد بلده وأهله، ومع ذلك فإن النبي الكريم حين فتح مكة عفا عن هؤلاء جميعاً وقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ومع أنه أهدر دم عدد من المرتدين ساعة دخوله إلى مكة ولكنه عاد فعفا عنهم إلا ثلاثة كانوا قد ارتكبوا القتل الدنيء وتعلقت بهم دماء بريئة واستحقوا العقاب.

أما تطبيق عقوبة القتل لمجرد المخالفة في الرأي أو الدين أو المذهب فهذا كله ليس عليه شاهد واحد حاسم من فعله صلى الله عليه وسلم.

---

[42] العسقلاني، ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري ج1 ص425

سابعاً:

إن القرآن أخبر أن عدداً من المنافقين الذين كانوا في المجتمع قد ارتكبوا أعمالاً كفرية لا شك فيها، وخرجوا من الإسلام بنص القرآن الكريم ولكنه لم يقم بقتل أحد منهم يقيناً ولم يقم عليهم أي حد أو عقاب، وإنما كان يسعه منهم دخولهم في شأن الأمة والجماعة، وعدم اعتدائهم على الأفراد في المجتمع، وكشاهد على تصريح القرآن الكريم بردة هؤلاء، قال تعالى:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ التوبة: ٧٤

وفي آية أخرى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ آل عمران: ٨٦

فهذه آيات صريحة في أن هؤلاء ارتدوا وثبت كفرهم بعد إسلامهم، وهي قد نزلت في أسماء مخصوصة معروفة، ولكن لا يوجد أي رواية على الإطلاق تفيد أن رسول الله قد قتل أياً منهم بسبب موقفه الاعتقادي، وإنما فيها تهديد لهم بحساب الله وعذاب الله، وقد ظل هؤلاء الأشخاص المعروفون بأسمائهم وأوصافهم يعيشون بين المسلمين في المجتمع الإسلامي لهم حقوق المواطنة كاملة، ما داموا لم يرتكبوا أعمالاً جرمية من اللحاق بالعدو، وقد شرح النبي الكريم سياسته الواضحة إزاء ذلك حين طلب إليه الصحابة قتل عبد الله بن أبي رأس المنافقين الذي نزلت هذه الآيات في وصف كفره،

فرفض النبي الكريم اقتراحهم بقتله، وقال: بل نحسن صحبته ونترفق به ما دام معنا[43]، ومعنى ذلك أن الموقف الاعتقادي لا إكراه فيه ولا عقاب، وإنما العقاب فيمن فارق الأمة ولحق بعدوها.

ونكرر هنا ما ذكرناه في الهامش قبل قليل أن حدّ الردة وإن كان منصوصاً عليه في كتب الفقهاء فإنه لا توجد دولة تتبنى تطبيقه علناً في العالم الإسلامي، وما تقوم به الأمارات الإسلامية المتشددة التي تقوم بين الحين والآخر في أفغانستان أو الصومال أو الجزائر لا يجوز اعتباره بحال تطبيقاً إسلامياً وهو يواجه دوماً بسيل من الإدانة والرفض من قبل كل فقهاء الإسلام في العالم، وكانت آخر مرة تم فيها تطبيق حد الردة علناً في حكومة قائمة في 1985/1/18 عندما أعدم نظام النميري في السودان المفكر والسياسي محمود محمد طه مؤسس الحزب الجمهوري السوداني، بتهمة الردة، مع أن كتب الرجل طافحة بالحديث عن الإيمان والتجديد ولكنه خاض مواجهة ضارية مع النظام انتهت بإعدامه مما يؤكد المعنى السياسي للإعدام.

ولا بد من القول بأن قتال أبي بكر للمرتدين لم يكن من باب محاسبة الناس على موقفهم الفكري وإنما كان قتالا لحماية الدولة من التقسيم والانشقاق، بعد أن أصبح امراً واقعاً عبر ظاهرة ادعاء النبوة وامتناع العرب عن أداء الزكاة وهو ما يعني الانفصال الاقتصادي الذي يقود حتما للانفصال السياسي.

بل إن كثيراً من المرتدين كانوا يقيمون شعائر الإسلام من صلاة وصيام ولكنهم منعوا الزكاة وهذا موقف سياسي انفصالي لا يمكن لدولة ناشئة أن تتسامح فيه، فقاتلهم عليها ابو بكر حتى خضعوا لسلطان الدولة.

ومع ذلك فلا يمكن تجاهل موقف الصحابي الجليل عمر بن الخطاب الذي اعترض بشدة على حروب الردة، ورأى أنها تناقض مبدأ الحرية في الإسلام، ودعا إلى الحكمة في المواجهة مع المرتدين، والتمييز بين صاحب الراي وصاحب السلاح، وقد اشتد الحوار

---

[43] البيهقي، أحمد بن الحسين ، دلائل النبوة ج3 ص471

بينهما حتى قال له أبو بكر: أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام يا عمر[44].... ومضى الصديق على رأيه في قتال المرتدين، وخضع عمر لموقف الجماعة وقرار الدولة.

ولكن من المؤكد ان عمر ظل يراقب أداء المحاربين واعترض غاية الاعتراض على موقف خالد بن الوليد يوم قتل مالك بن نويره وتزوج امرأته، وطالب أبا بكر بعزله ومحاكمته، ولم يستجب له أبوبكر حرصاً على مكانة خالد ومنزلته بين المسلمين.

ولكن عمر بن الخطاب أعلن يوم توليه وقف حروب الردة، ولا يعرف أي قتال للمرتدين بعد تولي عمر، وأمر باستدعاء خالد بن الوليد من فتوح الشام وقدمه للمحاكمة وعزله من مناصبه في قصة مشهورة.[45]

وعقد لدى توليه على الفور سلسلة مصالحات هامة مع زعماء الردة واشتهر منها موقفه من بني أسد وإطلاقه لطليحة بن خويلد وأصحابه الذي ادعى النبوة واعتقله أبو بكر، وكذلك مصالحاته لبني حنيفة أصحاب مسيلمة، واشتهر منها موقفه مع أبي مريم الحنفي الذي قتل أخاه زيد بن الخطاب، وحين التقاه قال له: لا أحبك حتى تحب الأرض الدم!! فقال أبو مريم: أترى بغضك لي ينقصني من حقي شيئاً؟ قال لا! فقال أبو مريم أحبني أو لا تحبني فإنما يأسى على الحب النساء!

وبوسعي أن أشير بوضوح إلى طائفة من الآيات القرآنية وهي تنص بوضوح أن كثيراً من سكان المدينة كفروا وارتدوا وأساؤوا إساءات بالغة إلى الرسول واستهزؤوا بالقرآن الكريم نفسه، ولكنك لن تجد على الإطلاق رواية واحدة تثبت أن الرسول قتل أحداً من هؤلاء.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ التوبة: ٧٤

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ التوبة: ٨٤

---

[44] البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة، ج2 ص 477

[45] السهيلي ، عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، ج 7 ص159 وقد وردت القصة أيضاً في السيرة النبوية لاين كثير، والاكتفاء للكلاعي، وسيرة ابن حبان وغيرها كثير.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ المنافقون: ٨

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ التوبة: ٥٤

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ التوبة: ٨٠

فهذه الآيات الكريمة تشير بوضوح إلى مواقف فكرية حادة تتناقض بالمطلق مع موقف الرسول الكريم ودينه ورسالته وسياسته، وتصرح بأن قائليها باتوا كفاراً لا ينتمون إلى الإسلام ولكنهم مع ذلك حظوا بحماية الدولة ولم ترد أي رواية أن الرسول قتل أحداً منهم.

ولم يرد في أي من السير المعتمدة أن الرسول قتل رجلاً لردته، وهذا محل اتفاق المحدثين، وقد علل ابن القيم ذلك بقوله في معرض الإشارة إلى أن الرسول امتنع عن قتل عبد الله بن أبي قال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ولم يقتل ذا الخويصرة التميمي وقد قال له: اعدل فإنك لم تعدل، ولم يقتل القائل له: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، وأمثالهم من المنافقين الذي جهروا بالكفر ممن قال الله تعالى فيهم: ولقد قالوا كلمة الكفر وبعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكف عن قتل المنافقين - مع كونه مصلحة - لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه ، وقولهم : إن محمدا يقتل أصحابه، فإن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه ومن لم يدخل فيه، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم، ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل[46]

[46]ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين ج3 ص 347

أما من قتلتهم الدولة الإسلامية من الكفار فقد فإنما قتلوا في الحروب التي اندلعت بين الرسول وأخصامه، ولم يقتلوا في السلم، أما في إطار حرية اختيار الموقف الديني فلم يرد في أي رواية أن الرسول قتل أحداً من هؤلاء.

وربما ترد هنا حادثة واحدة مشهورة رواها ابن عساكر وهي أن امرأة من بني حطمة كانت تشتم الرسول الكريم، فقام زوجها أو رجل من قومها بقتلها فأثنى الرسول عليه.....

وفي الواقع فإنه لا يسعك إلا أن ترد هذه الرواية على من رواها، وهذا ما يوجبه العقل والمنطق والسياق، فمن غير المعقول أن يأذن الرسول باختلاف حادّ يصفه القرآن بالكفر، ويشكل حتى تهديداً لإيمان الناس واتباعهم ولا يعاقب قائليه بشيء ثم بعد ذلك يأذن بقتل امرأة تائهة لا تشكل أي خطر أو تهديد، وأن يتم ذلك يدون حجة أو بينات، وفي بعض الروايات تم ذلك على يد زوجها الأعمى!.

ولا أعلم في الروايات التي بين أيدينا حادثة واحدة لقتل رجل واحد في دولة الرسول بسبب أفكاره أو آرائه مهما كانت مناقضة للرسول وللقيم العليا التي قام عليها الإسلام.

وغاية ما يكن قوله في رواية المرأة الحطمية أنها رواية شاذة، والشاذ عند المحدثين هو مارواه رواة ثقات ولكنه يخالف ما هو أوثق منه من القرآن أو السنة.

وبعد ما أوردناه من الشبهات الكثيرة في تطبيق عقوبة الردة، وكل واحدة منها كافية لدرء الحد بالشبهة، فإن المجتمع الإسلامي يملك أن يقرر عقوبة مناسبة لفرض احترام المقدس الديني ومعاقبة من يقوم بازدرائه عقاباً مناسباً، بمعزل عن النصوص السابقة التي يتطرق إليها الاحتمال من كل وجه، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال.

وإلى جانب الحريات الكثيرة التي حققها الإسلام فإنني أملك الثقة الكاملة لأشير هنا إلى عدد من الحريات التي تحققت في دولة الرسول في الجانب التشريعي، وهي عادة لا تذكر في الدراسات التقليدية، بل إن بعض الفقهاء يرفضونها ويعتبرونها كفراً وردة.

- حق اختيار الدين والتعبد بالطريقة التي يرغبها المتعبد (وهذا هو حال اليهود كما نصت عليه وثيقة المدينة)
- حق مفارقة الدين كله واختيار دين آخر (وهذا ما نصت عليه بنود صلح الحديبية)[47]
- حق الاعتراض على حكم أو قضاء في مراحل البداية أو الاستئناف، ولو كان رسول الله هو من أقره أو قضى به، مع وجوب الطاعة إذا تم إبرام الحكم، وهذا ما هو سائد في كل ديمقراطيات العالم. (وهذا ما سنقدم عليه أمثلة كثيرة في الفصل التالي)
- حق الاعتراض على نصوص من الوحي بطلب نسخها أو تقييدها أو تحصيصها، وهو ما تؤيده كل روايات أسباب النزول التي حررها علماء الرواية. (وسنقدم عليه الأدلة والشواهد في الفصل التالي)

ويجب القول إن الاعتراض على هذه النصوص المقدسة كان يتم في إطار الفكر والرأي، وطلب البيان، وكان بهذا المعنى محفوظاً ومتاحاً ووارداً، ولكن ذلك لا يعني التمرد على الحكم القانوني الذي يصدر عن الدولة، بعد أن يتم الحسم فيه، فهنا يجب على المؤمن كما يجب على أي مواطن في العالم أن يلتزم حكم القضاء والقانون بعد أن يبرم، ولو لم يقتنع به، وهنا ترد الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ الأحزاب: ٣٦

[47] ورد هذا الشرط في سائر الروايات التي أوردها المؤرخون حول يوم الحديبية، انظر ابن هشام وابن اسحاق وابن كثير

الفصل الرابع: في التشريع الديمقراطي

ربما كانت مسألة الديمقراطية في التشريع هي أكبر الإشكالات في جدل الديمقراطية والإسلام كما بيناه، وقد اعتبرها بعضهم النقطة الفاصلة التي تميز بين الإسلام والكفر، فالإسلام هو اتباع لما أنزل الله، والديمقراطية اتباع لما يريده الشعب، وقد بينا جوانب من المسألة، ولكننا الآن ندخل إلى عمق المسألة، ونناقش ما إذا كان الرسول الديمقراطي قد أجاز الحوار مع الشريعة الموحى بها وأقر تعديلها بناء على طلب الجمهور أم لا، وأن النص الديني هو محل حوار ونقاش وليس محل اتباع أصمّ، وتتجه الدراسة لإثبات أن الله ورسوله قد أقر باستمرار تعديل الأحكام ونسخها بناء على طلب الجمهور وحاجات الأمة.

إنه لا حكم إلا لله! ولكن الله لا يعين رؤساء ولا خلفاء ولا وزراء، أنتم أعلم بأمور دنياكم إنه لا حكم إلا لله! ولكن الله تعالى وهبنا العقول وأخبرنا أن في اجتماعها واتحادها صواباً وبينة، وأن الخروج عن صف الجماعة مظنة الزلل، ولا تجتمع الأمة على ضلالة، والزم سواد الناس الأعظم.

• النسخ بطلب الجمهور

لا أعرف في العالم ديناً أو فلسفة أكثر قدرة على التطور والمرونة من هذه الشريعة الاسلامية، فقد أطلق الرسول الكريم رسالته العظيمة لإصلاح الناس، وبدأ التشريع

مترافقاً مع التجديد والتطوير، ولا أعرف في التاريخ نبياً ديمقراطياً استجاب لمطالب الجمهور وأجرى باستمرار تعديلات في الشريعة أكثر من النبي الديمقراطي محمد صلى الله عليه وسلم.

وخلال حياته التشريعية القصيرة التي لم تزد على 23 سنة فإنه تم نسخ 21 آية من القرآن الكريم، وتوقف العمل بما فيها مع أنها باقية في نص القرآن الكريم ويقرؤها المسلمون، وفيها حدود وحلال وحرام، ولكن الحاجة التي أملت نزول النص فيها تغيرت في تلك الفترة القصيرة، ودار الحكم مع علته وجوداً وعدماً، وتم وقف العمل بهذه النصوص القرآنية الكريمة بحضرة الرسول الكريم وبأمره ومتابعته.

ومن المفيد ان نشير إلى بعض هذه التغييرات التشريعية الهامة التي تمت خلال حياة الرسول الكريم من خلال النسخ:

- نسخ الآية التي كانت تقضي بحبس النساء الخاطئات في البيوت حتى الوفاة:
- نسخ آية جواز الوصية للوارثين، والتحول إلى قاعدة: لا وصية لوارث
- نسخ الآية التي أمرت اعتداد المتوفى عنها زوجها لمدة سنة واستبدالها بالآية التي جعلتها 130 يوماً
- نسخ الآية التي امرت بدفع صدقة ملزمة عند الالتقاء بالرسول: يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة (المجادلة)
- نسخ الإذن بالإفطار لمن لا يرغب بالصيام: وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، وإعلان وجوب الصيام على كل قادر
- نسخ الإشادة بالخمر ومنافعه إلى التحريم المطلق: يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس

وهذه كلها أحكام قرآنية نزل بها الوحي ولا يزال المسلم يرتلها في صلاته، وقد تم تطبيقها زمناً ثم حصل تطور جوهري في واقع الأمة استدعى أن يتم تغيير الحكم لما هو مصلحة حقيقية للناس، وحيثما كانت المصلحة فثم وجه الله.

وتفاصيل هذا النسخ مذكورة في كل كتب التفسير والرواية تقريباً، ولا يوجد بين المفسرين حولها خلاف جدي.

وما قلناه في القرآن الكريم ينطبق أيضاً على السنة النبوية فقد تم نسخ نحو 48 حكماً حكم به الرسول الكريم، ولم يكن الرسول ليتردد في القول برجوعه من رأي إلى رأي، وكان يقول: إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني[48].

وفي الحديث بيان مرونة هذه الشريعة وقدرتها على الاستجابة للأحداث وتطور الأحوال، فمن المعلوم أن حلف اليمين من قبل النبي الكريم لا يكون إلا على ما هو يقين بلا ريب، ولكنه لا يتردد أبداً في ترك ما أقسم عليه إذا ظهر له في سواه وجه أكثر ملاءمة وعدالة.

ولا شك أن النسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي من حلال وحرام، ولا يكون في الخبر ولا في الفضائل ولا في الاعتقاد، فهي حقائق ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان.

والمسلمون متفقون بلا استثناء على نسخ الشرائع بعضها ببعض، فقد أشار القرآن الكريم إلى مواضع كثيرة نسخت فيها أحكام فرضت على الامم الأولى، ومنها قوله تعالى:

- وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم (سورة الأنعام)

وجاء البيان القرآني واضحاً بأن هذا التحريم كان بسبب غيّهم وتشدّدهم ولم يكن حكماً سرمدياً في كل زمان ومكان.

وفي آية أخرى يشير القرآن الكريم إلى رسالة السيد المسيح بأنها جاءت لتغيير بعض الأحكام الشرعية المفروضة على بني إسرائيل:

[48] حديث صحيح، رواه البخاري ومسلم، وهو في البخاري ج8 ص127

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ آل عمران: ٥٠

وفي آية أخرى:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ النحل: ١١٨

وتكررت هذه النصوص في القرآن، ولا يوجد فقهياً أي اعتراض عليها، وقد بين القرآن الكريم النص الواضح بهذا الشأن بقوله:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴿٤٨﴾﴾ المائدة: ٤٨

ويتحدث الفقهاء عادة عن الحكمة العظيمة التي اقتضت ان يتم تغيير الأحكام بتغير الأزمان، وأن التطور الفقهي والتشريعي بما يناسب الناس مطلوب كلما تطورت المجتمعات، وأن رسالات الأنبياء ينسخ بعضها بعضاً، ولكل منهم شرعة ومنهاج، ولكنهم لا يقبلون في الغالب الأمر نفسه في الشريعة الإسلامية بل يسود الاعتقاد بأن الأمة قد بلغت أخيراً سن الرشد في الرسالة الخاتمة ونزلت الشريعة تامة فلا تقبل أي تطوير أو تجديد، ويتعين العمل على ما مات عليه الرسول!

ولا أملك إلا الأسف في الواقع لهذا الموقف، وقناعتي أن الشريعة تكتمل باستمرار، وتتجدد باستمرار، وليس مجداً لأي قانون أو أي شريعة أن يتوقف عن التطور، فالحياة مستمرة والجديد كل يوم، والشريعة تملك الروح المتوثبة القادرة على الاجتهاد في كل جديد وتعديل الأحكام وفق مصلحة الأمة، وهو ما اتفق عليه الفقهاء بعبارة لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

إن الآية التي أشارت إلى اكتمال الدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾ المائدة: ٣ إنما تتناول قضايا العبادات والغيب التي لا سبيل للعقل أن يبلغها.

أما قواعد الدنيا من سياسات واقتصاد وحقوق فهي تتجدد باستمرار واكتمالها نقطة ضعف وليس نقطة قوة، ويحكمها الحديث الذهبي: أنتم أعلم بأمور دنياكم.[49]

وربما كان أوضح مثال على حيوية الشريعة وإصرارها على التطور والتجدد هو ما نقرؤه في مسألة نسخ القبلة، فالقبلة أرسخ ثوابت الإسلام وهي المحور الذي يلتقي عليه المسلمون في كل مكان في الأرض، حتى سمي المسلمون أهلَ القبلة، وانتشر بين المذاهب الإسلامية جميعاً شعار: لا نكفر أحداً من أهل القبلة، ومع ذلك فإن هذا الأصل الراسخ تعرض للتغيير مرتين في حياة الرسول، حيث بدأ الرسول بالصلاة إلى الكعبة، ثم تحول إلى بيت المقدس ثلاثة عشر عاماً، ثم أمره الله أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام واستقرت القبلة في مكة المكرمة.

إن هذا الموقف الشجاع الذي يكرس مصلحة الأمة والإنسان فوق كل اعتبار لم يمرّ بدون نقد شديد من كهنة أهل الكتاب الذين رأوا أي تغيير في شعائر الدين مهما كان ضروريا للأمة عبثاً بالإيمان:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ البقرة: ١٤٢

وفي أعقاب نسخ القبلة وما أشاعه اليهود من استهزاء بالإسلام نزلت ثلاثون آية في سورة البقرة تشرح حقيقة الروح المتطورة في الشريعة، التي تكرس الاهتمام بالمقاصد الكبرى للشريعة في كرامة الإنسان ومصالح الأمة العليا، وذلك بعد أن صار اليهود والنصارى يتهمون النبي بأنه لا يملك قبلة ولا يملك ديناً مستقلاً، وأن الإسلام كله مجرد هرطقة وانحراف عن النصرانية واليهودية، وبوصلة تائهة، وهكذا فقد حان الوقت لتظهر الرسالة الإسلامية في مكانها الطبيعي ديناً مستقلاً شاملاً عالمياً للناس له قبلته ونصه وأنبياؤه.

---

[49] حديث صحيح، رواه الامام مسلم في الجامع الصحيح، ج4 ص 1836

ومن الآيات التي نزلت لتوضيح الحاجة إلى التغيير كلما دعت مصلحة الأمة:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ النحل: ١٠١

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ البقرة: ١٠٦

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ البقرة: ١٣٤

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ البقرة: ١٤٨

وكانت الآيات واضحة في تعليل تغيير القبلة بانه ضرورة اجتماعية لقطع ارتباط الرسالة الجديدة عن الكهنة المحتكرين للدين العتيق:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٥٠

وقد بدأ أمر النسخ مذهلاً لكثير من الفقهاء، وخاصة أنه يتم بصورة الاستجابة لمطالب الجمهور، ورآه بعضهم مناقضاً لنصوص القرآن الكريم نفسه:

﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ البقرة: ١٤٠

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ الملك: ١٤

وقد انكر أبو مسلم الأصفهاني والمعتزلة ظاهرة النسخ، واعتبروا أنها تستلزم العبث في الشريعة، والقصور في الخالق، بحيث أنه بدا له الأمر ولم يكن بادياً من قبل وهو يستلزم النقص في الخالق وهو محال، أو أنه علم شيئاً بعد أن كان يجهله، والواقع أن النسخ أمور يبديها لا أمور يبتديها، وهو كشف لا انكشاف، وإظهار لا ظهور، وإعلام لا علم، وإطلاع لا اطلاع، وإخبار لا خبر، وفي النهاية هو تغير في حال المخلوقين وليس تغيراً في حال الخالق.

وفي دلالة مباشرة فإن الحاجة التي طرأت لتغير حد الزنا على النساء من الحبس في البيوت إلى الجلد لم تكن أبداً بسبب تغير في الخالق وإنما بسبب تغير في واقع المجتمع

وتوفر جهاز قضاء يمكن من خلاله نقل العقوبة من التصرف الأسري الذكوري إلى تصرف الدولة الحقوقي.

وهناك اليوم تيار غير قليل في الفكر الإسلامي الحديث ينكر النسخ، ويجتهد في إحياء رأي أبي مسلم الأصفهاني والمعتزلة الذين أنكروا النسخ وتأولوا الآيات القرآنية التي تتحدث عن النسخ على أنها وردت في نسخ اليهودية والمسيحية بالإسلام، ونسخ التوراة والإنجيل بالقرآن وليس نسخ القرآن بعضه بعضاً، ولا شك أنهم ينطلقون من هدف نبيل وهو استحالة أن يأمر الشرع بشيء ثم ينهى عنه، وأن هذا يستلزم النقص في كمال الله وعلمه، وأنه بدا له بعد أن لم يكن بادياً وعرف بعد أن يكن عارفاً!!

ومع أنني من جهة المبدأ كثير الولع بإنصاف الآراء الفقهية التي لم تنل إقرار الجمهور ولكنني أجد نفسي هنا متفقاً مع جمهور الفقهاء في إثبات النسخ عقلاً ونقلاً ، وأجده أوضح الأدلة على تطور الشريعة وقدرتها على الاستجابة لحاجات الناس.

وهكذا فإن النسخ واحد من أوضح الأدلة على قدرة هذه الشريعة على التطور والاستجابة لكل جديد وتأمين مصالح الأمة.

وقد وقع نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالقرآن، كما وقع نسخ السنّة بالسنّة ونسخ القرآن نفسه بالسنّة، وهو مذهب الجمهور، وتحفظ الشافعي على نسخ القرآن بالسنة، ولكن الجمهور أقر ذلك، وقد أعلن النبي الكريم بوضوح أنه لا يتردد في التحول من حكم إلى حكمٍ إذا رأى فيه مصلحة راجحة، واشتهرت في هذا المعنى أحاديث: كنت قد نهيتكم والآن آمركم، أو كنت قد أمرتكم والآن أنهاكم... وهي أحاديث شهيرة يعدل الرسول فيها توجيهاته بحسب حال الأمة.

فإذا كان النبي الكريم وهو مصدر التشريع يصدر عنه الحكم مراراً ثم يراجع فيه، ويقر عشرات المرات بأن غير ما قضى به كان أحكم، وفي سياق قريب من ذلك نذكر مسألة تحول القبلة مرتين ومسألة أسارى بدر وندمه على ما قضاه بشأنهم بعد عتب القرآن عليه، وإذنه للمتخلفين ثم مراجعة القرآن الكريم له، وإباحته لحوم الحمر الأهلية ثم نهيه

عنها، وإباحته للمتعة ثم نهيه عنها، ومنعه من ادخار لحوم الأضاحي ثم إباحته لها، وفتواه بالمفارقة في مسألة الظهار ثم رجوعه عن ذلك وإقراره الكفارة بعد مجادلة المرأة بالحجة والبرهان، وفتواه بالحد على هلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء ثم رجوعه عن ذلك، وتشريع الملاعنة في قاذف الزوجة خصوصاً، وإعداده الصلح مع غطفان وهوازن يوم حنين ثم اتباعه لرأي السعدين في الكف عن المصالحة، وقراره لزوم المدينة لمواجهة جيش أحد ثم تغيير رأيه فيما بعد وخروجه إلى جبل أحد، وهي مواقف تعد بالعشرات إن لم نقل بالمئات وكانت ترسم في النهاية استجابة واضحة لمطالب الناس والتزاماً بما ثبت برهانه ودليله ولو كان بخلاف ما سبق من الوحي كتاباً وسنة، سواء أكان ظهوراً لحقيقة علمية أو استجلاء رأي شعبي أو مصلحة عليا للأمة.

وسنأتي على عدد مفصل من الأمثلة على ذلك في الفصل اللاحق.

ولا أعتقد أن ثمة تعارضاً بين التعبير الأصولي (النسخ أو طروِّ النازل) وبين التعبير العصري الاستجابة للسياق الديمقراطي، بجامع أن كلاً من الأمرين في المآل هو عدول عن حكم شرعي مبرم إلى ما فيه مصلحة الأمة والشعب، وعدم صحة الاعتذار بالمقدس والمبرم في مواجهة مصالح الأمة الحقيقية.

ومن العجيب أن هذا التطور الهائل الذي طرأ على الرسالة من خلال نسخ 21 آية و48 حديثاً خلال عمر الإسلام البالغ 23 سنة في مجتمع لا يزيد أعضاؤه عن مائة ألف ومساحته عن نصف مليون كم مربع كلهم من أمة واحدة وشعب واحد وثقافة واحدة وطبائع واحدة، يطرح السؤال الكبير عن الحاجة الملحة للتجديد والتطوير بعد أن عبرنا أكثر من ستين ضعفاً في الزمان فمرّ أربعة عشر قرناً، وستين ضعفاً في المكان فأصبح العالم الإسلامي ينتشر في 60 مليون كم مربع بعد أن كان في أقل من مليون، وتجاوز المسلمون العدد الأول بأكثر من ألف ضعف، ودخلت شعوب وملل وأمم لا تحصى في دائرة الإيمان بالقرآن الكريم وإقامة شعائر الإسلام، ولا أشك أبداً أن لو كتب للرسول الكريم حياة طويلة لاستمر النسخ والتجديد كل يوم كما هو شأن الحياة ودفقها المستمر.

يبقى السؤال هنا مشرعاً: ما معنى أن نشيد بالنسخ مظهر تطور وتجدد وحياة في حين أنه يتعين علينا الجزم بأن باب النسخ قد أغلق بالكلية عند موت الرسول، وما فائدة هذه الإشادة المفتعلة بقدرة الشريعة على التطور مع التسليم بأن ذلك خاص فقط بعشرة أعوام مرت قبل ألف وأربعمائة سنة، في نماذج محددة لا تتجاوز أصابع اليدين؟

من وجهة نظري فإن مشروع تطوير الشريعة وتجددها لم يتوقف أبداً بموت الرسول وما كنا نعبر عنه بالنسخ تم تحقيقه بآليات أصولية بارعة تحظى باحترام كافة علماء الإسلام، الذين لم يقعدوا أبداً عن اقتراح الجديد والمفيد في الشريعة، تحت عناوين كبيرة وحكيمة: تقييد المطلق، تخصيص العام، تأويل الظاهر، تحقيق المناط، تنقيح المناط، تخريج المناط ,الاستحسان والاستصلاح، إلى غير ذلك من عناوين كبيرة، أعتقد أن هذه المقالة تشير إليها ولا تستطيع تفصيل القول فيها.

دعنا نقل إنها إغراء لك أيها القارئ لدراسة علم أصول الفقه بعمق، واكتشاف القدرة الاجتهادية الحرة التي تحلى بها الفقهاء في عصر الصعود الحضاري في الإسلام، وآمل أن لا تصاب بالإحباط حين تكتشف أن هذه القدرة الاجتهادية الهائلة للأئمة في عصر المجد الفقهي قد تم منعها بضراوة في عصر الانحطاط الذي ورثنا كثيراً من تفاصيله، باختصار إذا أردنا أن يبقى الإسلام حياً فعلينا أن نأخذ من تراث الآباء الجذوة لا الرماد.

وأحب أن أضيف هنا موقفاً آخر لعدد من علماء الأصول، الذين تحدثوا بإسهاب عن النسخ، ونصوا أن النسخ يكون بالكتاب ويكون بالسنة ويكون بالإجماع.

وقد يبدو القول بالنسخ بالإجماع مستهجَناً، ولكنه في الواقع حصل مراراً في تاريخ الفقه الإسلامي وأشهر مسائل نسخ القرآن بالإجماع هو ما وقع في الميراث وبشكل خاص في ميراث الجد والأم، فقد تكرر من الصحابة الكرام لجوؤهم إلى الشورى واختيار وقف العمل بالنص القرآني بالإجماع لتحقيق العدالة.

ومع أن القول بنسخ القرآن بالإجماع غير مشهور ولكن لا بأس أن نذكر عدداً من الفقهاء أشاروا إليه اعتباراً أو إخباراً، ومنهم:

الحافظ ابن عادل الحنبلي في كتابه اللباب في علوم الكتاب ج 3 ص 242 وقد علل ذلك بانهم علموا وجود دليل تقديراً، كما أورده ابن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام ج 4 ص 120، كما اورده السرخسي في أصوله وانتصر له ج2 ص 66 ، كما أورده الآمدي في أصول الأحكام في معرض نسخ الثلث للأم بالأخوين ج3 ص163

وانتصر له البزدوي في كشف الأسرار ج3 ص 175، ونقله الزركشي في البحر المحيط عن الحنابلة ج5 ص 287، ونقله عن السرخسي ايضا ابن الموقت الحنفي في التقرير والتحبير ج3 ص69 ، ونقله علاء الدين الصالحي في التحبير وعلله بأنه على تقدير وجود ناسخ لم يظهر لنا ج6 ص 363

ونقله امير بادشاه الحنفي عن أئمة الحنفية في تيسير التحرير ج3 ص209

ونقله الشوكاني في ارشاد الفحول عن أئمة الحنابلة على تقدير الناسخ ج 2 ص75

ونقله بدر الدين العيني عن أئمة الحنفية في كتابه البناية شرح الهداية ج 3 ص 445

وإضافة للأمثلة التاريخية في علم الميراث وما قام به الخلفاء من نسخ النص عن طريق إجماع الفقهاء، فإن الأمثلة اليوم كثيرة جداً، وإن كان فقهاؤنا لا يسمونها نسخاً وإنما يكتفون بأنها تأويل أو تخصيص أو تقييد، ولكنها في المآل وقف العمل بنصوص مباشرة في القرآن الكريم بناء على مصالح الأمة وفق إجماع الدول الإسلامية التي تعبر عن جماهير الفقهاء فيها، ومن هذه المسائل:

- آيات ملك اليمين التي تكررت في القرآن أربع عشرة مرة، فقد انتهى إجماع الفقهاء والحقوقيين في البلاد الإسلامية إلى تأييد ألغاء الرق، ووقعت الدول الإسلامية كافة على اتفاقية منع الاتجار بالبشر ومقتضاها منع كل أشكال الرق والاستعباد.
- آيات قتال من يجارونا من المشركين: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطو الجزية عن يد

وهم صاغرون، فهذه الآيات ونظائرها تأمر بقتال الأمم المشركة لمجرد كفرها وشركها، وتعلق وقف القتال عنهم بدفعهم للجزية، ومقتضى ذلك وجوب قيام حالة الحرب مع كل دولة مشركة، ولكن الدول الإسلامية جميعاً بمن فيها من فقهاء وعلماء وحقوقيين اقروا بناء علاقات السلم وحسن الجوار مع الأمم الأخرى، وأصبح الإجماع متحققاً في تصديق الاتفاقيات التي تعقدها الدول الإسلامية مع الدول التي يسود فيها الشرك، وتتضمن هذه الاتفاقيات حسن الجوار والصلح الدائم والتبادل الدبلوماسي وهذا كله يعتبر إجماعاً نسخت به أو قيدت به أو خصصت به الآيات الآمرة بقتالهم ابتداء.

- أحاديث التصوير وهي شديدة وصارمة في منع كل تصوير واعتباره مضاهاة لخلق الله والأحاديث في ذلك كثيرة ومتوافرة، ولكن مشاركة الفقهاء اليوم على اختلاف مشاربهم بالعمل الإعلامي يكرس اتفاقاً يشبه الإجماع على وقف العمل بنصوص تحريم التصاوير ومنها: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، ومن صور صورة كلف يوم ا لقيامة ان ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وبعد هذا البيان في منهج التطور الذي حققه النسخ في الشريعة نتحول إلى مواقف محددة للنبي الديمقراطي، وسنعتمد روايات معتبرة عند الفقهاء ولكننا سنحتفظ بقراءة مختلفة لها عن القراءة التقليدية السائدة.

في الطبيعة البشرية لرسول الله

جاء القرآن الكريم صريحاً في شرح الطبيعة البشرية للرسول الكريم، وقطع أي احتمال للجدل في ناسوته وبشريته، والمتأمل في القرآن الكريم سيجد ذلك مسطوراً فيه على أتم غاية من الوضوح والبيان.

ومن هذه الآيات البينات يمكننا اختيار سلسلة من الآيات التي تدل على هذه الحقيقة، وقد اشتملت عتاباً واضحاً على الرسول الكريم:

في قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، نزل العتاب الشديد بالآية: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾ عبس: ١ – ٤

وفي قصة زواجه بزينب بنت جحش نزلت الآية: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ الأحزاب: ٣٧

وقد جاء القرآن الكريم واضحاً في دعوة النبي للاستغفار والرجوع عن ذنبه وخطئه، وإذا كان الفقهاء مختلفين في نسبة الخطأ إليه فإنهم غير مختلفين في نسبة الذنب إليه وفق ما صرح به التنزيل العزيز: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ غافر: ٥٥

ولا أجد الحاجة لشرح هذه الآيات الكريمة وسيأتي فيها مزيد تفصيل، وكلها تؤكد أن الرسول الكريم كان بشراً يعرض له ما يعرض للبشر من الضعف والخطأ، ولكنه كان يمتلك الشجاعة للاعتراف بالخطأ، والرجوع عنه إلى الصواب.

وفي قراءة ذات دلالة فإن القرآن يركز مراراً على وصف النبي بأنه عبد لله، وينفي عنه أي شبهة ملائكية أو ألوهية، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم ذكر النبي مراراً بأوصاف النبوة والرسالة وأثنى عليه بالمقام المحمود، وكنه كان حريصاً على إظهار الجانب البشري في شخصيته وبشكل خاص في اللحظات التي يلتبس فيه البشري بالإلهي.

وفي توضيح ذلك فإنه ليس في تاريخ الإسلام يوم كان فيه الرسول الكريم أقرب إلى ربه من يوم المعراج والإسراء، حيث قدمت الآيات صورة النبي الكريم وهو يسري من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولكن اللافت هنا أن الآية تصفه بأنه عبد لله، سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعلى الرغم من

جلال المشهد وهول ما فيه من ركوب السماء واختراق الحجب، ولكن الرسول لم يذكر هنا بأي من ألقاب الملك أو السلطان أو السيادة وإنما ذكر بوصف العبودية لله، وقد كان السياق أن يقال أسرى بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بمصطفاه، ولكن الآيات أشارت إلى أنه عبده، محض عبد لله.

وفي سورة النجم تشير الآيات إلى أن النبي الكريم رقى في السموات وأنه رأى من آيات ربه الكبرى وأنه دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، وهو قرب لا يبتغى قرب أرقى منه أو أدنى إليه، فهو هنا عن يمين الرحمن، على بساط الحق عند ساق العرش، حيث لا يتصور أن يكون هناك مقام أعلى ولا أرقى، وهنا يجيء الخطاب القرآني بصيغة فأوحى إلى عبده ما أوحى!!

كان المفترض بالسياق أن يقال فأوحى إلى ضيفه ما أوحى، أو إلى رسوله أو نبيه أو مختاره أو وليه أو صفيه أو حبيبه، وكان من الوارد أن تستخدم تلك الألقاب التي نستعملها اليوم: نور عرش الله، أو أول خلق الله، أو صاحب الشفاعة أو الألقاب التي نهديها بدون وعي لرجال دبن غابرين من أمثالنا: قطب الغوث، مدرك الكون، صاحب الأفلاك، إمام الملائكة، خاتمة المحققين، ولكن القرآن هنا يختار لفظ عبده، فما هو سر العبودية بالذات في هذين المقامين؟

إن القصد الإلهي من ذلك واضح وصريح وهو رفع أي شبهة للخلط بين العبد والرب، بين الإنسان وبين الله، ولما كان المعراج والإسراء يتضمنان إشارات هائلة لمنزلة غير عادية للنبي الكريم، فإن الله تعالى أراد أن تكون المسألة هنا بعيدة عن أي التباس، وأن يتأكد الجانب البشري في شخص الرسول والهدف بالطبع هو التأكيد على أن عصر المعجزات والعجائب قد ولى، وأن هذا الرسول بشر جاء برسالة من الله وهو محض عبد لله تعالى.

وفي مواقف كثيرة أعلن الرسول على الملأ في عبارات واضحة صريحة، أنه معرض للخطأ، ولكنه حاسم في الرجوع إلى الصواب إذا تبين له الحق، وقال: إني والله إن شاء

الله لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني.[50]

ولا شك أن حلف الرجل على شيء لا يكون إلا على خلفية يقينه بما يحلف فيه، وهذا يعني أنها مسائل كان على يقين من صوابها ولكن تبدى له خلاف ذلك فملك الشجاعة الكافية في التخلي عن رأيه والعدول إلى الحق.

وجرت العادة أننا نروي عن الرسول الكريم رجوعه عن الخطأ في الشؤون الاعتيادية ولكن هذا النص في تقديري يشير مباشرة إلى العودة عن الحكم التشريعي، واختيار نسخه أو تقييده أو تخصيصه بما يناسب الواقع الجديد، ولوكان قد سبق فيه الحسم والحزم وعقد الأيمان.

وفي موقف بالغ الوضوح أعلن النبي أنه حتى أحكامه القضائية هي أحكام بشرية قد يكون فيها الصواب وقد يكون فيها الخطأ وأن على الأمة أن تبتكر أنظمة من استئناف القضاء ونقضه للوصول إلى الحق، وأنه لا يجب الاغترار بكون القضاء صادراً عن النبي نفسه، ونص عبارته يغني عن أي إضافة:

أيها الناس إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي قطعة من النار فلا يأخذها[51].

وأحاديث السيرة النبوية كثيرة في هذا المعنى، وقد أشرنا في هذه الدراسة إلى عدد من المواقف النبوية في العدول عن الحكم الشرعي إلى سواه استجابة لمطالب الناس وخضوعاً لما ثبت أنه الحق.

وشواهد ذلك كثيرة، ونختار منها على سبيل المثال موقفه من طلب زعماء قريش تخصيص مجلس بالأغنياء لا يحضره الفقراء إذا أرادهم أن يستمعوا إليه، وكان الواقع

---

[50] حديث صحيح، رواه البخاري، عن عائشة، ج 8 ص 127

[51] حديث صحيح، رواه البخاري عن أم لمة، في الجامع الصحيح، ج3 ص 180 كما رواه مسلم وأصحاب السنن وأحمد

الطبقي مستحكماً في العرب، فلا سواء بين الأحرارا والعبيد ولا سواء بين الأشراف والصعاليك ولا سواء بين الأغنياء والفقراء.

هم الرسول بالفعل أن يستجيب لهم تأسيساً على مصلحة ظاهرة، وهي تألف قلوبهم إلى الإسلام والتأني بهم حتى يدخلوا في الإسلام وقبلوا آدابه وأحكامه فيما بعد.

ولكن هذه المصلحة الموهومة تضر بالمبادئ الراسخة في الإسلام الذي جاء دعوة حرية ومساواة، وهدم الفوارق بين الناس وبالفعل فقد جاء القرآن الكريم واضحاً وصارماً:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ الأنعام: ٥٢

وفي آية أخرى أشد وضوحاً جاءت رداً على محاولات قريش لاستمالة النبي الكريم ودفعه إلى تجاوز القيم الراسخة في الإسلام من المساواة والاستجابة لبعض مطالبهم والمجيء بنصوص تكرس زعامتهم وتمنع مساواتهم بالسوقة والعبيد وحين هم النبي الكريم أن يستجيب لطلبهم رجاء تألف قلوبهم، جاء القرآن شديدا صارما:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ الإسراء: ٧٣ – ٧٥

وفي آية أخرى جاء النص واضحاً في أن هذا التقدير البراغماتي الذي همّ به رسول الله يتناقض مع المقاصد العليا للإسلام، وأن المجد الحقيقي ليس إلى جانب هؤلاء المترفين والدهاقنة والزعماء التقليديين وإنما هو في الحقيقة إلى جانب أولئك المخلصين للرسالة من الفقراء والموالي وأصحابَ الصُّفة، وأن الوفاء يقتضي أن تلتزمهم ولا تعدو عيناك عنهم، وكشفت الآية عن جانب دقيق في بشرية الرسول الكريم وضعفه الإنساني لا نجرؤ نحن أن نصرح به: تريد زينة الحياة الدنيا! وتمام الآية الكريمة:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ الكهف: ٢٨

وجاء القرآن الكريم في آيات أخرى يدعو النبي الكريم للاستغفار من ذنبه والعودة عن الخطأ إذا ما تبين له الصواب:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ غافر: ٥٥

وبعد نزول هذه الآيات في سورة الأنعام وسورة الكهف كان الرسول الكريم يكثر الدخول على أهل الصفة من الفقراء في آخر المسجد ويقول أهلاً بمن عاتبني فيهم ربي، لا أزال أصبر على ريح جبابهم حتى ألقى الله.!!

المجادلة

هي خولة بنت ثعلبة، امرأة مسلمة شهيرة عاشت في عصر النبي الكريم في المدينة، جاءت إلى رسول الله تشكو زوجها وقد ظاهر منها، والظهار كان عادة جاهلية قبيحة يقول فيها الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي! وفي هذه الحالة تصبح المرأة محرّمة على الرجل، ويتعين الفراق بين الزوجين وإنهاء العلاقة الزوجية.

قالت: يا رسول الله لقد ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت، وكان رجلاً قد أسنَ، وكان قد غضب منها لشيء فظاهر منها.....

استمع لها الرسول الكريم بإنصات، ثم أفتاها بأنها قد حرُمت عليه وأن عليهما الانفصال...!!

كان على المرأة وفق فقهنا التقليدي أن تنصاع لما أمرها به النبي الكريم، فهو لا ينطق عن الهوى، وهو وحي معصوم، ومنزلة السنة في الشريعة كمنزلة الكتاب.

ولكن المرأة لم تستسلم، ورأت أن القيم الإسلامية في الحرية تمنحها الحق في الاعتراض، ووقفت بشجاعة تجادل الرسول الكريم في أمرها، وقالت يا رسول الله، كيف أفارقه؟؟ وقد علمت أنه أبو ولدي، وابن عمي، وأحب الناس إلي، وقد عرفت ما يصيبه من اللّمم وعجز مقدرته، وضعف قوته، وعيّ لسانه، وأحق من عادَ عليه أنا بشيء إن وجدته، وأحق من عاد علي بشيء هو!!

ولكن الرسول كرر عليها جوابه الأول: ما أراك إلا قد حرمت عليه!

قالت معترضة: يا رسول الله إن لي صبية إن ضممتهم إليّ جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا!!

وتقول عائشة: لقد بكت وأبكت كل من كان في الدار، وهي تشرح بؤسها لو تم الظهار!

ثم عادت تراجعه بانفعال: تزوجني وأنا شابة غنية ذات مال وأهل، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني ظاهر مني؟!! وهو نادم على ما قال وليس لي عنه غنية!!

ولكن رسول الله أعاد قوله: ما أراك إلا قد حرمت عليه!!

حتى إن عائشة قالت فجعلت أجذب ثوبها بيدي لما رأيت من طول جدالها للنبي وإصرارها على تغيير ما قضى به من حكم.

ولكن خولة استمرت في الجدال والنقاش، تجادل رسول الله وتبسط براهينها وحججها، وفي النهاية تغير بالفعل حكم النبوة، ونزل قرآن جديد بسورة المجادلة وهي سورة خاصة نزلت في هذه المرأة الكريمة وتضمّنت حلاً لمشكلتها يتضمن الكفارة والعودة إلى زوجها وحياتها.

إن هذا الموقف ديمقراطي بامتياز، وهو نضال قامت به امرأة من أجل الحصول على تعديل قانوني ضروري، ولم يكن لهذا التعديل أن يكون لولا هذا الجدل والإصرار، وحتى لا نتهم بأننا نقول ما لم يأذن به الله، فإن كلمة الجدل هي الكلمة التي اختارها

القرآن للتعبير عن نضال خولة الديمقراطي، بل إن السورة كلها سميت بالإجماع سورة المجادِلة:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ المجادلة: ١

وفي سيرة عمر بن الخطاب أن امرأة عجوزاً اعترضته ذات ظهيرة في الشمس وهو خارج من مجلسه فأطالت عليه الكلام وشددت له في القول وهو مصغٍ لها وهو أميرالمؤمنين، وحين اعترض بعض الصحابة بأنها أطالت عله وقست قال لهم عمر: ويحكم... ألا أستمع إلى المرأة التي استمع الله إليها من فوق سبع سموات، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها!![52]

تبقى سورة المجادلة من وجهة نظري صورة كفاح ديمقراطي قادته امرأة شجاعة بهدف تعديل نص تشريعي نطق به الوحي، وقد نجحت المرأة في تحقيق هذه الغاية النبيلة.

السَّلَم

وصل النبي الكريم إلى المدينة المنورة وأعلن قيام أول دولة حقيقية في تاريخ العرب، واختار على الفور اسم المدينة بدل يثرب، بالمناسبة هي البلدة الوحيدة في جزيرة العرب التي تسمى مدينة، في إشارة واضحة للانتقال من القرى إلى المدن، ومن القبيلة إلى المواطنة، ومن العشيرة إلى القانون.

وقد أكّد القرآن بوضوح بشرية الرسول التامة في قضايا الحياة، وقد أثار هذا السلوك استغراب الآخرين، فقالوا متعجبين:

---

[52] الدرمي، عثمان بن سعيد، الرد على الجهمية، ج 1 ص 53

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ⁧٧⁩ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ⁧٨⁩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ⁧٩⁩﴾ الفرقان: ٧ – ٩

وهي تساؤلات تائهة تشرح فشلهم في فهم معنى النبي الخاتم ورسالته، وتكشف أنهم لا يعرفون النبوة، ولا يدركون أن الأنبياء رجال زند وكفاح، وعقل وعمل، وأن عصر حكم الغيب لعالم الشهود قد ولى مع هذا النبي وباتت رسالته أن يعيش مع الناس في أسواقهم وتجاراتهم وتجاربهم لبناء حياة أكثر عدالة وأمناً، وبالطبع كان الجواب على كل هذه التساؤلات: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً.

في المدينة قام رسول الله يراقب الأسعار والأسواق والأنظمة الاقتصادية، وكان على رأس مبادئه الاقتصادية تحريم الربا ومنع بيع المجهول وبيع الغرر، وذلك حماية للناس من مكر التجار وأساليبهم.

وخلال جولاته في الأسواق ومراقبة نظامهم في البيع والشراء، تعرف على بيع السَّلَم، وهو نظام إنتاج زراعي لا تعرفه مكة بالطبع فمكة كانت في واد غير ذي زرع فيما كانت المدينة أرضَ زرع وسقاية.

أعلن رسول الله تحريم بيع السلم بوصفه بيعاً للمعدوم، ولأن فيه شبهة واضحة من شبهات الربا، والسَّلَم هو أن يأتي التاجر إلى الفلاح فيشتري منه ما سينتج من غلاله، ويدفع بالطبع ثمناً أقل من الثمن الأصلي لهذه المنتوجات، نظير الزمن الذي سيحصل عليه الفلاح، وفيه شبهة الربا من جانبين: النسيئة (ثمن الزمن) وبيع المعدوم .

كان من الواضح أن موقف الرسول الكريم قائم على قواعد القيم الإسلامية العادلة في منع الغرر والاستغلال، وكان هذا الموقف حاسماً في التشريع، ورأى أن السلم يشتمل على التغرير وبيع المجهول وربا النسيئة فأمر بتحريم السَّلَم كله!

ولكن الجمهور الكريم من الصحابة عاد يراجع النبي الكريم في قراره، وتقدم الصحابة الكرام بحجج وأدلة أنه لا يمكن بناء اقتصاد زراعي حقيقي إلا بدعم الفلاحين وتشجيع

الزراعة وتقديم المال للمزارع قبل بداية الزرع فهو بحاجة للعمال وبحاجة للسماد وهذا كله يتطلب توفر المال الذي لا يتوفر لدى الفلاح الذي تعود أن يعيش فقيراً ويموت غنياً.
بعد مراجعات متكررة للخبراء الاقتصاديين من أهل المدينة وجد الرسول الكريم أنهم على حق فيما يطلبون، وأن السلم نظام ضروري للاقتصاد الزراعي ولا غنى عنه، وأن موقفه من منع السلم كان متسرعاً، فأعلن الرسول الكريم بكل شجاعة تراجعه عن موقفه السابق وأذن في السلم استثناء من قواعد تحريم الربا وتحريم بيع المعدوم.
ونص الحديث كما في البخاري: قَدِم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ وهم يُسلِفونَ بالتمرِ السَّنَتَينِ والثلاثَ، فقال: مَن أسلَف في شيءٍ ففي كَيلٍ معلومٍ، إلى أجلٍ معلومٍ[53]
وحتى اليوم لا يزال نظام السّلَم في الزراعة ونظام الاستصناع في الصناعة والبناء هما عماد الاقتصاد الوطني في البلاد المسلمة.
في الحقيقة فإن موقف الرسول الكريم كان ديمقراطياً بامتياز وقد أقر التحول من الحكم الأول إلى الحكم الثاني تحت طلب الجمهور وأهل الاختصاص وهذا بالطبع موقف ديمقراطي نبيل.

الإذخر

أعلن النبي الكريم في حجة الوداع سلسلة مواقف هائلة على صعيد الحرية والمساواة وحماية البيئة وحرمة البلد الحرام، وكان المشهد جليلاً وكبيراً، ولا شك ان خطبة حجة الوداع تعتبر إلى اليوم من روائع الأدب السياسي والحقوقي، وهي بحق مفخرة في خطاب العدالة والمساواة، وفيها أعلن:
أيها الناس.. إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب...

[53] حديث صحيح ، رواه البخاري عن عبد الله بن عباس، ج3 ص 85

وكان الرسول الكريم يشدد في كل فقرة من خطابه أنه يتبع الوحي المعصوم وأنه يبلغ الناس ما أمره به الله تعالى.

وكان من روائع المواقف التي أعلنها الرسول في خطبة الوداع موقفه من حرمة البلد الحرام ومنع إراقة الدماء فيه بأي معنى ومنع الصيد ومنع قطع الشجر، وقال: مكة كلها حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يقطع شجرها ولا ينفر صيدها ....

كان هذا الإعلان بمثابة موقف نهائي يحدد قيم الإسلام في الأرض الحرام، ويؤسس لأول محمية بيئية في تاريخ العرب.

ولكن الأمر بإطلاقه يترتب عليه ضرر بالمصالح الحيوية للناس، فهناك أنواع من المزروعات قد تعيق التنمية، وقد يكون حبسها وتحريم قطعها ضرراً بالجميع، وعلى الفور قال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر فإنه لقينتهم وبيوتهم، فقال رسول الله على الفور: إلا الإذخر[54]

والإذخر نوع من النبات طيب الرائحة كانت العرب تزرعه ليتخده الحدادون جمراً للنار، وكذلك كانوا يعتمدونه في أسقف المنازل لما له من القوة والشدة.

لقد كان استثناء العباس للإذخر من المحرمات موقفاً باسلاً وضروريا، ومع أن موقفه يبدو تقليدياً اعتراضاً على الوحي في لحظة التنزيل، على الرغم من هول الموقف، ولكن الرسول الكريم فهمه على أنه استدراك ضروري ومشاركة حكيمة في اقتراح الشريعة، وبناء عليه وافق الرسول مباشرة على اقتراح العباس، وهو سيد مكة، وأهل مكة أدرى بشعابها وقال: إلا الإذخر، وبذلك تغيَّر الحكم الشرعي، وتحول الرسول الكريم من المنع إلى الإيجاب.

وفي مرحلة لاحقة تشاور الصحابة الكرام في أمر منع الصيد وقطع الشجر، ورأوا أن إطلاق التحريم لا يخدم الهدف الذي أرادته الشريعة، وإذا كانت حماية الأصناف الحيوانية مطلباً للشريعة وإحساناً في الأرض ولكن إن من هذه الحيوانات ما يجب قتله

[54] حديث صحيح، رواه البخاري عن أبي هريرة، ج1 ص33

في الحل والحرم، وتركه سيؤدي لا محالة لأذى الناس، وأن من الشجر ما يجب قطعه لحاجة الناس أو لضرورة العمران والمرور...

وبعد سلسلة مطالبات من الناس استجاب الرسول الكريم للاستثناء الضروري الذي اقترحه الصحابة، وقال: خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والكلب العقور والغراب الأبقع والحدأة والفأرة[55]

ثم جرى عمل الفقهاء بعد ذلك على الاستمرار في الاستثناء لكل ما هو ضار بالإنسان ومؤذٍ له من الحيوانات والحشرات ولو لم يرد في نص حديث الفواسق الخمس.

ومن الطريف هنا أن الرسول سمى هذه الحيوانات فواسق، والفسق هو الخروج عن الطريق والسكة، فكان معنى ذلك أن هذه الحيوانات لها سكة خاصة حددها الله في البراري والوديان والمغر، فإذا تركت بيئتها ودخلت بيوت الناس فقد صارت فاسقة بحكم الطبيعة وحل قتلها لمن يتضرر منها.

غير أولي الضرر

نزلت الآيات الكريمة في سورة النساء تحث المؤمنين على الجهاد: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضّلَ الله المجاهدين على القاعدين درجة، وكلاً وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً.

وهكذا فقد نزلت هذه الآية الكريمة كما روى البخاري[56] عن زيد بن ثابت في بيان فضل المجاهدين، وقد اشتهرت هذه الرواية في معظم كتب السنن وأوردتها معظم التفاسير، وبعد أن كتب زيد بن ثابت النص القرآني كما أملاه الرسول الكريم، جاءه عبد الله بن أم مكتوم، وفي رواية النسائي كان معه أيضاً عدد من ذوي الإعاقة فيهم عبد الله بن جحش، وقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله ! ماذا يصنع الأعمى؟ والله لو أستطيع جهاداً لجاهدت.!

---

[55] حديث صحيح، رواه البخاري عن عائشة، الجامع الصحيح ج4 ص 129

[56] حديث صحيح رواه البخاري عن زيد بن ثابت، الجامع الصحيح ج4 ص 25

بعد لحظات يدعو رسول الله زيد بن ثابت ثم يملي عليه زيادة كلمات ثلاث في الآية لتصبح: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون.

واشتهرت القصة بين المفسرين بأنها أقصر ما نزل من الوحي مستقلاً وهو ثلاث كلمات: غير أولي الضرر.

بالطبع كان بالإمكان أن يجيب الرسول بأن الوحي قد تم ، وأنه رفعت الأقلام وجفت الصحف، ولا مبدل لكلمات الله، وإنما كان قولَ المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

وكان بإمكانه أن يستدل بعموم آيات أخرى ترفع الحرج عن أصحاب الأعذار، ليس على الأعمى حرج، ولكن الرسول الكريم كان لديه من الشجاعة ما يطلب فيه تعديل الوحي والإضافة عليه ليستقيم المعنى، وبذلك نفهم الشريعة من أجل الإنسان وليس الإنسان من أجل الشريعة.

كما أن الآية تشتمل أيضاً على بيان منزلة أصحاب الهمم وحقوقهم في الشريعة وأن النص القرآني المعصوم قد تم تعديله لرعاية هذه الفئة من الناس تقريراً لكرامتهم وإنسانيتهم وحقهم في تشريع يحميهم وينصفهم.

الغِيْلة

أخرج الإمام مالك بن أنس عن جذامة بنت وهب الأسدية أن رسول الله قال: كنت قد هممت أن أنهى عن الغِيْلة، ثم علمت أن فارس والروم يصنعونه ولا يضرهم فافعلوه[57].

والغِيْلة هي الجماع وقت الرضاع، وكانوا يخافون من اختلاط لبن الرضيع بماء الرجال عند الجماع.

---

[57] حديث صحيح، أخرجه مسلم عن جثامة بنت وهب، الجامع الصحيح، ج2 ص1066

كان بالإمكان أن يمر نص كهذا دون تعليق، ولكنني أعتقد أن هذا النص النبوي يلهمنا منطق الرسول في التعاطي مع المعرفة، وأسلوبه الديمقراطي في الخضوع للخبرة العلمية والتجربة الموضوعية.

وبعيداً عن شرح أشهب لموطأ مالك وشرح ابن حجر لصحيح البخاري فإنني سأستعير عبارات معاصرة لشرح هذا الخبر النبوي الحكيم على الشكل التالي:

خلال متابعة النبي الكريم للواقع الصحي في المدينة قدمت إليه تقارير من بعض مراقبي الصحة بأن هناك شكوكاً حول اختلاط ماء الرجل بحليب المرأة المرضع، ومن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى مضاعفات سيئة في حليب الأطفال، وذيلت هذه التقارير باقتراح من وزير الصحة في الدولة المحمدية بمنع الغيلة.

أمر النبي الكريم بصفته قائداً زمنياً ورئيساً للدولة الناشئة بإعداد مشروع قانون لمنع الغيلة حفاظاً على الصحة الإنجابية.

ولكن مستشاره لشؤون الصحة اقترح استقدام خبرات أجنبية أكثر متابعة لملف الغِيلة، ولدى دراسة ما انتهوا إليه ثبت بالدليل القاطع أن هذا الأمر شائع لدى الأمم المتحضرة آنذاك الروم والفرس، وأنه لايؤدي إلى مضاعفات سيئة، ولا بأس من اعتماده، وأن المحاذير التي خشيها الخبراء المحليون موهومة ولا داعي لاعتبارها.

بكل شجاعة يقف النبي الكريم أمام فريقه الإداري ويقول للعالم: لقد هممت أن أنهى عن الغِيْلة، ولكنني علمت أن فارس والروم يصنعونه ولا يضرهم، وبناء على الخبرة العلمية الموضوعية، فإنني آمر بوقف مشروع القانون إياه لانتفاء مبرراته.

إن فهمنا لحركة التشريع بهذه الطريقة لا يتناقض أبداً مع الإيمان برسالة الرسول فنحن هنا نقرأ نشاطه الإداري ولا نتحدث عن إمامته الروحية وتبليغه عن الله في شؤون الغيب.

تأبير النخل

في إطار سعيه لتطوير النشاط الزراعي في المدينة تعرَّف النبي الكريم على نظام تأبير النخل الذي كانوا يمارسونه قبل الإسلام في مزارع المدينة.

وتأبير النخل شيء في غاية الغرابة إذ لا يشتمل على تلقيح مادي مفهوم، بل هو تعليق غصن صغير من شجرة على شجرة أخرى حيث يرسل الله الرياح لواقح فيصل بعض طلع النبات ببعض بحكمته وأمره، فيكون في ذلك العافية والنشاط للثمرة وتورِقُ بعد جدب وتزهر بعد قحط.

وصل النبي الكريم المدينة المنورة فرأى أهل المدينة يؤبرون النخل، لم يكن معنى التأبير واضحاً وتبادر إلى ذهن النبي الكريم أن الأمر لا يعدو أن يكون واحدة من الخرافات التي سادت في الجاهلية واشتملت على الأوهام وسرعان ما أنكرها فيهم وقال: ما أرى ذلك يغني عنها شيئاً؟؟

كانت القداسة التي تحيط بأذهانهم عن النبي الكريم تحول بين كثير منهم وبين استيضاح الأمر وحسبوا أنهم كانوا يمارسون أوهاماً جاهلية وبادروا إلى السمع والطاعة من دون حوار، وهم على يقين بأن ما دعاهم إليه النبي الكريم أبرك وأفضل، وأن ثمارهم ستتضاعف لقاء طاعتهم وامتثالهم لرسول الله.

ولكن مع ظهور الموسم لم يشاهد الناس شيئاً مما توقعوه وكانت المفاجأة أن الشجر لم يحمل إلا شيصاً، لا زهر وفيه ولا ثمر!!

مضى أصحاب النبي الكريم يشكون له فشل موسم الزراعة بعد ترك التأبير، وجاؤوه بثمار من مزارعهم وثمار من مزارع اليهود والفرق واضح جلي، وقالوا يا رسول الله نهيتنا عن التأبير فلم يحمل الشجر إلا شيصاً! [58]

كان في قدرة الرسول أن يحيل إلى أوهام من الغيب ويعتبر ذلك قدراً يرتبط بذنوبهم وخطاياهم وترددهم، وأن يدعوهم إلى التوبة والاستغفار... ولكن الرسول لم يفعل شيئاً

---

[58] حديث صحيح، رواه مسلم عن أنس بن مالك، الجامع الصحيح، ج4 ص 1836

من ذلك، وإنما تقدم بكل شجاعة وبسالة، وقال أمام العالم: إذا أمرتكم بالشيء من أمر دينكم فهو مني وأنا قلته، وإن أمرتكم بالشيء من أمر دنياكم فإنما أظن ظناً، أنتم أعلم بأمور دنياكم.[59]

وفي الواقع فإن هذا الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم ومعظم أصحاب الصحاح يعتبر أصلاً في المنهج الديمقراطي، الذي يفرض على الحاكم الاستماع لرؤية الشعب، والتزام العلم والموضوعية، واعتبار مطالب الناس أصلاً في تشريع القوانين.

ولا مبالغة مهما قلت في أثر هذه العبارة الذهبية التي أطلقها الرسول الكريم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" فهي أصل عظيم في بناء الدولة الديمقراطية، وتأثيرها يمتد إلى سائر جوانب الحياة المدنية في الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة والحكم والقضاء وسائرالتشريعات في المجتمع، ولا يستثنى من ذلك إلا الأمور العبادية.

حد القذف

وفي موقف ذي دلالة وقع في السنة التاسعة من الهجرة رواه البخاري ومسلم أن الصحابي هلال بن أمية جاء غاضباً إلى النبي الكريم، ووقف مذهولاً صارخاً أمام الناس يقذف امرأته بشريك بن سحماء، وذكر أنه رأى الفاحشة بعينيه، وراح يطالب النبي الكريم بمعاقبة الجناة...

كان أمراً مدهشاً ومثيراً ومُحرجاً، فالرجل طُعن في عرضه وبات جريحاً في شرفه، والمشهد يقتضي التعاطف معه في مصابه، والبدء بمعاقبة الجناة.

ولكن الرسول الكريم قال لهلال بن أمية: أمعك بيّنة؟ قال: لا...قال: البيّنةُ أو حدٌّ في ظهرك!!

لقد كان الرسول الكريم يطبق ما بين يديه من القرآن، والنص واضح:

---

[59] حديث صحيح، رواه مسلم عن أنس بن مالك، الجامع الصحيح، ج4 ص 1836

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ النور: ٤

قال هلال مغضباً يا رسول الله!! لقد رأيت بعيني، وانحلع قلبي، ومن أين أجد البينة؟ أحدنا يجد مع امرأته رجلاً فيذهب يلتمس البينة؟! وكيف التمس أربعة رجال ليروا الفاحشة فلا آتي بهم إلا وقد قضى الرجل نهمته؟! [60] ولكن الرسول الكريم ظل يقول: البينة أو حد في ظهرك!

عاد هلال يقول بمرارة وألم: يا رسول الله!...والله إني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد!!

ولكن الرسول الكريم ظل يقول له: البينةُ أو حدٌ في ظهرك، وحد القاذف ثمانون جلدة وهو نص القرآن الكريم...

واشتد الجدل بين الصحابة وقال سعد بن عبادة: يا رسول الله أحدنا يجد مع امرأته رجلاً فينطلق يلتمس البينة فلا يأتي بالشهود حتى يكون الرجل قد قضى حاجته منها....

ثم قال مغضباً والله لو قد رأيته لاخترطته بسيفي.!!...

وظل الرسول الكريم على موقفه، وقال لسعد بن عبادة: انظروا إلى صاحبكم إنه لغيور وإن الله لأغير منه... ثم عاد يكرر القول: أيّما قذف بدون بينة ففيه ثمانون جلدة.

واستمر هلال في شكواه وقال والله يا رسول الله إني لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد.... واستمر الجدل بين الصحابة، وانضم صحابة آخرون لسعد بن عبادة في تأييد موقف هلال ابن أمية، ومنهم عاصم بن عدي وعويمر بن نصر العجلاني، فالرجل حين يقذف امرأة من الناس لا يشبه الرجل حين يقذف امرأته وعرضه!!

وقام عاصم بن عدي الأنصاري، فقال: جعلني الله فداءك، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جُلِدَ ثمانين، وسماه المسلمون فاسقاً، ولا تقبل شهادته أيضاً،

---

[60] أبو داوود السحستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، ج2 ص 276 وصححه الألباني

فكيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجلُ من حاجته، وإن ضربه بالسيف قُتل؟ وإن سكت سكت على غيظ، ثم جعل يدعو ويقول: اللهم افتح، اللهم افتح.

وهكذا فقد ظهرت الحاجة واضحة إلى استثناء تشريعي يميز بين قذف الغريب لامرأة وبين قذف الزوج لامراته، وتقدير ظروف الزوج وهياجه وانهياره حين يقذف امرأته إذا اشتبه بوقوع الفاحشة....

وبعد جدل طويل، وصفه القرطبي بقوله: كره رسول الله ذلك واشتد عليه، نزل القرآن الكريم مؤيداً لرأي سعد وهلال وعدي وعويمر، ونزلت آيات اللّعان التي تستثني الزوج من عقوبة القاذف، واعتبار الزوج معذوراً إذا قذف امرأته بدون بينة أو دليل، وقررت الآية حكماً خاصاً اسمه حكم اللّعان، يتعرض فيه الزوج والزوجة المتهمين إلى تبادل الأيمان ثم التفريق بينهما دون إيقاع عقوبة الزنا أو القذف:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ النور: ٦ – ٧

ويمكن متابعة تفاصيل القصة في سائرالتفاسير في مطلع سورة النور.

إن المشهد في الحقيقة يعكس أفقاً ديمقراطياً حقيقيا كان يصاحب العملية التشريعية ودوراً حقيقياً للإنسان في اقتراح الشريعة، واستجابة حقيقية من الرسول لمطالب الناس حين تعززها الأدلة والوقائع بالبراهين.

المعراج

المعراج والإسراء اسم لواحد من أكثر أيام الإسلام إلهاماً وإشراقاً، وقد أعاد الأدب العالمي رواية الإسراء والمعراج في رسالة الغفران لأبي العلاء 1060 م، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي 1036 م كما أعاد صياغتها في القرن السادس عشر دانتي في الكوميديا الإلهية 1265م وكذلك ملتون 1667 م في الفردوس المفقود.

ولست هنا في معرض الحديث عن المعراج والإسراء في تفاصيل الحدث الكبيرة، وظروف الإكرام التي وافى الله بها نبيه يوم المعراج، كما لا أود الخوض في الجدل حول معجزة الإسراء والمعرج وهل كانت بالروح والجسد كما هو رأي الجمهور أم كانت مجرد رؤيا منام كما نميل إليه، وهو رأي عدد من كبار الصحابة فيهم عائشة زوجة الرسول ومعاوية بن أبي سفيان، وهو جدل لا بد من الإشارة إليه.

وإنما أردت هنا النظر في جانب بالغ الأهمية في قصة المعراج وهو استجابة التشريع للمطلب الديمقراطي وحاجات الناس، وما كان فيها بين رسول الله وبين ربه، وأنا على يقين أن هذا الاستدلال لا يقبله كثير من الأصدقاء، ولعل بعضهم بات ينكر المعراج بالكلية بسبب طبيعة الرواية، ولكنني متمسك بأن الرواية من أروع ما نقلته لنا السيرة النبوية، وهي على أقل الروايات رؤيا حق رآها رسول الله، وهي واحدة من أعظم دروس مشاركة الإنسان في اقتراح الشريعة.

وأود التوقف هنا عند موضوع أجمعت كل كتب الرواية على ذكره في رحلة المعراج وهو موقف الرسول أمام الله والحوار القدسي الخالد الذي نقله الرسول، في محاورة الله حين فرض عليه الصلاة، وقد فرضت خمسين صلاة في اليوم والليلة!!

وفي سياق نص الحديث الشريف فإن النبي الأكرم استشار النبي موسى عليه السلام، وكان رأيه أن أمته لن تطيق ذلك ، ونصحه أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف.

وعاد الرسول الكريم إلى ربه ووقف بثقة أمام الله وقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك!!

يبدو هذا الموقف اعتراضاً مباشراً على حكم مبرم في التشريع يخص العبادات والغيب، سمعه الرسول من ربه مباشرة! ومع ذلك فقد كانت مراجعته لربه صورة إيمان عظيم وثقة وافرة برحمة الله وعدالته.

وبناء على مطالبة الرسول الكريم يخفف الله عن الناس خمس صلوات فتصبح خمسة وأربعين في اليوم والليلة، ولكن الرسول كمحامٍ بارع ماهر شجاع: راح يطالب مرة

أخرى بتخفيض عدد الصلوات، ويقدم حججه وبراهينه بين يدي الله، أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ويتم تخفيفها خمساً وتستمر المطالبة ثم تخفف خمسا فخمساً إلى أن تستقر عند خمس صلوات في اليوم الليلة!

لقد كان المشهد غاية في الإدهاش، فهناك رب يأمر ورسول يتلقى أمره، ومع ذلك فلم يكن الوحي والتلقي ليعني أبداً غياب العقل وعجز المبادرة، وظل الرسول الكريم يمارس حق الإنسان المقدس في التعبير عن الرأي واقتراح ما هو أكثر ملاءمة ومناسبة، وقد اعتبر الله تعالى هذا الجدل من النبي الكريم موقفاً محموداً مشكورا.

وبعد، فما معنى هذا الجدل الديني في أمر جرت أحداثه قبل أربعة عشر قرناً في السماء؟

الواقع أن الموقف النبوي الشجاع يطرح سؤالاً في غاية الأهمية وهو: هل ندرك الأفق الكبير الذي منحه الإسلام للحوار والبرهان، بحيث يتاح لك أن تحاور الله نفسه، وتقدم حجتك ورأيك بالبرهان والتفصيل، بحيث يتم من خلال الحوار تعديل المرسوم الإلهي بما يتفق مع مصالح الإنسان؟

بالتأكيد هو سؤال كبير، ولكننا نضعه اليوم برسم الاستبداد الكهنوتي الذي قام بقمع الفكر الحرّ منذ قرون باسم الربّ، في حين أنه يقرأ علينا في كل يوم سورة الإسراء وفيها خبر النبي الشجاع العظيم الذي تمسك بمعطفه أمام الله وراح يدافع عن رأيه وحجته إلى النهاية!!

بالتأكيد فإن الله لا يجهل الحجج التي ساقها النبي الأكرم وهو أعلم بعباده، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولكنه ببساطة أراد أن يشترك الإنسان في اقتراح الشريعة، وهو بالضبط ما فعله النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، واستجابت له السماء.

مطلوب من المؤمن أن يفكر ويحاور، ولا يوجد في الإسلام تابو في وجه العقل، وليس من الإيمان في شيء أن تسير مغمض العينين، وأن تقفو ما ليس لك به علم، وأن تقول إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، إن سلوكاً كهذا مصادم لإرادة الرسول

الكريم الذي جاء ليخرج الناس من ضباب الخوارق إلى ضياء السنن، وليقول للعالم هذه رسالة العقل والحجة والبرهان.

أياً كان المعراج، رحلة بالروح والجسد، أو رؤيا حق تعلم منه الإنسان، أواستغراقاً في غار تأمل، فإنه في النهاية حوار جرى في السماء من أجل أن تتعلم منه الأرض ثقافة العقل والحجة والبرهان.

الشاهد يرى ما لا يراه الغائب

وحين كان يرسل أصحابه بأوامر واضحة كان يطالبهم بتحمل مسؤولياتهم في كل قرار يتخدونه، وأن مسؤوليتهم لا تسقط لمجرد انهم ينفذون ما يؤمرون به، وكان يعزز فيهم إرادة المبادرة والاجتهاد وتحمل المسؤوليات في صناعة القرار.

ومن المعاني التي نذكرها في هذا السبيل موقف الرسول الكريم من مسالة مابور الخصي،[61] ومابور كان عبداً أهداه المقوقس حاكم مصر إلى الرسول الكريم إلى جانب جارية جميلة هي مارية وإلى جانب طبيب.

كان مابور يخدم النبي الكريم في العوالي، حيث اتخذ سكناً لزوجته الجديدة مارية القبطية، بعيداً عن المدينة، في مزرعة نخل، وفي تلك المزرعة في العوالي رزق الرسول الكريم بولده إبراهيم وسرّ به غاية السرور ورأى فيه استمراراً لنبوته ورسالته وجواباً ساحقاً على المشركين الذين قالوا إن محمد رجل أبتر وإنه ليس له عقب وستنتهي رسالته بموته.

ولكن هذا الأنس بالمولود الجديد والفرح به لم يدم طوبلاً وقد كدَّره حقد مقصود مارسه حاقدون ذوي نفوس مريضة فمضوا يقعون للمرة الثانية في عرض الرسول الكريم وتماماً كما أشاع المنافقون الإفك حول عائشة وصفوان بن المعطل، أشاعوا إفكاً آخر

[61] قصة مابور الخصي وردت في كثير من كتب السنة بروايات متقاربة ، وقد رواها الأمام مسلم، ورواها كثير من المحدثين منهم ابن عبد البر في الاستيعاب وابن حجر في الإصابة وأطنب النووي في تفصيل القصة وسرد رواياتها في شرح صحيح مسلم ج 17 ص 118

حول مارية ومابور، وبعد انتشار الإفك الجديد، يبدو أن مابور لم يكن ليحسن آداب العرب في الحشمة وتجنب مواضع الريب، الأمر الذي عزز حوله الشبهات، ولا ندري تماماً تفاصيل الإفك والجدل المتبادل بين الناس آنذاك، ولكن في النهاية اتخذ الرسول قراره بوضع حد لمشكلة مابور وإخراجه من العوالي، وأرسل علي بن أبي طالب إلى العوالي في هذه المهمة، ولا ندري تماماً ما هي الصيغة التي طلبها الرسول من علي، ولكن من المؤكد أن علياً فهم منها التخلص من مابور بمعنى قتله.

وهنا أجدد شكوكي بالرواية التي أشارت أن النبي أمره بقتل مابور، ذلك أنه يأمره بإقامة الحد في جناية لم تثبت شرعاً بالشهود والبينات وهذا لا يليق بقاضٍ مبتدئ فكيف يصدر من رسول الله، وأمر آخر فإنه ليست عقوبة الزنا لو ثبتت القتل، فالرجل غير محصن، وحتى لو افترض إحصانه فهو عبد عقوبته على النصف من الحر، وفي التنزيل: فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، وهذا يعزز ما قلناه أن الرسول في ساعة غضب وانفعال أمر علياً أن ينهي هذه المشكلة، الأمر الذي فهمه علي أن ينهي حياة الرجل!

وبالفعل ذهب علي إلى العوالي وسيفه في يده، ووجد مابور في المزرعة، وشعر مابور بما يراد وأنكر ارتكابه لأي خطأ أو إثم، وحين رأى سيف علي هرب مسرعاً فطارده علي بسيفه المشرع حتى صعد شجرة يحتمي بها من سيف علي وجعل يقول له إنني بريء وإنني لا أصلح للنساء، وفي النهاية كشف له عن سوأته وتبين أن الرجل مجبوب، أي مخصيّ ولا عضو له.

هنا يغمد علي سيفه ويترك الغلام ويعود إلى النبي الكريم ويقول: يا رسول الله! أحدنا ترسله في أمر، فيبدو له شيء، أفيمضي لا يثنيه شيء ويكون كالسكّة المحمّاة؟ أم إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟؟ [62]

---

[62] حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج 1 ص 83 وشواهده كثيرة وقال الألباني في السلسلة الصحيحة رجاله ثقات وهو إسناد متصل جيد.

لم يقل له الرسول: ويحك أنا رسول الله! ولا أنطق عن هوى! ولا آمر بالباطل! ولم يقل له نفذ ثم اعترض، ولم يقل له إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا....

لقد تأمل في الأمر من جوانبه وقال له بعد نظر: بل إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، والشاهد هنا هو الشخص يؤمر بتنفيذ آية أو حديث، والغائب هنا هو صاحب الرسالة، وبكل شجاعة ومسؤولية يقول: إن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب، وإن مسؤولية الأفراد لا تنتهي عند حدود تنفيذ الأوامر بل إن الإنسان مسؤول عما يعلم، وعليه أن يعيد تقدير الأمور حين تنكشف له حقائق جديدة، وعليه الالتزام بمقاصد النصوص وغاياتها وليس بظواهرها وحروفها.

وفي الحديث تأكيد على أن الرسول الكريم قد يصدر عنه الخطأ فيأمر بالأمر ولكن المكلف بتنفيذ الأمر لا زال شريكاً في المسؤولية، وعليه أن يتبين حالَ المأمور به، ومن واجبه أن يمتنع عن تنفيذ الأوامر إذا رأى أنها تؤدي إلى الظلم والخطأ أو لا تحقق هدف الشريعة.

وهذا الموقف من تعزيز المسؤولية والتوقف عن الاحتجاج بالأوامر والتعلميات العليا هو موقف ديمقراطي مسؤول، لا يشبه في شيء العقل الاتكائي الاتكالي الذي تعودناه كلما تحدثنا عن الامتثال والأدب.

بريدة بن الحصيب

وفي موقف بالغ الوضوح، نهى الرسول الكريم أصحابه أن يحكموا على الناس باسم الربّ، وطالبهم أن يحكموا بحكم مدني بشري، في إشارة واضحة للفصل بين الغيب وبين السياسة.

في حديث بريدة بن الحصيب أن رسول الله أرسله في سرية فقال: وإذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل، إنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا، ولكن أنزلهم على حكم نفسك!.[63]

وفي رواية أخرى: وإذا حاصرت أهل حصنٍ فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله تعالى فلا تنزلهم، فإنكم لا تدرون ما يحكم الله فيهم، ولكن أنزلوهم على حكمكم.[64]

إنه بيان نبوي واضح أنه ليس من حق أي حاكم أن يؤيد حكمه أو قراراته بسلطان الوحي أو الغيب، وأن الحياة تحكم بقوانينها التي أنجزها العقد الاجتماعي، أما الكلام عن الوحي والغيب في تأييد موقف أو تسخيف موقف فقد أنكرها الرسول الكريم بشدة كما ظهر لنا في هذه الأدلة المتعاقبة.

وهكذا فإنه أمره أن ينجز تعاقده مع الناس وفق المصالح المتبادلة، ووفق المصلحة الراجحة بين المسلمين وبين الناس، ونهاه أن يستخدم النص الديني في تقرير الحكم المناسب للحالة، فالسياسة شأنها التفاوض والنظر في المصالح وليس الاحتكام إلى الغيب.

ومن المؤسف أن الحكام في التاريخ الإسلامي لم يلتزموا هذا الهدي النبوي، وظلوا يبحثون عن رجال دين يزينون لهم ما يصنعونه، وظهر مرتزقة ورجال دين كثير، يكتبون للسلطان ما تهواه نفسه، ويتأولون نصوص الغيب على وفق هوى السلطان، أما خصوم السلطان فقد نجح هؤلاء في جعل كل ما ورد في الكافرين والمنافقين والمشركين قد ورد فيهم، وهذا غاية العبث بمقاصد الإسلام، وهو ما عاد بأفدح الأضرار على السياسة والدين جميعاً.

وفي مقابل ذلك، والتزاماً بتوجيه رسول الله ظهرت شخصيات إسلامية تاريخية كبيرة رفضت إقحام الدين في السياسة، واعتبرت أن أي خوض لرجل الدين في الشأن السياسي هو إهانة لمقام الدين وتشويش لمقام السياسة، ولعل من أبرز هؤلاء الرجال الأئمة

---

[63] حديث صحيح رواه الامام مسلم في كتاب الجهاد والسير ج2 برقم 1731

[64] أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، رواه أبو داود عن بريدة بن الحصيب، ج3 ص37

الأربعة المتبوعون الذين يحظون باحترام العالم الإسلامي كله: أبو حنيفة الذي رفض مناصب الدولة العباسية باستمرار وتعرض للسجن مرتين، والامام مالك بن أنس الذي تعرض للاعتقال أيضاً بسبب رفضه مناصب الدولة، وكذلك الشافعي الذي حمل من اليمن إلى بغداد على حمار بلا إكاف نتيجة مخالفته لسياسات العباسيين وكانت قطيعته النهائية مع الجدل السياسي، وأخيراً أحمد بن حنبل الذي تعرض لاشد البلاء في مخالفته للمعتصم والواثق، ودخل السجن وعذب فيه، ورفض أن يزج باسمه في موقف العباسيين من دعم المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وربما يكون من المناسب ان نتعقب روايات بريدة بن الحصيب التي رواها عن رسول الله، فهي طافحة بثقافة الواقع والسلم وحقن الدماء، ومنع استغلال الدين في السياسة، ومن أجمل ما روي عن هذا الصحابي الجليل ما رواه الخليفة عبد الملك بن مروان قال: كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لي يوما يا عبد الملك إن فيك خصالا وإنك لجدير أن تلي أمر هذه الأمة فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله يقول إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دمٍ يريقه من مسلم بغير حق!!.[65]

الدافّة

وقعت في المدينة (دافّة) أي مجاعة اشتد فيها القحط والبلاء، وتلقى الرسول الكريم شكاوى متعددة من الفقراء ومن المسؤولين المحليين في الحرم بشأن قيام الأغنياء بنحر الأضاحي ثم تجفيفها وادّخارها، دون أن يعودوا على الفقراء منها بنصيب، على الرغم من الحاجة المؤكدة للفقراء للطعام.

[65] ابن عبد البر النمري، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج 4 ص 1795

صعد النبي على المنبر وأعلن للناس إن الله ورسوله ينهاكم عن ادخار لحوم الأضاحي، وكان النهي شديداً ومباشراً، وبات تجفيف الأضاحي عملاً محرماً في الإسلام، وأصبح الغني ملزماً عند نحر الأضحية أن يوزعها بين الناس بسبب تحريم الادخار.

بعد عام من تطبيق الحكم ظهرت مشاكل حقيقية في المجتمع، فقد بات أوساط الناس أكثر المتضررين من ذلك، وصار هؤلاء إذا كانت لهم شاة ملزمين أن ينحروها ويوزعوها في الناس بيوم واحد، قبل ان تفسد، نظراً لتحريم الادخار، وعاد ذلك برهق كبير على الطبقة الوسطى في المجتمع، ورفعت للرسول الكريم سلسلة شكاوى ضد الحكم التشريعي السابق.

بعد دراسة وتمحيص صعد النبي الكريم المنبر، ولم يجد حرجاً أن يقول بوضوح إن حقائق جديدة قد ظهرت وبدت للرسول وهي تستلزم تعديل الحكم الشرعي، وقال بكل وضوح: أيها الناس إني كنت قد نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الدافّة، ثم بدا لي أن الناس يتحفون ضيفهم، ويخبئون لغائبهم، فأمسكوا ما شئتم وكلوا وادخروا.[66]

وإلى هذه الغاية الواقعية من التشريع أشار الإمام الشافعي في الرسالة: فإذا دفّت الدافّةُ ثبت النهي عن إمساك لحوم الضحايا بعد ثلاث، وإذا لم تدفّ دافّة فالرخصة ثابتةٌ بالأكل والتزوّد والادّخار والصَّدقة[67]

إن ما نتوهمه اليوم من أن هذه الأحكام تعبدية سماوية سرمدية مطلقة لم يكن له وجود في مجتمع الرسول الأول، حيث كان يقود شعبه وأهله بروح ديمقراطية منفتحة، وكانت الأحكام كلها سواء كانت اجتهاداً أو سنة أو قرآناً مرتبطة بتحقيق مصالح الناس، وكان من الواجب تغير الأحكام بتغير الأزمان، وأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، وأن الغاية أولاً الإنسان، وأن الشريعة في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة الشريعة.

---

[66] حديث صحيح، رواه الامام مسلم عن عائشة، الجامع الصحيح، ج 3 ص 1561
[67] الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، ص 239

النـهي عن النبيذ

وفي موقف آخر في سياق تحريم الخمر نهى رسول الله عن نبيذ الأوعيـة، حيث كـان يتم تخمير العنب فيها، وكان شديداً في نهيه وتحذيراً حتى امتنع الناس عن ذلك زمنـاً، فكـانوا لا ينتبذون في الأوعية، والمراد هنا هنا ترك الشراب في الأوعية حتى يستقر ويطيب.

واحتار الصحابة الكرام في ترك الانتباذ، فهو ضرورة حقيقية لطعامهم وشرابهم، وهو أمر لا بد لهم منه، ومن الواضح أن هذا الأمر قد صدر عن النبـي سداً لذريعة نبذ العنب في الأوعية حتى لا يتحول إلى خمر، ولكن الأمر بهذه الصيغة سبب رهقاً شديداً ومنـع من الاستفادة من كثير من فنون الطهي وحفظ الطعام.

يعود الصحابة غلـى النبـي الكريم فيراجعونـه فـي أمره، ويناقشون فـي جدوى مـا أمرهم ويعددون جوانب الرهق والحرج الذي اصابهم بهذا النهي العام، ويطالبونـه بتغيير الأمر بحيث يختار صيغة أكثر تخصيصـاً لا تعود علـى النـاس بهذا الحرج، وقد اختـاروا لهذه المهمة في المرافعة لتعديل النص التشريعي الصحابي الجليل بريدة بن الحصيب الذي روى طائفة أخرى من الأخبار في تعديل الشريعة وفق مصالح الناس الحقيقية.

وحين تيقن الرسول الكريم من مطالب الجمهور، لم يجد غضاضـة أن يقوم علـى الملأ ويعلن من جديد تغييراً جوهرياً فـي طبيعة الأمر الأول وربطـاً للحكم بعلتـه، وقـال: إنـي كنت نهيتكم عن نبيذ الجر فانتبذوا في كل وعـاء واجتنبـوا كل مسكر[68] وفـي روايـة قـال: كنـت نهيتكم عن الأسقية، فـإن الأوعيـة لا تحـل شـيئا ولا تحرمـه، فانتبـذوا مـا بـدا لكـم، واجتنبوا ما أسكر.

---

[68] حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم وغيره، صحيح مسلم، ج3 رقم الحديث 1585

زيارة القبور

بعث الرسول الكريم في مجتمع وثني، وكانت عبادة الأحجار والقبور شأناً عادياً في ذلك المحتمع، الأمر الذي دفع الرسول الكريم للنهي مباشرة عن زيارة القبور، وكان صارماً في هذه المسالة، وأن الميت لا ينفع ولا يضر ولا يغني عنكم شيئا.

وفي مرحلة من النبوة أمر رسول الله بطمس الصور وهدم عدد من المراقد الخرافية التي كانت العرب تعبدها وتعظمها، واشتهرت سرايا خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبي سفيان لهدم الأصنام في محيط مكة والطائف، في تطبيق صارم لمبدأ سد الذرائع وبات واضحاً أن الإسلام عقيدة توحيد خالص ولن يقبل اي لون من الشرك.

وقد التزم الصحابة بالوصية النبوية زمناً، ولكن الناس عادت تحاور النبي الكريم في المسألة، فالقبور رمز اتصال بالآباء والأمهات والأجداد، وزيارة القبور وفاء وتواصل، والقبور مرفأ الدار الآخرة وذكراها وموعظتها، وعادت المطالبات للنبي الكريم بتغيير هذا الموقف الفقهي والعودة لزيارة القبور.

وبعد طول مراجعات لم يشأ النبي الكريم أن يقول ما نقوله نحن اليوم هذا أمر تعبدي وقد حسم فيه الله، أأنتم أعلم أم الله؟ قل أتعلمون الله بدينكم، إلى آخر النصوص التي نستخدمها عادة في قمع العقل ومنع التفكير...

على العكس من ذلك صعد النبي الكريم منبره بكل شجاعة وقال للناس: إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور... ألا فزوروها فإنها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر الآخرة فزوروا ولا تقولوا هجرا[69]

[69] حديث صحيح، رواه الإمام مسلم في الجامع الصحيح عن بريدة بن الحصيب ج2 ص 673

النهي عن التصاوير

هذا المثال أضربه هنا للتأكيد على أننا لم نبلغ شجاعة النبي الكريم في الاجتهاد وتغير الأحكام بتغير الأزمان.

في إطار حربه على الوثنية الجاهلية، وتقديس التماثيل والصور أعلن الرسول الكريم موقفاً صارماً ضد التصاوير والتماثيل، وقال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون[70]، وقال: من صوّر صورة كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ[71]...

لقد كانت النصوص في تحريم التصاوير شديدة وصارمة، ولم يكن فيها أي استثناء أو قيد، وكانت ضرورة توجيهية في مرحلة محددة لحماية التوحيد.

وجرى المسلمون على الطاعة في هذه المسألة واعتبارها مسألة تعبدية لا تصح مخالفتها، وخلال التاريخ الإسلامي لم يظهر اي رسم للرسول أو أي من أصحابه أو الخلفاء أو العلماء في التاريخ الإسلامي.

ومن المؤسف ان هذا الأمر كان نهج الفقهاء جميعاً، حتى لا تجد رسماً لأي فقيه في التاريخ الإسلامي، على الرغم من عشرات الآلاف من التصاوير التي رسمها فنانون في التاريخ الإسلامي للطبيعة والشجر والحجر، ولكنك لا تجد أثراً لتصوير أي من ذوات الأرواح من إنسان وحيوان التي رأى الفقهاء أنها مشمولة بالوعيد الشديد على لسان رسول الله.

وحتى سنوات قريبة كان كثير من رجال الدين يتحرجون من الصورة بكل اشكالها ويعتبرونها مما طاله نص التحريم، وكانوا يصرحون أن تحريم التصاوير مسالة تعبدية غير معللة، وأن صيغة التحريم الصارمة لا تحتمل أي قيد أن تخصيص!

---

[70] حديث صحيح، رواه البخاري عن ابن مسعود، ج 7 ص167
[71] حديث صحيح ، رواه البخاري عن ابن عباس، ح3 ص82

ولكن المجتمع الإسلامي بدأ يدرك أن التصوير له رسالة نبيلة وشريفة في الحياة وهو عماد أساسي في التعليم والتوثيق والجمال وغير ذلك، وأن الصورة ضرورة لا يستغني عنها مجتمع متحضر، وأننا بتنا في عصر الصورة.

ولا يزال إلى اليوم تيار عريض يفتي بتحريم التماثيل ووجوب تحطيمها لانها مما ورد فيه الوعيد، ولا زالت هذه الفتوى شائعة لدى فقهاء الشريعة، وقد جاءت ممارسات الحركات التكفيرية في السنوات الأخيرة تطبيقاً حرفياً لهذه الفتاوى، وقد كان لهذه الممارسات أبلغ الاثر في تشويه صورة الإسلام في العالم، واعتباره مناهضاً للفنون والمسارح والموسيقا.

من المؤسف أننا تأخرنا كثيراً في منهج الرسول الكريم في العمل بتغير الأحكام بتغير الأزمان، وجمدنا عند النص الأول، ولم نملك الجرأة على التغيير حتى جرفنا الزمن بحكم قوة الحضارة وسلطانها، وقبل عقود قليلة كانت الفتوى لدى معظم الفقهاء بتحريم التصاوير، وكان الجدل على أشده في جواز التعرض لكاميراً يتم بها تصوير الوجوه، أو رسام يرسم الإنسان في أي وجه كان.

واليوم بات التصوير أمراً عادياً في كل المستويات، وأصبح رجال الدين نجوماً في الفضائيات، وباتت مواقعهم وصورهم تملأ وسائل التواصل الاجتماعي، ولم تعد تسمع منكراً للتصوير، وبدا أن الكل باتوا متفقين على تعليل الحكم بعلة القرب من الوثنية وأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

ولا شك عندي أن الرسول الكريم لو امتد به الزمن واطمأن على عقيدة التوحيد لغيّر موقفه بكل تأكيد من مسألة التصوير كما فعل في مسألة القبور ومسألة الدافة.

وفي هذه المسألة بالذات يمكننا القول إن تحريم التصاوير الوارد في السنة المشرفة قد تم نسخه عن طريق الإجماع، حيث لم يعد في الفقهاء المعتبرين منكر للتصوير رسماً أو حبس ظل او فيديو وتداول ذلك على وسائل التواصل بكل أنواعها.

الوصية والميراث

نزل القرآن الكريم بوضوح في مسألة الوصية للوالدين والأقربين:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ البقرة: ١٨٠

ولكن تطبيق ظاهر هذا النص عاد على المجتمع الإسلامي بضرر كبير، حيث يصبح الأب أو الأم دوماً أسير الابن الذي يرعاهما، وبالتالي فإن الوصية ستكون من إعداده وإخراجه، يحابي من يشاء بما يشاء، كما أن الأب نفسه أو الأم قد يقع تحت تأثير الميل لوارث دون وارث فيحجبه من الميراث بالوصية، وقد أدى هذا إلى عبث كبير بالإرث، وانصراف الميراث كله إلى القريب المتنفذ، وحجب باقي الوارثين.

ويلخص ابن عباس الموقف التشريعي الأول بقوله: كان المال للولد والوصية للوالدين[72] وذلك وفق منطوق النص القرآني ومفهومه، ولا شك أن هذه الصيغة البسيطة لا يمكنها الإجابة على كل أسئلة الميراث واحتلاف الأحوال والنزاع بين الوارثين.

بعد سلسلة شكاوى، وعدة مواقف قدم فيها الصحابة أدلتهم على أن الإذن بالإيصاء إلى القرابة يضر بباقي الوارثين.

وعلى الرغم من أن النص وارد بصريح القرآن الكريم، فقد اختار الرسول أن يعلن هذا التعديل التشريعي الدقيق يوم عرفة في خطبة الوداع، بقوله: ألا لا وصية لوارث![73]

ومع أن هذا الموقف الديمقراطي الذي جاء تلبية لمطالب الناس جاء مصادماً بشكل مباشر لنص قرآني متين لا نزال نقرؤه في صلاتنا وعبادتنا في سورة البقرة: كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين، ولكن الرسول الكريم غلّب مصلحة الأمة والجماعة، وأعلن نسخ الحكم الوارد في النص

---

[72] حديث صحيح، رواه البخاري عن ابن عباس، صحيح البخاري، ح 4 ص4

[73] حديث صحيح، وقد أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن عمرو بن خارجة ج29 ص212

القرآني، وترك النص القرآني يتلى في الصلاة تذكيراً للناس بان الإنسان أولاً، وأن الشرائع في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة الشرائع.

القبلة

تعتبر القبلة أرسخ ثوابت الإسلام، فهي حرم الله الشريف، وجهة العبادة، ومقصد التائبين، وبيت إبراهيم وحجر اسماعيل وصلاة النبي محمد.

وقد أمر الرسول الكريم بالتوجه إلى بيت المقدس في أول الإسلام، وكان ذلك لتأكيد الميز بين الإسلام والوثنية التي كانت سائدة في مكة حيث الأصنام والأقسام والأزلام حول الكعبة الشريفة.

التزم الرسول الكريم بهذا الأمر الإلهي، ولكن ظل يعبر عن رأيه وموقفه أمام الله، ويقلب وجهه في السماء يطالب بتعديل القبلة صوب مكة.

وكان استقبال بيت المقدس في الصلاة رسالة وداد عميقة لأهل الكتاب، ليدركوا ما بين الديانات الابراهيمية من تقارب ووصال، وكان هذا الوداد واضحاً منذ بداية عصر الرسالة، خاصة بعد صدود قريش وتكذيبها بالرسالة، وفي هذا السبيل جاءت عدة آيات كريمة تخاطبهم بصيغ محببة يا أهل الكتاب، يا أيها الذين أوتوا الكتاب، فنسبتهم إلى الكتاب المقدس، ونسبتهم إلى الأنبياء المكرمين: يا بني إسرائيل، وتحدثت الآيات على فضل بني إسرائيل على العالمين، ولقد اخترناهم على علم على العالمين، وأني فضلتكم على العالمين، كما أشارت الآيات إلى اختصاصهم بالعلم والمعرفة، ومكانهم الذي بوأهموه الله، وأحالت عليهم بالسؤال في غامض المسائل، فإن كنت في شك مما نزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، ودعت المؤمنين إلى سؤالهم فيما يستشكل من الأمر: فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، واستشهدت الآيات مراراً بأهل العلم

من الكتاب، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم، وضم الله شهادته إليه في صريح القرآن: قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب.
وبذلك فقد بسط القرآن كثيراً من حبال الود مع أهل الكتاب وبشكل خاص مع النصارى وفيهم نزل القرآن الكريم ولتدنهم أربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى.
ولا شك أن أوثق حبال الود التي بسطها إليهم النبي الكريم إنما كانت القبلة، حيث أمر النبي بترك قبلة آبائه وأجداده من بني عبد مناف وهاشم وأمره بالتحول إلى قبلة أهل الكتاب وهي بيت المقدس، وقد استمر الأمر كذلك أكثر من نصف عمر الرسالة.

ولكن اليهود بشكل خاص فهموا الأمر بطريقة خاطئة، وصاروا يتحدثون عن الرسول كمشروع انفصال بائس عن الديانة اليهودية أو المسيحية، وأن الإسلام لا يمتلك استقلالاً كافياً لينهض كدين جديد.

وأشاع اليهود والنصارى أن محمداً مجرد هرطوق مارق، وأن دينه مجرد بدعة نصرانية، ونسجت الأساطير والحكايات عن أثر ورقة بن نوفل في الرسالة وعن أثر الغلام الرومي الحداد الذي كان رسول الله يتردد إليه، وأنه يأتيه بنوادر الكتب الأولى وأساطير الأولين فيكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، وقد أشار القرآن إلى ذلك مراراً: ولقد نعلم إنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين.

وإزاء ذلك كله بدا الصحابة يتساءلون عن جدوى البقاء متوجهين صوب القدس في حين أن مشروعنا وغايتنا هي مكة، وأنها قبلة إبراهيم وهو رمز التوحيد والدين الحنيف.
وقد كانت هذه الأمنية هي منى قلب الرسول الذي كان يقلب وجهه في السماء ولا يكتم شوقة لقبلة جده إبراهيم، وشكوكه المتنامية في شأن الحاجة لمحاملة أهل الكتاب في قبلتهم وهم يزدادون صدوداً وإعراضاً.

بعد سلسلة مطالبات من الناس، وسلسلة ضراعات من الرسول، أنزل الله الآيات الناسخة وهي تتناول هذه المرة واحداً من أسس ركائز الإسلام وهي القبلة الشريفة، وجاءت الآية الكريمة تشير إلى هذه المطالبات: قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها. ثم نزلت في أعقاب ذلك الآيات الكريمة: ومن حيث خرجت فول وجهك صوب المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإنه للحق من ربكم.

في الواقع كان تحوّل القبلة أمنية تمناها رسول الله، وفي الخبر أنه لم يتمالك صبراً حين نزل عليه الأمر فأرسل من فوره من يبلغ الناس بهذا الأمر، وطاف أفراد من أصحابه بمجاميع الناس في حقولهم ومساجدهم وأزقتهم، يخبرونهم بالتحول الجديد، حتى إن قوماً كانوا يصلون في مسجد باطراف المدينة أمروا بتحول القبلة وهم في الصلاة، فتحولوا من قبلة إلى قبلة وسمّي المسجد مسجد القبلتين ولا يزال الى اليوم فيه محراب صوب الشمال وآخر صوب الجنوب، وسمي مسجد القبلتين.

ويدرس المحدثون هذا التحول السريع تحت باب وجوب قبول خبر الآحاد، فقد اندفع الرسول الكريم بسرعة إلى تطبيق القبلة الجديدة، ولم ينتظر أن يتوفر لكل بلد مبلغان أو أكثر ومضى الأفراد الذين حملوا هذا الأمر آحاداً، ومع ذلك فقد ثبت طاعة الجميع لهم لمكان الصدق فيهم وكان ذلك من أوضح الادلة عند علماء مصطلح الحديث على قبول خبر الآحاد.

ولعل حادثة تحويل القبلة كانت من أكثر المسائل التي أثارت خصوم الرسالة وراح اليهود بشكل خاص يستهزؤون بهذه الشريعة المتغيرة، وأن هذا التغير ناشئ عن شكوك الرسول وتردده، ويطرحون الريبة تلو الريبة في رسالته، ولأجل ذلك فإن الآيات التي أمرت بتحول القبلة تتالت وتكررت لمواجهة هذه التهم الباطلة، وإظهار مرونة الشريعة وأولوية الإنسان.

إن القبلة من أعظم شعائر الإسلام، ولكننا نقول بثقة إن الإنسان أعظم، وهي أكثر ثوابت الإسلام رسوخاً وتجذراً ومع ذلك فإن القرآن الكريم يأمر بتحويل هذا الحكم الراسخ

لمصلحة المجتمع على الرغم مما سوف يثيره من عاصفة احتجاج لن تنتهي، وبإمكانك أن تقرأ في سورة البقرة وحدها أكثر من عشرين آية كريمة بدءاً من الآية 100جاءت رداً على المشككين والمعترضين الذين رأوا في تحويل القبلة مساساً بالثوابت، ولعباً بالشريعة وقال اليهود ذلك مباشرة: إن محمداً يتلهى بالناس ويأمرهم اليوم بالقبلة التي ينهاهم عنها غداً فما قيمة دين لم يحسم أمر قبلته؟؟ وعلى هؤلاء نزل رد القرآن الكريم: سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

لقد تعوّد اليهود أن يشيروا إلى الشريعة على أنها نصوص جامدة مطوية محفوظة عند الكهنة والربيين، لا يجوز الاجتهاد فيها، وهي محصنة بغضب الله وبطشه وانتقامه من كل من تسول له نفسه تغيير حرف منها، وهي تعابير لا يزال خطابنا الوعظي يستخدمها بالصيغة إياها وأشد، ولكنني لا اتردد في القول بأن هدي النبي الكريم كان خلاف ذلك، وقد قرر القرىن الكريم بهذا أن الشريعة في خدمة الإنسان وإن الأحكام في الشريعة معللة، وأن القبلة نفسها ليس جهة صماء، بل هي أيضاً مشروع وحدوي ورسالة استقلال، وإن لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، وأن القبلة الحق هي الله لا سواه.

ويبدو سياق هذا الحدث متصلاً بالناسخ والمنسوخ، وأنه شأن غيبي محض، فالوحي هو من أمر بالصلاة صوب القدس وهو من أمر بالصلاة صوب مكة، والواقع أن قراءة عميقة لروايات الحديث المختلفة تجعلنا نوقن بان التحول إلى مكة كان نتيجة مطالب الجمهور الكثيرة وعلى رأسهم الرسول الكريم نفسه.

القتال

قاد رسول الله مشروعه الاجتماعي كما رأينا بطرق سلمية محضة، وقد بينا أنه في محاولاته الخمس لبناء دولته لم يستخدم أي نوع من السلاح ولم يكن في صفوف أصحابه أي مقاتل أو محارب، لقد كانت دعوة سلمية بالمطلق، ونجحت بشكل ديمقراطي تام في الوصول إلى حكم المدينة.

ولكن الأمور اختلفت بعد إعلان قيام الدولة وباتت حماية الناس مسؤولية مباشرة للدولة مهما كانت الشعارات الأولى التي رفعتها الدولة في قيامها، مثل:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ الجاثية: ١٤

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ الأحزاب: ٤٨

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ المزمل: ١٠

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ المائدة: ٢٨

إلى غير ذلك من الآيات الواضحة التي قراها الرسول مراراً في مناسبات كثيرة على مسامع المسلمين والمشركين على السواء، وكلها تكشف عن جوهر السلم في رسالة النبي الكريم، ونبذه للعنف بكل وجه، واهتياره الحوار والدعوة سبيلاً لنشر الرسالة في الأرض.

وكان هذا الواقع حال الرسالة منذ بدء المبعث إلى السنة الرابعة عشرة من عمر الإسلام، حيث نجح رسول الله في تأسيس دولته سلماً في المدينة المنورة، وقد بات الآن مسؤولاً عن حماية الناس وحراسة ثغور البلاد وتأمين جيش وطني مدرب يحمي الأرض ويصون العرض وينتصر للستضعفين.

ولكن النصوص القرآنية السابقة كانت تحمل خطاباً سلمياً محضاً، ولم يكن في عبارتها ولا إشارتها ولا فخواها ما يأذن باي سلوك عنيف، وقد كان ذلك مفهوماً في سسياق الجماعة ولكنه اليوم لم يعد مقبولاً في سياق الدولة، وبدأ الصحابة الكرام يراجعون النبي الكريم في شان القتال، فأموال المسلمين التي نهبت في مكة وتم بيعها تسير بين مكة

والشام في قوافل من المال الحرام عبر شعاب المدينة ومن حقنا أن نحصل على مالنا المسروق، كما أن الصحابة المحجوزين بمكة لا زالوا موثقين في الحديد ينتظرون منا القيام بشيء لتحريرهم، كما أن الأطماع تتزايد في الإغارة على المدينة وهذه التحديات تفرض علينا عملاً حربياً لحماية البلاد والعباد.

كانت هذه المراجعات تتزايد كل يوم والرسول لا يزيد أن يقول لم نؤمر بهذا، وكان لسان حاله يقول إنه خلاف مبادئي ورسالتي التي أعلنت عنها مراراً.

ولكن ازدياد الضغط الشعبي ووضوح الرؤية دفع إلى إعلان تغيير جوهري في الاحكام الشرعية بدأ بنص القرآن الكريم:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ الحج: ٣٩

إن التحول من حكم الموادعة والمسالمة إلى حكم المواجهة والقتال قد تم في الواقع بنص قرآني، ولكن ليس من الخطأ في شيء أن نقول أيضاً إنه قد جاء تحت ضغط شعبي كبير، وجاء استجابة لمصالح حيوية، ولم يكن للدولة أن تستمر وتشتد لولا هذا التغيير الجوهري في الأحكام.

وفي الإشارة إلى هذه المطالب الشعبية جاءت الآية الكريمة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾
البقرة: ٢٤٦

ومثلها قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ النساء: ٧٧

ويدفعني الحديث عن تطور الأوامر بين السلم والحرب، والصفح والقتال إلى التذكير بطبيعة النص القرآني والشريعة عموماً في تحوله وتطوره ومراعاته لأحوال العباد، فقد نزلت الآيات الكريمة في القرآن الكريم تنظم علاقة المسلمين بالناس على مستويات كثيرة رصدتها في دراسة سابقة بسبع عشرة مستوى، ويمكننا ملاحظة ذلك وتتبعه في القرآن الكريم حيث تبدأ من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الجاثية، ومثلها قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ الكافرون، ثم قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ الحج، ثم قوله: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ البقرة، ثم قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ البقرة إلى قوله تعالى: وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.

وهذه المستويات كلها كلام إلهي حكيم، ولكل منها موقعه وزمانه ومكانه، فما نزل في ساعة المواجهة والجهاد من الأمر بالقتال لا يلغي ما نزل في وقت السلم، ولا يلغي ما نزل في حق الجوار والعيش المشترك مع غير المسلم ممن لا يروم سوءاً بالإسلام أهله....

ولعل أقسى ما نواجهه في هذا السبيل هو الفهم الذي ذهبت إليه الحركات التكفيرية اليوم، حيث يعمد هؤلاء إلى إنكار كل آيات التسامح بلا استثناء واعتبارها منسوخة، وذلك وفق كلمة شهيرة مروية عن السلف أن آية السيف نسخت سبعين آية في كتاب الله!.

والحقيقة أن القول بالنسخ عند جمهور الفقهاء يتطلب شروطاً دقيقة، من أهمها أن يتتعذر لجمع بين النصين، وها هنا فالجمع غير متعذر، وإعمال هذه الآيات جميعاً ممكن بلا غضاضة، فلكل نص مكانه ومقامه، وما يخاطب به المحاربون يختلف عما يخاطب به المحاورون، وخطاب السلم غير خطاب الحرب، وإنما يحدد مكان إعمال النص أو إهماله واقع الأمة وحاجتها التي يقدرها أهل البصيرة والوعي والحكمة.

وفي الأحوال جميعها فإن القاعدة الذهبية التي ينبغي أن تحكم توجهنا في مسائل التشريع هي مصلحة الإنسان، التي جاءت الشريعة لتحقيقها، ونص عليها القرآن الكريم بوضوح

بعد ان أشار بوضوح إلى سجود الملائكة جميعاً للإنسان، وتسخيرهم لخدمته ورعاية حاجاته فرداً ومجتمعاً، ونص القرآن الكريم عليها بوضوح:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ الجاثية: ١٣

وهكذا فإن التحول من آيات السلم إلى آيات الحرب، ومن الموادعة إلى العنف هو مصلحة إسلامية قدرها الرسول الكريم في المقام الأول، ومن ثم جاءت النصوص بتقرير ذلك وفق ما هي المصلحة الحقيقية للإنسان.

ومن البدهي أن نقول إن آيات الحرب والسلم ليست هي المخولة بقرار الحرب والسلم اليوم، بل إن هذه المسالة مرتبطة بشكل أساسي بالهيئات العسكرية والأمنية والقرار السيادي للوطن، واختيار الشعب عبر ممثليه ومجالسه وشوراه، وحين تتعين مصلحة الأمة في خوض سلم أو خوض حرب فإن النص القرآني سيكون في مكان إرشاد الأمة وحشد طاقاتها ودفعها للفداء والتضحية.

وتمتاز سيرة النبي الكريم في قضايا الحرب والسلام بتغليب مصلحة الأمة أولاً، فقد خاض الحرب وخاض الموادعة في أول الأمر وفي آخره، ففي حياته الإقدام والثأر يوم بدر وفيه الإحجام والعفو يوم فتح مكة، ومقتضى ذلك أنه لم ير في هذه الآيات ناسخاً ولا منسوخاً، وإنما عمد إلى تطبيق كل نص منها بما يوافق مصلحة الأمة وسلامة البلاد.

تحريم الخمر

كانت الخمر جزءاً لا يتجزأ من حياة العربي، وكانت أفراحه وأسماره ونجواه، وهي مطلع قصائده التي يباهي بها وهي شراب الملوك والسراة.

وقد سماها العربي بأكثر من مائة اسم تغنياً بها وتمجيداً وتحبباً فهي الشراب وهي الكاس وهي المدام وهي السلاف وهي الراح وهي القرقف وهي النبيذ وهي العقار وهي الدن

وهي النشوة وهي الطرب وهي الجعة وهي الفضيخ وهي الطلاء... إلى آخر الأسماء التي لا تنتهي.

وكان تحريم هذا السلوك الطائش يحتاج إلى حكمة كبيرة، وموقف شعبي يؤيد التحريم، ولأجل ذلك فقد نهج الرسول الكريم برنامجاً حكيماً استمر ثلاث عشرة سنة، وهو يتدرج في النهي بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى نجح في تكوين رأي شعبي رافض للخمرة، ونجح في القضاء على الإدمان بشكل شبه كامل في المدينة المنورة.

في البداية ورد الثناء على السكر بوصفه قريناً للرزق الحسن، فقال:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ النحل: ٦٧

ثم توفرت كثرت التساؤلات عن الخمرة سلباً وإيجاباً فاختار موقفاً وسطاً حكيماً فقال:

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ البقرة: ٢١٩

كانت المطالبات الشعبية تزداد باتخاذ موقف حاسم من الخمرة، وكان عمر بن الخطاب يقول اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، وكان هذا أيضاً مطلب كثير من الصحابة.

بعد فترة صلى أحدهم وهو سكران فقرأ قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، فأثار الناس من ورائه حتى انصرفوا من الصلاة فنزلت آية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣

ولكن ظلت المطالبات الشعبية تستمر والناس يتساءلون اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً.

كان الأمر يتطلب حدثاً غير عادي يدفع الناس إلى تغيير موقفهم من الخمر نظراً لتأصل الخمرة في النفوس، وبالفعل فقد وقعت الحادثة المناسبة بعد مبعث الرسول الكريم بستة عشر عاماً ...

فقد حصل في المدينة أن كان حمزة في عنفوان شبابه في مجلس سكره وعنده جارية تغني وتطرب، وقد أخذت الخمرة منه كل مأخذ.

وكان علي بن أبي طالب قد جاء بناقتين شارفتين مهراً لفاطمة، وكانت المدينة تستعد لهذا الحدث الكريم وهو وليمة علي وزواج فاطمة وفرح الرسول، فجعلت الجارية تغني وتغري حمزة بعقر الناقتين، وما هو إلا اندفع حمزة في نشوة سكره وطعن النافتين، وهو مأخوذ بالسكر، وحين أخبر النبي الكريم خرج من المسجد ودخل على حمزة وهو في سكره، فازداد عتواً وهياجاً وقال للرسول الكريم، ومن أنتم؟ هل أنتم إلا عبيد آبائي!! وبالفعل رجع الرسول القهقرى، وعاد إلى المسجد...[74]

أصبح المشهد حديث الناس، وأثارت سلوك حمزة حزن المسلمين وغضبهم، خاصة أنه ارتبط بالإساءة المباشرة الى النبي الكريم.

وازدادت هنا المطالبة الشعبية بصدور حكم واضح في شأن الخمر، وكرر الأصحاب اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، وبالفعل لم يتأخر البيان الحكيم ونزلت الآية بتحريم الخمر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ المائدة: ٩٠

وانتشر الخبر في المدينة، وأقبل الناس على ما ادّخروه من خمر فألقوه، وما في القرب فأهراقوها حتى جرت طرق المدينة بالخمر، وتم بالفعل تحريم الخمر إسلامياً إلى الأبد.

إن ما يتعين إدراكه هنا أن تحريم الخمر بالذات تم باستخدام الآلة الديمقراطية ع طريق حشد التأييد الشعبي لهذا الإجراء، وقد استمر ذلك أكثر من خمسة عشر عاماً نظراً لتأصل الخمر في حياة العرب وصعوبة التحول المباشر، وفي هذا السبيل تتالى نزول آيات التحريم على أربعة مراحل بمعدل تطور واحد كل خمسة أعوام.

لقد حاولت أمم كثيرة تحريم الخمر فلم تنجح، وقناعتي أن أسلوب الرسول الديمقراطي وحكمته العميقة هي التي وفرت الظروف المناسبة لتحريم صارم للخمرة يقطع شرورها إلى الأبد.

[74] القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج 6 ص 287

صدقة النجوى

كان مجلس النبي الكريم متاحاً للجمهور، وكان الرسول في مشهد من التواضع لا يميزه عن سواه، ولكن ازدحام الناس وتوافدهم من الأطراف بات شديداً وغير مقبول، الأمر الذي دفع بالرسول إلى فرض ضريبة على مناجاة الرسول، وقد نزلت في ذلك آية كريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ المجادلة: ١٢

ولكن فرض ضريبة على اللقاء أو صدقة كما في التعبير القرآني، خلق مشكلة اجتماعية أخرى، فما شأن الفقراء بهذا اللون من الصدقات، وكيف يمكن للمرء أن يجد صدقة في كل يوم حتى يلتقي الرسول الكريم.

لقد أثار الأمر جدلاً كبيراً في المدينة، خاصة في أوساط الفقراء وأهل الصفة من الذين اعتادوا لقاء رسول الله كل يوم والاستماع منه وتدوين سنته، وبدا أن ما قصدته الآية من خير قد جاء بضرر آخر يمس الفقراء بشكل خاص، وازداد الجدل في المدينة حول هذه النقطة بالذات، وبدت المطالبة بهذه الضريبة مناقضة لما أعلنه الرسول خلال تاريخه الطويل: قل لا أسألكم عليه أجراً...

لم يكن أمام الرسول إلا الوقوف بشجاعة وإعلان الحاجة للتغيير، وسرعان ما نزل القرآن الكريم بتعديل مباشر ينسخ الحكم الأول ويأمر بهدي جديد:

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ المجادلة: ١٣

لقد كان الاستماع لصوت الناس هو الباعث الأول للنزول أو هو سبب النزول كما يسميه المفسرون، فقد تزايدت المطالبة بضرورة تعديل هذا المطلب، ورفع الناس شكاواهم

بالحاجة إلى التعديل، ولم يتأخر الوحي، فقد نزلت في اليوم التالي الآية الناسخة، التي غيرت هذا الحكم وأعادت فتح باب النبي للناس من دون قيد ولا شرط.
ويذكر المفسرون عادة هذه الآية بانها أسرع ما جاء في الناسخ والمنسوخ، وأنها آية لم يطبقها إلا شخص واحد وهو علي بن أبي طالب.

ميراث الإخاء

كان مما قرره الرسول الكريم في بداية الهجرة الإخاء بين المهاجرين والإنصار، وكان هذا الإخاء عقداً متيناً، عنوانه أخوّة الإسلام، وكان أمتنَ من أخوة النسب والرحم، حتى كان الأخ يرث من أخيه في الله ولا يرث من أخيه وقرابته، وكان هذا السلوك ضرورياً في تلك المرحلة لتأكيد هوية الجماعة المسلمة.
وقد نزل في تأكيد هذا المعنى آية كريمة وهي:

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ النساء: ٣٣
وهي في قراءة عاصم والذين عقدت أيمانكم، والمقصود بأن الأخوة في الإيمان أولى بالميراث من الأخوة بالنسب.
وقد جاءت هذه الآية في سياق الموقف النبيل الذي وقفه الأنصار من إخوانهم المهاجرين الذين فقدوا كل ما يملكونه في مكة حين هاجروا إلى الله ورسوله، وكان هذا الإيثار الكريم صورة وفاء وعطاء لرجال الهجرة والتضحية وعرفاناً بما قدموه في سبيل الله.
ولكن هذا الواقع الذي كان ضرورياً مع الأشهر الأولى لقيام الدولة في المدينة بدا أنه يشوّش على علاقة الرحم والقرابة التي هي أيضاً من أهداف الإسلام وغاياته النبيلة، فحفظ كيان الأسرة هدف إسلامي أصيل، وغاية من غايات الشريعة الخاتمة.
وتكررت المطالبات من الناس بوجوب تقسيم الإرث في القرابة والأرحام، وأن هذا هو جوهر الشريعة ومنطق الأشياء.

وهكذا بعد أن تأكدت الحاجة للعودة إلى نظام الأسرة ووقف الإجراء المؤقت الذي يقضي بالتوارث بين الإخوة في الدين، عاد الرسول الكريم فأعلن للناس أن أولي الأرحام أولى بتقاسم الإرث من سواهم، ونزلت في ذلك آية كريمة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ الأنفال: ٧٥

لا شك ان المتربصين بالرسالة كانوا يغمزون ويلمزون من تطورات كهذه، وكانوا يشيرون على منطق أهل الكتاب أن الشريعة من شأنها الرسوخ والخلود وأن التغيير في نصوص الشريعة دليل على الريبة والتردد فيها، ولكن النبي الكريم وقد جعل الإنسان هدفه وغايته لم يكن ليبالي بنقد عابث كهذا، واختار أن يؤكد مرة أخرى أن الشريعة في خدمة الإنسان وليس الإنسان في خدمة الشريعة.

نكاح المتعة

وربما كان نكاح المتعة واحداً من أكثر الأحكام الشرعية التي تعرضت للجدل في التراث الإسلامي، والتي اضطر فيها النبي الكريم لتعديل الأحكام بما يلائم حاجة الناس وظروفهم، على الرغم من الحساسية البالغة لهذا اللون من النكاح.

ومن المؤكد أنني غير معني هنا بإثبات مشروعية نكاح المتعة ولا إبطاله، ولكنني أتحدث عن السياق التشريعي الذي نهجه الرسول الكريم والراشدون من بعده في تعديل الشرائع بما يناسب حاجة المجتمع ومطالبه.

ويذهب أكثر المفسرين أن المتعة أحلت حرتين وحرمت مرتين، ولا يعرف في الفقه الإسلامي حكم أحل مرتين وحرم مرتين على عهد رسول الله إلا هذا.

والمتعة عقد نكاح مؤقت ينص في عقده على بدئه وانتهائه، ويتم بالتراضي بين رجل وامرأة غير متزوجة، ويتم غالباً بالسر.

قال عبد الله بن مسعود: شكونا العزوبة إلى رسول الله، فأحلت لنا المتعة ثلاثا فقط[75]

وكان عبد الله بن عباس يفتي للناس بالمتعة، ويقول : لقد فعلناها في عهد أمير المتقين، واستقر الأمر عند الرواة أن المتعة أحلت مرتين وحرمت مرتين، وظل أمرها متردداً حتى حزم عمر الأمر في تحريمها، ومنع الذريعة الموصلة إليها وهي حج التمتع.

وروايات إباحة المتعة وتحريمها مشهورة مستفيضة عند الفقهاء، ولن نقوم باستعراضها ولكنها جميعاً تؤكد أن الأمر كان يخضع لطلب المسلمين وإلحاحهم، وقد يبدو الأمر غريباً ولكنه في الواقع تطبيق لما أمر به الرسول الكريم من الرحمة بالمؤمنين والعطف عليهم وابتغاء الخير لهم.

ولكن الجانب الأكثر إثارة في نظري هو موقف عمر بن الخطاب، حيث تطور الأمر بعد النبي الكريم بشكل كارثي، وانتشر نكاح المتعة مرتبطاً بحج المتعة، فقد كان الحج أنسب الأمكنة للقاء الراغبين بالتمتع حيث يتواعد الرجل مع المرأة في مكة قبل الحج فيتمتع بها ثم يتحلل من إحرامه إلى يوم عرفة، فيؤدي المناسك ويعود للتمتع بها قبل ان يفارقها ويعود إلى زوجته الأولى.

كان هذا اللون من التمتع سائداً في أول عهد عمر، وكان الناس يرونه مشروعاً، ونشأت فئة محترفة تقوم بتنظيم هذا الأمر كما تقوم الشركات المتخصصة، حتى كان يقول جابر وإن كنا لنذهب إلى عرفة وإن مذاكيرنا لتقطر من أثر المني!![76]

كان هذا الأمر غير منطقي بالنسبة لمنزلة الحرم الشريف ورسالة مكة في الزهد والعبادة والصفاء، وحين نهاهم عمر عن ذلك كانوا يتذرعون بأنهم فعلوه على عهد رسول الله، ويقولون فعلناه على عهد إمام المتقين، وهو التمتع الذي أذن الله به وشرع له حج التمتع، إلى غير ذلك من المعاذير والتعاليل.

وتصدى عبد الله بن عباس لما أراد عمر وقال: لقد تمتعنا في عهد رسول الله، حتى قال رجل برأيه ما شاء.

---

[75] القاضي ابو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الآثار ج 1 ص152

[76] حديث صحيح رواه البخاري في الجامع الصحيح، ج 9 ص 112

وبدات النفوس تستنكر هذا السلوك، وصاروا يتحدثون بريبة وقلق عن أولئك المحترفين الذين اوشكوا أن يحولوا موسم الحج الطهور إلى موسم تمتع وغزل وغنج ونساء!

في النهاية وقف عمر بن الخطاب مغضباً على منبره، والناس تنتظر منه أن يقول شيئاً فيواجهونه بظاهر النص، ولكن عمر نظر إلى الأمر من مصلحة الأمة الحقيقية التي تتشوه بهذا السلوك، ولم يعد يعنيه في شيء أن يبحث عن دليل أو سند لهذا السلوك أو ضده، بعد أن صارت طهارة البيت ومكانته ورسالته محل جدل عقيم.

وقال عمر بوضوح: متعتان كانتا على عهد رسول الله حلالاً أنا أحرِّمهما وأعاقب عليهما، متعة الحج ومتعة النساء![77]

ومع أن الفقهاء يقولون عادة إن ما أعلنه عمر هو حكم قديم قضى به رسول الله ولكن عبارة عمر تؤكد أنه اجتهاده الخاص، القائم على مبدا تغير الأحكم بتغير الأزمان، وهو ما يعكس حيوية الشريعة وقدرة الأمة على التشريع ابتداء لكل جديد.

من وجهة نظري فإن فقه عمر بن الخطاب في هذه المسالة يعتبر أوضح الأدلة على الطريقة التي كانت فيها الأمة في عصر المجد تنظر إلى النص التشريعي ويؤكد مرة أخرى أن الشريعة جاءت في خدمة الإنسان وليس الإنسان هو من خلق في خدمة الشريعة.

في نزول القرآن على سبعة أحرف

اشتهر هذا الحديث اشتهاراً كبيراً في كتب السنن، وصار أصلاً لعلم شرعي كامل وهو علم القراءات صنفت فيه مئات الكتب وتفرغ لخدمته مئات الألوف، وأعدت في خدمته المسانيد العالية.

---

[77] رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر، وطرقه كثيرة، ج22 ص 365

وفحوى الأمر أن جبريل اقرأ النبي الكريم القرآن على حرف، وبمقتضى ذلك فقد تحددت تماماً اللهجة التي ينبغي ان يقرأ بها القرآن.

ولكن حصرَ القراءة بلهجة واحدة أمر قاسٍ وعسير، وأنتج صعوبات معقدة على مستوى التلقي والأداء، فالعرب تتحدث بلهجات كثيرة، وفيها طمطمانية حمير وكشكشة قيس وسكسكة بكر ورتة العراق وغير ذلك، وفيها تسهيل الهمزات وإطالة المدات، واختلاف الغنات، وإمالة الألفات، وضم الميمات، وهي لهجات كثيرة تشبه ما نراه اليوم من اللهجة المصرية والمغربية واليمنية والعراقية وغير ذلك.

وها هنا يتحدث الرسول الكريم أن ربّه أقرأه القرآن على حرف، ولكنه تقدم أمام الله يطالب بالإذن بالقراءة باللهجات الأخرى تيسيراً للناس، ومع أن الوحي استجاب له فأذن بقراءتين ولكن استمر في مطالباته، وكما هو واضح فإن مطالباته كانت باسم الأمة، وكان يقول كل مرة إن أمتي لا تطيق ذلك، واستمرت هذه المطالبة حتى بلغت الأحرف المأذون بها سبعاً، وفي ذلك قال رسول الله: إن جبريل أقرانـي القرآن على حرف، فقلت أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك فما زال يترخص للأمة حتى أقرأه على سبعة أحرف، وفيها قال الرسول الكريم: إن الله أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ فاقرأوا منه ما استطعتم.[78]

ومع تداخل ما بين القراءات السبع والأحرف السبعة وبعيداً عن الجدل في التمييز بين القراءة والحرف[79]، فإن كتب القراءات كافة تمثل أوضح صورة للاختلاف المأذون فيه، فهي تتصدر عند كل آية بعبارة: واختلفوا.. ثم يذكر الاختلافات التي تبدو في الحقيقة رخصة من الله وإذناً في الاختلاف والتعددية، ولما ثبت ذلك التعدد والتنوع في نص القرآن الكريم نفسه فقد دل ذلك دلالة قطعية على جوازه في أبواب أخرى من الفقه والاجتهاد والتشريع.

---

[78] حديث صحيح، رواه الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب، ج3 ص 122

[79] أورد الزرقاني في مناهل العرفان نحو اثني عشر قولاً للتمييز بين القراءات المتعددة والأحرف السبعة، وأكد أنهما معنيان مختلفان، وذهب عدد من العلماء وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الى القول: إنهما بمعنى واحد، ونميل إلى راي الفراهيدي في هذه الدراسة.

والحق أن المطالبة التي طالب بها رسول الله وإن كانت جدلاً بين الرسول وربه، ولكن الرسول الكريم صرح بوضوح أنه يعبر عن مطالب الناس، (إن أمتي لا تطيق ذلك) ويشرح حاجاتهم، وهي المبررات التي تعددت من أجلها القراءات.

والحق ان هذا الإذن بالتعدد وما فيه من توسعة على الأمة لم يكن ليسهل على الناس فهمه ووعيه بالنظر إلى ما اعتادوه من الهيبة والجلال والقدسية للقرآن الكريم، وفي رواية البخاري ذكر عمر بن الخطاب أنه سمع هشام بن حكيم يقرا القرآن على غير الحرف الذي أقراه رسول الله ، قال: فأغضبني ذلك فلببته بردائه (شددته من ثوبه) وجئت به إلى رسول الله، وقلت إن هذا يقرأ القرآن على غير ما أقرأتنيه! وفي الحديث أن الرسول استمع إلى هشام ثم قال: هكذا أنزلت، ثم أمر عمر أن يقرأ فقرأ بخلافه فقال أيضا: هكذا أنزلت! إن الله أنزل هذا القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف فاقرأوا منه ما استطعتم غير أن لا تخلطوا آية رحمة بآية عذاب أو آية عذاب بآية رحمة.

لقد كان الموقف مدهشاً، ولو كان موقف رسول الله على سياق فهم ربعنا المتشددين لكان المنتظر منه أن يقيم للمخالف محكمة وقضاء وحساباً وعقاباً ويجعله للناس نكالاً! ولكن رسول الله بسط وجهه بابتسامة رضا وتحدث مغتبطاً عن رحمة الله تعالى في تعدد القراءات والتأويلات والاجتهادات.

وعلى هدي من هذه القصة قرر الإمام الجليل الزمخشري وهو أكثر علماء التفسير وعياً باللغة العربية والنص العربي: إن القراءات مدارها على الاجتهاد والنظر وهي تدور مع اختيار الفصحاء والبلغاء.

ويؤلمني القول هنا أن الإذن بالقراءات والأحرف القائم على التسامح والرضا والقبول بالآخر لا يشبه أبداً ما ذهب إليه المنقطعون للإقراء اليوم والذين ينفقون الأعمار في تحصيل الأسانيد والمسانيد، ويقسمون القراءة إلى روايات والروايات إلى طرق، والطرق إلى وجوه، ويتحولون إلى محض ناقلين لاختلاف القراء، ويمنحون كل وجه

وطريق ورواية عصمة النص الأول، دون أدنى وعي بفقه التسامح والرضا والإعذار والتجاوز الذي قصده التنزيل بالأحرف السبعة.

وفي نظري فإن هذا الحديث أصل في بيان اتساع النص القرآني تنزيلاً وتأويلاً، وبيان واضح للأمة في الإذن بالتعدد والاختلاف في التنزيل والتأويل، وهو توجيه مباشر للفقهاء أن يتعلموا ثقافة الإعذار فيما بينهم، وكل ذلك يؤكد الحقيقة التي كتبناها غير مرة، وهي أن الإنسان أولاً، وفي سبيل ذلك جاء التنزيل والتأويل، وفي سبيل ذلك ينبغي أن يكون كل جهد علمي ومعرفي تسابق إليه الأمة والأفراد.

في استعداده للنقد والمساءلة

ولعل من أوضح جوانب الشخصية الديمقراطية للرسول الكريم هو استعداده للنقد والمساءلة، ورحابة صدره في الحوار مع المخالفين، وبالتالي فإن من حق الأمة أن تتناول بالنقد والتحليل كل التراث الإسلامي ولا يوجد أي سبب يمنع من ممارسة النقد الإيجابي البناء لشخصية الرسول الكريم ومواقفه الكريمة في السيرة النبوية.

أيها الناس من كانت له عندي مظلمة ف يمال فهذا مالي ومن كانت له عندي مظلمة في عرض فهذا عرضي ، فإني أحب أ نألقى الله وليس أحد يطلبني بمظلمة في دم أو مال.[80]

وعادة ما يستدعي مثل هذا المطلب غضباً ونزقاً غير معتاد، ويعتبر الآخرون أن الاقتراب من مقام النبوة بأي لون من النقد هو عمل من أعمال الكفر يوجب الردة وإحباط العمل، ويفرز بالتالي اتهاماً مباشراً بتآمر دولي ضد الرسالة والرسول وأنه عمل تخريبي تديره قوى الشر العالمية ضد الإسلام، وهو ما عرفته الشوارع الإسلامية الغاضبة خلال السنوات الأخيرة في رد انفعالي ثائر ضد بعض الممارسات النقدية من صحف ومجلات أوروبية!

---

[80] حديث صحيح أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، ج5 ص 16

في الواقع لا أرى مبرراً لهذا الغضب كله، وأعتقد أن العقل النقدي تجاه صاحب الرسالة هو موقف قرآني مباشر له ألف شاهد في الكتاب والسنة، فالقرآن الكريم لم يشأ أن يكتم تهمة واحدة مما ألقاه المشركون ضد الرسول، فقد ذكر كلامهم فيه أنه ساحر وأنه مجنون وأنه يملي أساطير الأولين وأنه افترى على الله الكذب، وكان بوسع القرآن الكريم أن يسقط كل هذه التهم وأن يصرَح بعد أن انتصر النبي الكريم أن الخلق جميعاً متفقون على نبوته وإمامته وأن لا شيء في الدنيا من إنس أو جن أو حجر أو طير إلا وهو يعلم منازل نبوته، وأن الشجر والحجر كان يسلم عليه وأن الغمام كان يظلله وهي الحكايا التي ما فتئ يرويها كثير من المحدثين والمؤرخين وكتاب السير على الرغم من لا معقوليتها وأدائها السلبي في فهم الرسالة والرسول..

ولكن الرسول الكريم لم يفعل شيئاً من هذا وترك العقل النقدي يمارس سلطته، وكان يجيبهم كلما طلبوا العجائب بقوله: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟

وحين اعترضوا عليه تصريحه بأنه لا يعلم شيئاً من أمر الساعة والقيامة أجابهم بمنتهى التواضع: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل!

وحتى لا نظن أن النقد مارسه خصوم الرسالة وهو أمر طبيعي، ولكن ما نحتاج لإدراكه ببصيرة هو أن هذا النقد أيضاً مارسه المؤمنون بإيجابية عالية، وان مواقف المؤمنين لم تكن دوماً على نسق سمعنا وأطعنا، بل كانت ممارسات ديمقراطية حيوية، وأنها تطورت في كثير من الأحيان لتكون اعتراضاً مباشراً على عدد من المواقف في تاريخ الرسالة.

بل إن القرآن الكريم نفسه أيد هذا النقد الإيجابي، وواجه الرسول الكريم باعتراضات بالغة القسوة، ولا شك أن هذا الموقف القرآني كان ملهماً للناس لحقيقة واضحة وهي انه ليس أحد فوق النقد، وأن قداسة الرسول وطهارته ومنزلته لا تعني أبداً أنه فوق النقد والمساءلة.

ومن هذه المواقف الشديدة ما نزل يوم تزوج الرسول بزينب بنت جحش، فقد كانت زينب عند زيد بن حارثة، وكانت فائقة الجمال وكان زيد مولى، قد تبناه الرسول أذ

أهدته له خديجة، لا نسب له ولا مال ولا جمال، وكانت زينب دائمة الشكوى من زواجها البائس، وكان الرسول الكريم يجد في نفسه الرغبة بزواجها لو طلقها زيد، مع أنه كان ينصحهما بالاستمرار، ولكن في النهاية وقع الطلاق، وبالفعل تزوج الرسول زينب، وشاع الخبر في الناس، وستهجن الناس ما حصل، أن محمداً تزوج امراة متبنّاه! وفي شرح هذا الموقف نزلت آية شديدة: وإذ تقول للذي انعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه!
كانت عائشة تقول: لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية!
وفي موضع آخر كان رؤساء قريش يطلبون باستمرار تعديلات في الشريعة ليتقبلوها، وكانت هذه التعديلات تمسّ مبادئ الرسالة وبشكل خاص المساواة، كما كان أهل الكتاب يطلبون منه تعديلات تمس استقلال الرسالة وتوجب انتماءها لهم، ونتيجة الضغوط الشديدة يبدو أن الرسول الكريم قد همّ بالاستجابة لمطالبهم من أجل مصلحة الدعوة، وقد كان ذلك مثار غضب شديد من بعض الصحابة الذين رفضوا إعطاء الدنية في الدين، ومن أشهرهم عمر بن الخطاب الذي قال مراراً: علام نعطي الدنية في ديننا؟!
وقد نزل الوحي مؤيداً لهذا الغضب الشعبي:

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ الإسراء: ٧٣ - ٧٥

وفي موقف آخر أشد صرامة وقسوة جاءت الآية:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٧

وفي السياق نفسه نزلت سورة الأعمى وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وفيها أن عبد الله بن أم مكتوم وكان رجلاً أعمى جاء إلى النبي الكريم يطلب أن يعلمه الإسلام وكان حول الرسول الكريم عدد من سراة قريش وسادتها، فكأنه كره أن يلتفت عنهم إليه، فعبس

وتولى، وعلى الرغم من الهدف الواقعي للأمر ولكنه بدا انتهاكاً لقيم الرسالة الخالدة في المساواة بين الناس ورعاية ذوي الهمم، ونزلت سورة الأعمى: عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذّكر فتنفعه الذكرى...!

وفي مثال آخر رويناه من قبل وهو مكر طعمة بن أبيرق الذي حاول تضليل العدالة في مسألة السرقة من اليهودي زيد بن السمين، وقد هم الرسول أن يقضي له على اليهودي، دون استيفاء أدلة كافية، في انحياز للمسلم ضد اليهودي على حساب العدالة، فنزلت الآيات صريحة وشديدة وقد بيناها لدى الحديث عن دستور المدينة، وفي الموقف نفسه نزلت الآية: ولولا فضل الله ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء.

وفي مثال آخر من داخل بيت النبي الكريم، نزلت فيه سورة التحريم، فقد وقع نزاع بين زوجات الرسول، تطور إلى تدخل مباشر من الرسول، ويبدو ان الأمر بلغ حداً من الاستفزاز بين اثنتين من زوجاته حتى أقسم النبي أن لا يقرب نساءه أبداً، وتدخل عدد من الصحابة في الأمر، وقال لهن عمر غاضباً عسى ربه إن طلقكن أن يبجله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً، وكانت المفاجأة أن الوحي نزل تماماً على وفق كلام عمر، وهذه من أوضح موافقاته، وفي النهاية نزل القرآن يعتب على الرسول الكريم موقفه هذا، وأن فيه ظلماً للنسوة الأخريات اللاتي لا صلة لهن بالنزاع، ونزلت سورة كاملة في العتاب اسمها سورة التحريم: يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم، ومع أن الرسول قد حلف يميناً صارمة على ذلك ولكن الآيات بينت سبيلاً للتخلص من اليمين: قد فرض الله لكم تحِلّة أيمانكم والله عليم حكيم.

ولو شئت لاستعرضت مئات الآيات والاحاديث التي تشير إلى أن الرسول الكريم لم يكن خارج دائرة النقد وأن القرآن واجهه بهذه الحقائق مراراً وأن الصحابة أنفسهم واجهوه بها، وفي دلالة قريبة فإن عمربن الخطاب على سبيل المثال أطلق موقفاً نقدياً شديداً في

مواجهة الرسول سبعَ عشرة مرة مخالفاً لرأيه، ومن العجيب أن الوحي في كل منها كان يأتي على وفق رأي عمر! بخلاف رأي الرسول، وكان الرسول الكريم نفسه يتعجب من ذلك! وفي احدى هذه الموافقات قال له الرسول الكريم لو نزل عذاب من السماء لما نجا منا أحد إلا أنت يا عمر....

وقد اشتهرت هذه المسائل بين المحدثين تحت عنوان موافقات عمر، وعادة ما يذكرها المحدثون بصيغة فائقة الإطراء وتمت روايتها عن عمر بصيغة: وافقت ربي في بضع عشرة مسالة بدلاً من السياق الطبيعي وافقني ربي، وذلك موقف أدب محمود، لا يغير من حقيقة أن الموقف النقدي لعمر كان سبباً مباشراً في تعديل نص الوحي، أو في تراجع النبي الكريم عن موقفه التشريعي.

لا أرغب المضي للآخر في هذه الروايات التاريخية ولكن أؤكد مرة أخرى أن النقد حتى في شخص النبوة كان مادة متاحة للناس وأنهم مارسوه بحرية وشجاعة قبل أن يتحول الفقهاء فيما بعد إلى موقف استبدادي يجعل أي نقد للرسول مدخلاً للردة الموجبة للقتل وهذا لعمري هو أخطر تشويه للدين والرسالة والرسول.

وفي مرحلة تالية ألقيت هذه القداسة على الصحابة ثم على التابعين ثم على شيوخ الدين، وبات من الشائع أن يقال في حلقات الصوفية: لا تعترض فتنطرد! وخطا الشيخ خير من صواب المريد! ومن قال لشيخه لمه؟ لا يفلح! وغير ذلك من الخيارات الإلغائية لدور العقل والحوار، وهو منطق مرفوض تماماً في منطق النبي الديمقراطي، ويتعين بدلاً من ذلك إحياء الروح النقدية الإيجابية حتى في إطار معرفة الرسول نفسه.

قناعتي أن جيل الإسلام الأول مارس بشجاعة وصرامة هذا النقد المباشر، واختبر ببصيرة ووعي قرارات الرسول الكريم، ومراراً وقف عمر بن الخطاب في اعتراض شديد يقول: ألستَ رسول الله؟؟ ألسنا بالمؤمنين؟؟ أليسوا بالكافرين؟؟ علام نعطي الدنية في ديننا؟؟

لا توجد أي رواية تزعم أن الرسول عاقب عمراً على مواقفه تلك، ولا توجد أي رواية تزعم أن الرسول الكريم أسرَّها في نفسه ولم يبدها لهم وأنه انتظر لحظة مناسبة ليبطش بهذه الانفعالات الغاضبة التي لا تعرف قدر النبوة ولا تقدرها قدرها، لقد تعامل معها كسلوك نقدي صحيح يمارسه أتباع عاقلون ببصيرة ويقين.

وفي يوم الحديبية شارك مئات الصحابة في موقف احتجاجي صريح على إبرام صلح الحديبية ورفضوا تنفيذ الأوامر، وحين أمرهم الرسول بالحلق والتحلل والقفول إلى المدينة لم يطعه أحد!! وفتحت حوارات متوالية لرفض قرار النبوة في الصلح، ودخل الرسول حزيناً على أم سلمة يشتكي أن الناس لم يستجيبوا لأمره، ولكن السيدة الصالحة أم سلمة ذكرته بأن عليه أن يتوقع مثل ذلك من الناس فهم لم يعودوا قطيعاً يمضي في تنفيذ الأمر بلا بصيرة، لقد أصبحوا أحراراً ومن مسؤولية القائد أن يقدم لهم تفسيراً يقنعهم عند اتخاذ أي قرار.

وفي يوم الجعرانة اختار الأنصار موقفاً نقدياً شديداً من أسلوب الرسول الكريم في توزيع الغنائم الجعرانة ورفضوا قراره التاريخي تحرير 6500 سبية وقعت في يديه وردهم إلى ثقيف بلا مقابل، فقد كانت هذه السبايا أكبر مغنم مادي في تاريخ الرسالة على الإطلاق ولم يكن العقل الجمعي ليستنكر السبي آنذاك، ورأوا في موقفه هذا تفريطاً لمغانم هائلة، لأسباب غير مفهومة.

ويجب التذكير بأن الاعتراض هنا مارسه في الأصل الأعراب والطلقاء الذين خرجوا ابتغاء المغنم، ولكنه في النهاية امتد أيضاً ليشمل الأنصار الذي عرفوا بوفائهم ومحبتهم لرسول الله حيث اعترضوا أشد الاعتراض على قيام الرسول بتوزيع الغنائم في سراة الأعراب والطلقاء وزعماء القبائل، وأرسلوا وافدهم إلى الرسول الكريم سعد بن عبادة يناقشه في أمر قسمة الغنائم ويؤكد رفض الأنصار لهذه الطريقة في قسمة الغنائم.

وهذه المواقف مفصلة في القرآن في سورتي الفتح والأحزاب، تشير إلى حجم الاعتراض الذي مارسه صحابة كبار في مواجهة الرسول.

لا يوجد أي رواية في التاريخ الإسلامي ولا في السيرة النبوية تشير إلى أن النبي الكريم أغضبه هذا الموقف النقدي أو أنه توعد المعترضين بالويل والثبور وعظائم الأمور، لقد كان يخاطبهم بوداعة معترفاً بحقهم في النقد ويقدم وجهة نظره فيما كان يتخذه من قرارات.

وقد روينا هذه الحادثة الجميلة حول يوم حنين بسياقها الموحي بكل ما فيه من صفاء ونبل، ونقد وحوار، في الفصل الخاص بالحريات الإنسانية.

وفي مواقف متعددة أعلن للناس أنه يتراجع عن كثير من الآراء التي اختارها بعد أن تبين له أن الصواب كان في غيرها، وقد روينا هنا أكثر من ثلاثين موقفاً تراجع فيها عن اختياره تحت ضغط الموقف النقدي الذي مارسه الصحابة، وقد ذكرنا عدداً منها بالتفصيل في الصفحات السابقة.

وفي موقف أشد وضوحاً فقد كان يقسم على الشيء ثم يتراجع عنه حين يبدو عواره، والصادق لا يقسم إلا فيما هو يقين، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى في هذه الدراسة.

إن عملية النقد لشخص الرسول قد تمت تاريخياً ابتداء من عصر تنزل النص القرآني، ولا ينبغي أن يزعجنا استمرار هذه العملية النقدية طالما أنها مؤسسة على العلم الموضوعي واحترام حقائق التاريخ.

ولكن هذا النقد المتتالي عزز حقائق مهمة لا يمكن الشك فيها وهي أن هذا الرسول كان بالفعل أروع نموذج للإنسان المؤمن بالإنسانية والمؤمن بالسلم والمؤمن بمكارم الأخلاق، ولعله الرجل الوحيد في التاريخ الذي جميع بين النبوة والدولة ونجح فيهما معاً وأسس عالماً من المشاعر الطاهرة والسلوكيات الرائدة التي يتوق إليها العقل والقلب وتلتمس روحانيتها وصفاءها القلوب حين تبحث عن الطهر والبراءة والاستقامة.

إن هذه الحقائق تدل لها كل فصول السيرة الكريمة لرسول الله، ولا يندُّ عنها إلا بعض روايات شاذة يجب مواجهتها بشجاعة ونحن نكتب فيها كل يوم وأشير إلى أهمها قصة العرنيين وروايات بني قريظة وهي روايات ساقطة بهرمونوطيقا العقل والرواية، على

الرغم من ورودها في كتب تسمى بالصحاح، ولا يجد العقل الموضوعي أي حرج بالحكم بشذوذها روائياً وسقوطها تاريخياً.

إن روايتي قتل العرنيين بشكل قاس، ورواية قتل كل من بلغ سن الحلم من بني قريظة وسبي كل نسائهم بجريرة خيانة بعض أفراد القبيلة روايات مرفوضة تماماً، ويمكن للعقل أن يرفض ذلك مطمئناً استناداً إلى علم التاريخ النقدي الذي يشترط في الأحداث التاريخية العقلانية، ويفترض السيناريو المحتمل بقوة الشواهد المحيطة، بحيث يمكننا أن نميز ما يصدق وما لا يصدق من هذ التراث التاريخي.

لو أن باحثاً أعلن اليوم انه عثر على نص لغاندي يتحدث فيه عن سلسلة أعمال انتحارية أمر بها غاندي للخلاص من خصومه، فإن تصوراً كهذا لا يمكن أن يحظى باي قبول، فالرجل له تاريخ طويل في اللاعنف وله مدرسة وفلسفة كاملة في ذلك، وحين يروى في حياته الصاخبة ألف موقف في اللاعنف فإنه لا يمكن أن يواجه نص العنف المزعوم إلا بالريبة والرفض والنقد، كما أن الحصول على وثيقة تفيد أن هتلر كان يمارس الوداعة والرقة مع اليهود وانه أنقذ بنفسه عدداً منهم وآواهم في بيته، وكان يذرف الدموع تعاطفاً معهم لن يلقى أي سبب للتصديق من المؤرخين، فهذا الرجل النازي له تاريخ وفلسفة دموية ولا يمكن أن يكون في سياقه مكان لهذا الوهم.

ولو عثرنا اليوم على نص لمؤرخ روماني يتحدث أن المسيح ترأس عصابة ثأر وانتقام تتربص بعتاولة الرومان وتسمل عيونهم وتصلم آذانهم فإن رواية كهذه لن يصدقها المؤرخ العاقل لسبب بسيط وهو الروايات المتضافرة التي تؤكد موقف المسيح السلمي ورفضه للحرب والثأر والانتقام، وسيحكم على الرواية بالريبة مباشرة في مواجهة تاريخ طويل مستقر من الرحمة والحب والسلام.

إنني ارفض دون تردد روايات المجزرة الجماعية لبني قريظة، وقتل 900 إنسان ودفنهم في مقبرة جماعية انتقاماً من بعض الخونة، وأشكك في كل ما روي فيها مما جاء

مناقضاً لمبادئ الرسول المستقرة لا تزر وازرة وزر أخرى، لا يؤاخذ امرؤ بجريرة غيره، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.

إن ممارسة مراجعة نقدية للسيرة النبوية هو أمر محمود، سواء لما ثبت بالإسناد أو ما لم يثبت، وهو يستقيم مع وصايا الرسول الكريم ولا يتعارض مع القداسة والاحترام والإجلال الذي نقدمه لرسول الله محبة واحتراماً واتباعاً، ومن العار أن يقوم الرواة برواية أحاديث كهذه بدراسة أسانيدها دون اهتمام بدراسة المتن الذي يوجب دون تردد رفضاً قاطعاً لهذه المرويات.

بالمناسبة فإن الروايات في بني قريظة متناقضة ومتضاربة ويتراوح عدد القتلى بين ما رواه ابن زنجويه في كتاب الأموال أنهم كانوا بضعة وثلاثين رجلاً وبين ما رواه ابن هشام أنهم كانوا تسعمائة رجل، ولكن كتب التاريخ كافة لم تفلح في العثور على أكثر من ستة أسماء من المقتولين، وهم الذين تواطأوا مع قريش وقرروا الغدر بالنبي وبالمدينة.

وبعد فإن النبي الكريم كان رجل كفاح وزند، وفي تاريخه كما في تاريخ كل العظماء انتصار وانكسار، وفوز وخسارة، وصواب وخطأ، وفرح وندم، وكان صريحاً للغاية في وصف واقعه البشري الضعيف، ومحدودية معرفته وعلمه، وحين أكثروا عليه في السؤال عن الساعة لم يأتهم بعجائب الغيب ولم يروِ لهم أشراطها الكبرى والوسطى والصغرى على نسق ما نتبرع بروايته باسمه ودون علمه، بل قال بوضوح ويقين:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ الأعراف: ١٨٧

ويبدو أن هذا التصريح القاطع لم يعجب الناس ولم يصدقوا أن الرجل الذي جاء نبياً خاتماً لا يعرف الغيب ولا يستطيع ان يرسم المستقبل، ولا يستطيع ان يضنع الخوارق، فزادهم توضيحاً بمكانه البشري في الآية التالية مباشرة:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ الأعراف: ١٨٨

إن وقوفنا أمام معالم بشريته لن ينقص من حبنا واحترامنا لمقامه المعصوم، بل إنه سيعزز الاحترام لعطائه ورسالته، فهو بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وما كان من قبله من المرسلين إلا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله عليهم من السماء ملكاً رسولاً.

إنها ليست قراءة علمانية لحقائق الغيب، ولكنها نصوص الكتاب العزيز نقدمها كما رواها صاحب التنزيل، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى، وهي نصوص أشارت في 118 موضعاً إلى كونه بشراً يكافح على الأرض من أجل بناء الإنسان والحياة.

وفي كفاحه على الأرض كان يواجه قومَه بحوار العقل، ولكنهم كانوا يطالبونه بالمعجزات، على ما هي عادة الشعوب الواهنة حين تبعث فيهم الأنبياء، ولكن سياق رسالته كان يتأبى على منطق الخوارق، فقد كان الرجل صاحب زند وجد، وكفاح وجراح، وكان يؤذن في البشرية بعصر جديد يحكم فيه العقل وتنسحب الخوارق.

قالوا له اخرق لنا الجبال وافتق لنا الأرض، فقال لهم وقل اعملوا فسيرى الله عملكم، ومراراً كانوا يسألونه الخوارق، ويذكرونه بمواهب الأنبياء من قبله في هذا السبيل، ويسألونه: أنت نبي؟ لم لم تؤيدك السماء بمثل طوفان نوح ونار الخليل؟ أين هي عصا موسى منك؟ وأين هي كف المسيح؟ ولن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء علينا كمما زعمت كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه... إلى آخر القائمة الطويلة من المطالب والتحدي.......

ولكن جوابه لم يكن يزيد عن كلمة واحدة: قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً!!

كانوا يسألونه بكل صيغ التحدي ويطلبون منه آية من تلك التي أخبر بها عن تاريخ الأنبياء، كان الجواب صارماً: قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به!! ولو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم.

وحين كانت طبيعته البشرية تتألم للابتزاز كان يبسط يديه للسماء رجاء أن تأتيه عجائب الأنبياء من قبله، ولكن كانت السماء تضنّ عليه بذلك وتأمره مرة أخرى باستئناف الكفاح البشري،

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأنعام: ٣٧

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ العنكبوت: ٥٠

إن الإيمان الذي يأتي بالخوارق يرحل برحيلها، ولا معنى لرسالة جاءت لإنقاذ البشرية أن تعتمد في براهينها على المخاريق والعجائب.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ الأنعام: ١٠٩

وحين استيئس ذات يوم وأعرب بجرأة عن قناعته بضرورة مجيء المعجزات في كفاحه، على سنن من قبله من الأنبياء جاء القرآن بجواب غير متوقع ولا مألوف يتضمن تأنيباً شديداً:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الأنعام: ٣٥ – ٣٦

إنها باختصار رسالة العقل، وهي آتية على غير نسق الأنبياء في الخوارق والعجائب، تحمل الناس إلى عصر المعرفة والعلم والنور.

هكذا اختار له الله مكانه بين الأنبياء ينطلق في خدمة العالم، يقرأ أسرار الكون ويبني على سنن الآفاق والأنفس، عماد رسالته العقل والبرهان، يلهب زفيره كفاح الأحرار، ويوري بزنده نار الفداء.

إنها محاولة لقراءة الرسول الكريم رجل كفاح ديمقراطي، آمن بالعدالة وكفر بالاستبداد، وعمل للحرية وقارع الظلم، وأنجز المساواة في ظروف المجتمع الجاهلي، وعمل بإخلاص وكفاءة لبناء مجتمع العدالة والتنمية في الأرض.
إنه النبي الذي أعلن ختم النبوات، ونهاية الاتكاء على السماء في بناء الأرض، إنه نهاية ضباب الخوارق وبدء عصر السنن، نهاية عصر الغيب وبداية عصر الشهادة، نهاية عصر الخرافة وبدء عصر العقل، نهاية الاستبداد وبداية الديمقراطية.

وفي ختام هذا الفصل أسمح لنفسي برواية هذه القصيدة الموحية التي نظمتها في سياق ديمقراطية الرسول واستعداده للمساءلة والمحاسبة، واعتبار ذلك موقفاً دينياً مسؤولاً وليس مجرد ممارسة ديمقراطية، حيث أعلن الرسول مخاوفه من الأجل ودعا الصحابة جميعاً لمساءلته ومحاسبته في عبارته الشهيرة: أيها الناس.. إني بشر مثلكم، وقد حضر ما ترون وأحب أن ألقى الله وليس علي مظلمة في عرض أو مال، فمن كنت قد ظلمته في ماله فهذا مالي ومن كنت ظلمته في عرضه فهذا عرضي، ومن كنت قد ظلمته في جسده فانا أقيده من نفسي، أي أدعوه للقصاص... وهناك كانت هذه الوقفة الرائعة أرجو أن تتمتعوا بقراءتها وتدبرها:

روى أبو داودَ والنسائي	**في سنن الرشادِ والوفاءِ**
في ذكرِ بدرٍ غزوةِ الفرقانِ	**لما تلاقى عندها الجمعانِ**
وحينَ طوقتهمُ الجيوشُ	**وطاف في ذكراهم النعوشُ**
جمعهم معلماً رؤوفا	**وصفّهم مِنْ حولهِ صُفوفاً**
وقالَ يا معاشِرَ الرجالِ	**الله ربي عالمٌ بحالي**
من كنت قد ظلمته في مالي	**فإنني أبيحهُ أموالي**
أو كنتُ قد ظلمته في عِرضهِ	**لن أبرح المكان ما لم أَرضهِ**
أو كنتُ قد ظلمته في البدنِ	**فإنني رهنٌ له في بدني**

وخفقتْ في حبِّهِ الشجونُ ... ودمعتْ من شوقهِ العيونُ

محمدٌ يدعو إلى القصاصِ ... من نفسهِ جهراً بلا مناصِ

فأينا يطيب نفساً فيهِ ... يقتص بالنبي أو يؤذيهِ

يقسمُ باللهِ عليهم جاهدا ... ينظُر فيهم واحداً فواحدا

حتى بدا شيخ عظيمُ اللحية ... واسمه سوادُ بن غزية

وقيل بل عكاشةَ بن محصنِ ... أنعِمْ بكلِّ منهما من محسنِ

وقال مهلاً إنني مظلومُ ... ظلمتني وإنني مكلومُ

لما غدوتَ تذكر الحتوفا ... تصفنا عند الوغى صفوفا

ضربتني في القومِ عمداً بالعصا ... وكنتُ فيمن طاعَ لا فيمن عصا

فأعطني من نفسكَ القصاصا ... يا مَنْ تعلِّمُ الورى الإخلاصا

فنزل النبي عن جوادِهِ ... سبحانَ من أنصفَ في عبادِهِ

ودفعَ العصا لما يرادُ ... وقال قُمْ فاقتصَّ يا سوادُ

وأخذَ الشيخُ العصا وقالا ... في مشهدٍ يستنطقُ الأهوالا

ضربتني بها وإني حاسرُ ... فاكشِفْ لكي أقتصَّ إني ناطرُ

ورفعَ النبيُّ مِنْ ثيابِهِ ... قد كانَ حقاً وأنا أولى بِهِ

وكشف النبي منه صدرا ... وكلّهم يشتاقُ ذاكَ الصدرا

وصرخَ الأصحابُ يا للهولِ ... الأمرُ جِدٌّ ليس محضُ قولِ

وعندما تأكد القصاصُ ... ولم يكن من أمرهِ مناصُ

رمى العصا وعانق الرسولا ... والقومُ يرقبونَهُ ذَهولا

وقبّل النبيَّ في إشفاقِ ... مواصلَ البكاءِ بالعناقِ

وذرفــــتْ مــــن عينـــــهِ الـــدموعُ	واختلطـــتْ فـــي حبـــهِ الضـــلوعُ
ومســـحَ الصـــدرَ الشـــريفَ دمعـــاً	لبيـــــكَ حقـــاً طاعــــةً وســـــمعاً
وقــــالَ مـــا شــــأنكَ يـــا ســـوادُ	قـــد حــــارَ فــــي قِصاصــكَ العبـــادُ
فقـــال مهـــلاً يـــا معلـــم الـــورى	دعوتَنـــا وحضـــرَ الـــذي تـــرى
رجـــوتُ بـــين كســـلي وجـــدِكْ	يمـــسُّ جلـــدي رغبـــاً بجلـــدِكْ
مـــن دفئـــهِ ألـــتمسُ الوداعَـــا	فـــالآنَ يـــا دنيـــا ألا وداعـــا
الحـــبُّ لا يحلـــو بـــلا جنـــونِ	ولـــيسَ يكفـــي نظـــرُ العيـــونِ
أردتـــــهُ العنـــــاقَ والتقبـــــيلا	وشـــــيّعوني بعـــــدها قتـــــيلا

في يوم الرحيل

لقد كان موقفه عند الرحيل كموقفه عند الوصول ديمقراطياً حكيماً، فلم يدخل المدينة إلا ببيعة الأغلبية، وحين رحل لم يشأ أن يصادر الأغلبية في شخصه وترك الأمة شورى في الأمة تختار من تشاء لمستقبلها وهو أدق فصول الديمقراطية والشورى.

وقد أثار موقفه في الرحيل نفس الغرابة التي أثارها موقفه في الوصول، فقد كانوا يتساءلون لم لم تحمله أجنحة الملائكة وهو رسول الله، وتساءلوا لم لمْ يسمّ لهم من يخلفهم من بعده ويحسم الجدل الطويل؟

أما وصوله فقد كان تكريساً للكفاح البشري، وتأكيداً على دور الإنسان في القيام بأمره، وأما رحيله فقد كان تكريساً لقيم الديمقراطية في الاختيار والشورى.

ومراراً عمد بعض الصحابة للسؤال المباشر عن اسم الخليفة المحتمل بعد الرسول ولكنهم لم يحظوا من الرسول ببيان شاف، وقد أفاض في الثناء على عدد من أصحابه بما هم فيه من خير، فاشار إلى أبي ذر ما اظلت السماء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من

أبي ذر، وأشار إلى عمر لو كان بعدي نبي لكان عمر، وأشار إلى علي من كنت مولاه فعلي مولاه وقال أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأقضاهم علي، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة، ولكن هذه النصوص جميعاً لا تنتج خليفة متفقاً عليه، فالمزية لا تقتضي الأفضلية، وهو من أراد ذلك، وكأنه يقول للأمة اختاروا لأنفسكم وانزعوا شوككم بأظافركم، وتحملوا مسؤولياتكم وأقداركم.

قال لي أحد أصدقائي من أهل الظاهر: أنا لا أصدق أن الرسول يتركنا بدون تسمية خليفة.. لو كان عندك دجاج أو ابقار أو أموال لكان من العقل أن توصي من بعدك من يلي أمرها، فكيف ترك رسول الله بيان ذلك؟

قلت لمحاوري: إن رسول الله لم يخلف وراءه دجاجاً ولا غنماً، وإنما خلف أمة يراد منها أن تكتب تاريخ العالم، والأمة التي تعجز عن اختيار قيادة لها بالشورى والديمقراطية هي أعجز من أن تكون صاحبة راي أو قرار في قيام أي نهضة!!

ولا شك أن الجدل حول مسالة الخلافة يلتهب منذ أربعة عشر قرناً دون توقف، ومن الطبيعي أن يتم التساؤل لم لم يحسم لهم ويدفع عنا غائلة الانشقاق والقطيعة التي لا تنتهي، والجواب أن اختياره لخلفه ليس إلا تأجيلاً للخصام، فقد يتم الالتزام بالخلف ولكن الكارثة ستتكرر مرة اخرى بعد رحيله، إن الخلاف هنا ليس حضور النص أو غيابه بل هو في الواقع النزاع المستمر بين العقل الاتكالي والعقل الديمقراطي، وهو جدل تكرسه طبيعة ابن آدم وطبيعة التفكير الإنساني، وهو بالتالي صورة عن قيام الأمة واستقلالها وإرادتها الحرة في مواجهة رغائب الكسل والخمول والاستسلام وثقافة القطيع.

هكذا رحل من العالم نقياً نظيف الكف، ولم يشأ أن يلغي إرادات الناس من بعده، ورحل مظمئناً لامة نجح في إيقاظها من رقادها، ويسر لها سبيل العطاء والإبداع والعمل، وتولى رجالها من بعده قيادة هذا العالم الحائر، ومارسوا كفاحاً نبيلاً نجح في جوانب وأخفق في جوانب، وفي النهاية أنجز قياماً حضارياً مدهشاً لا زال أرقى ما شهده هذا الشرق العجوز منذ فجر التاريخ، ولعله يشهد قياماً جديداً قبل نهاية الدهر.

وبعد ....

فهذه خمسة وعشرون موقفاً للرسول الكريم تخيّرْتها على سبيل الانتقاء من حياته الزاخرة بمواقف الشورى والحكمة والديمقراطية، ولا زالت هناك مواقف كثيرة للرسول الكريم وهو يمارس إدارة حكيمة لحركة التشريع عبر احترام المطلب الديمقراطي للناس، والعمل على تحقيق أعلى قدر من العدالة السياسية والاحتماعية. ومن هذه المواقف:

- أسلوبه في التدرج في تحريم الربا
- أسلوبه في معالجة حالات النفاق والردة التي عانت منها المدينة
- تغيير الحكم في آية وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، حيث اعترض الصحابة بأن هذا تكليف بما لا يطاق حيث لا سلطان للمرء على وسوسة الصدر، ثم رفع ذلك الحكم بقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها
- كان ممّا نزل الحرَ بالحرِّ والعبد بالعبد، وحين استسهل الناس حقوق العبيد نسختها آية أن النفس بالنفس
- كان مما نزل انفروا خفافاً وثقالاً، وفيها وجوب الجهاد على كل فرد في الأمة دون استثناء، فلما اعترض الناس وأصحاب الهمم جاءت الآية الناسخة: وما كان المؤمنون لينفروا كافة

- كان الصيام تخييراً فمن شاء صام ومن شاء دفع الفدية، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين، فلما تهاون الناس في أمر الصوم جاءت الآية الناسخة: فمن شهد منكم الشهر فليصمه
- كانت عدة المرأة المتوفى عنها زوجها سنة كاملة وفق الآية: متاعاً إلى الحول غير إخراج، فما اشتكت النساء طول العدة جاءت الآية الناسخة: يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً
- كانت عقوبة الزانية الحبس في البيوت حتى الموت: فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت، وكان رهقاً قاسياً، فجاءت الآية التالية ببيان حد الزنا.

وهذه محض أمثلة، وغيرها كثير، وكلها تؤكد حقيقة واضحة وهي أن الشريعة تتطور وتتغير وفقاً لحاجات الناس، وتحقيقاً لمصالحهم.

خاتمة: في حضرة الرسول – قراءة صوفية

ومع أننا نكتب هذه الأوراق في سياق حواري وبرهاني ولكنني أستأذن القارئ الكريم أن أقترب من رسالته بروح عاشقة وأتحدث إليه في قراءة مشتاق حائر على نسق شكوى وجواب شكوى، مزجت فيها شعري بنثري وأنا أتساءل في طبيعة رسالته العظيمة، وهي تتهادى من جنح الغيب وصايا سماوية علوية مفارقة ، ثم تتحول بين يديه إلى رسالة حوار وبرهان ديمقراطي، يدفع فيها الناس إلى الشراكة في اقتراح الشريعة، ويبعث فيهم إرادة الحياة، وينهض فيها العقل جذعاً لأداء رسالته، في مواجهة ركام الخوارق:

كم كان هائلاً عندما دنوت منه وقد أحرق محرابه بزفرات ثورته، وكنت أحس لهيب المحراب ذاته كلما تطلعت في مجد كفاحه:

أيها الثائر في أوثانه يملأ الأقدار طوفاناً وموجاً

أنا في الهيكل فامنحني إذن * فأسك الجبار إقداماً ووهجاً**

كانت مصافحتنا جريئة وبريئة، لقد مزقت سجاف الغيب، وأتيح لي اللقاء في ضياء العقل أكثر من ضباب الخوارق.

على شرفته في جبل النور كنت أطيل تأملي وحبي، وأرتقب بعض تلك النفحات الت يكانت تفيض على جبل النور فيسكبها لهذا العالم الحائر، أين غياثك أيها المعلم؟ حنانيك...

قد وهى صبري أما من نفحة * غير ما قد كان في غار حراء**
كيف ترجو العيش يوماً زهرة * حجبت عن ري أمطار السماء**

في سمائه العالية كنت أسعد بالإشراق في جوانح الذات، ولكنني أرجو أن لا يغضبه أنني أتطلع إلى إشراقه، ولكن على وفق ذاتي وليس على وفق ذاته، لقد تمكنت من إدراك سره ومجده وعرفت لماذا تحج إليه الأمم:

أيها الصادق أشواقك في * غارك العالي شفاء للقلوب**
كنت تلقيها على جنح الدجى * وتلقاها على جنح الغيوب**

القرآن في جوهره وثبة روح، لا تزال تطلق الهمم وتبث الأمل وتأتي بالعجائب، ولكن شأنه في التشريع محكوم بأسباب النزول وأسباب الورود، ويطرأ عليه النسخ والتقييد والتخصيص، ومع ذلك كله نرتله دون أن ينطفئ نوره أو يخمد لهيبه، فلماذا توقفت هذه الأمة عن سباق الإبداع الذي كانت تخوضه في ملعب العقل بعزيمة واقتدار؟

هكذا وقف أمامنا قبل أربعة عشر قرناً بكل شجاعة ويقين، يحلف اليمين على الأمر ثم يبدو له أن غيره خيراً منه فيتراجع بشجاعة وثبات، ويقول: كنت بالأمس قد أمرتكم واليوم أنهاكم، كنت نهيتكم واليوم آمركم، الإنسان أولاً، وبعد ذلك كل ما يكون من وحي او كتاب، وهل نزل الكتاب وجاءت السنة إلا من أجل مصلحة الإنسان.

كفاحك أيها المعلم في وجه الجمود كان رسالة للحياة، جئت تمنح الإنسان الحرية في وجه الكهنوت، وجئت تصفع في وجه الفريسيين والكتبة والمرائين الذين يقطبون وجوههم ناطقين باسم الرب، يتزلفون إلى العامة بالتحريم وإلى السلطان بالتحليل.

غارك العالي كان مرقاة تأملك، كنت تشرق بأطياف فؤادك فتغمر فضاء مكة بالحب والوصال، لم يكن مشروعك قد وجد النور بعد، ولكن قلبك كان يرسم لهم ملامح الدرب الذي نسجه الوحي الأمين:

يا نزيل الغار كم بالغار من حسرة حرّى وآمال حزينة
سارع الله كما تهوى بها * وأتى حلمك فيها بالمدينة**

غياثك أيها المعلم لا زال نداه ري العقل وفاكهة الروح، لن ننساك أيها المعلم وأنت ترسم رسالة الإشراق على هدي من ضياء العقل ونوره:

أيها الصداق كم حاربتها في ضمير الدهر أشكال الخرافة
ذات يوم أنت رويت الورى * من لهذا الشعب يكفيه جفافه**

الاجتهاد وريث النبوة، وعنوان ختمها، فالمطلوب ليس استنساخ تجربته وإنما خلق تجربة جديدة، والسنة ليست تقليد الأنبياء وإنما اتباعهم، وفرق ما بين التقليد والاتباع أن التقليد ينصب على النفوس المطموسة التي لا تحسن إبداعاً ولا تجيد اختراعاً، أما الاتباع فهو اتباع منهج وسلوك، ولا يكون المرء متبعاً حتى يخلق تجربته بيديه!
ليس المطلوب أن تهدم أوثانه، لقد هدمها بيديه، ولكن المطلوب أن تهدم أوثانك أنت، ليس المطلوب أن تقرأ برهانه، بل المطلوب أن تنتج برهانك أنت، إنه رجل الرسالات الباقيات
النبوة الخاتمة ميلاد العقل الاستدلالي، هكذا قال إقبال، إنه اليوم الذي أعلن فيه الرسول الانتقال إلى عصر العلم، وحدد مكان النبوات مصابيح إرشاد وليس أقفاصاً على العقل، وتجارب ملهمة وليست نصوصاً ملزمة، ومقوداً لأهل البصيرة وليست مركباً للعميان:

أيها الخاتم مجد الأنبياء ألف مرحى يوم ألغيت الخرافة
إنما الوهم الذي حاربته * عاد إرهاصاً ووهماً وعرافة**

الحركة هي ضمير الحياة، وما جدوى حي لا حراك فيه، وأسن الأفكار أشأم من أسن الأنهار، يمكث الماء فيأسن، ويسير فيعذب، لن تستحم بماء النهر مرتين، فكيف يسوغ أن تركد ساقية الفكر، ومن أين لساقية الفكر مهما كانت عذبة صافية أن تدوم عذوبتها إذا هي لم تتجدد كل يوم؟ أنت أيها المعلم الكبير كنت أعظم نهر يتجدد كل يوم، ولكن ماذا عنا؟ وهل بقي نهرك الهدار يغسل عن جنوبنا وضر الهمود؟ وهل طوفانك الضافي لا زال يملأ الوادي بالحب والحياة؟ أم أن نصيبنا منها نصيب الأبناء الفاشلين يحملون مجد الأجداد للأحفاد محض مجد تسمية، ليس لها وثبة المكلوم في وجه الحياة.

أيها الصـــادق كم من وقفـــة   قمت فيها ناسخاً حكم السمـــاء

وشجاعاً كنت في تغييرهـــــا   يا لنــا أتبـاع شؤم جبنـــــاء!!

إنه أيها المعلم موقف تاريخ وحاضر، يتنزل عليك الوحي حتى تتفصد عرقاً كأنما حط عليك جبل، ثم تفيق وانت تمسك به نصاً مقدساً تتلوه بخشوع ودموع، ويدونه لك كاتبوك، حتى تتهلل حروفه على صحائفهم كأنها قطعة قمر، وتتحدث إليهم إنه كتاب الله المبين وحبل الله المتين وإنه الفصل ليس بالهزل وإن أعلاه لمورق وإن أسفله لمغدق، من تمسك به فقد هدي إلى صراط مستقيم، ومن تنكبه فقد غوى في ضلال مبين، ولو تنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله!!

ولكنك أيها المعلم حين تطوي الحياة دولاباً آخر، وتستجد حاجات أخرى للإنسان فإنك تملك هيبة الأنبياء وشجاعة الفرسان، وصوفية الحقيقة العارية، وتقف أمام العالم لتقول: كنت قد أمرتكم وكنت قد نهيتكم.... ثم بدا لي وبدا لكم، وظهر ما يوجب حكماً جديداً لمصلحة الإنسان، فالإنسان أولاً في هذه الرسالة وبعد ذلك كل ما في الدنيا من حجر وتراب وقلم وقرطاس:

رب آيـات مـن الصـرف الصـراح   رتلتهـــا ألســـن المســـتغفرين

نســـخت يـــوم بـــدا أمـــر جديـــد * وهـي فـي مصـحف رب العـالمين**

إنه أمر مؤلم أيها الصادق أننا نقرأ سيرتك قراءة ببغائية دون أن نجرؤ على امتلاك ما فيها من عزيمة وعقل ويقين، لقد نسخت حياته القصيرة إحدى وعشرين آية، وثمانية وأربعين سنة صحيحة، أعلنت أن أحكامها لم تعد حاجة الناس في قيامها ونهوضها، وظللت يتلوها تلاوة المقدس وأنت يقول: إنها لم تعد تناسبكم، إنها أصبحت جزءاً من ماضي الرسالة وتاريخها، فتعلموا أيها الأتون من تعاقب القرون كيف تبنون مستقبلكم استلهاماً من رسالته وليس تقليداً لعبارته، أنه فهم دقيق لا تطيقه العقول المريضة:

كنت تقضي اليوم ما تمحو غداً تنسخ الماضي جهاراً وعياناً
لم تزل تصحو وتمحوه إلى * أن طواك الدهر والدهر طوانا**

كنت وقافاً عند حدود العلم، تجتهد بروح متوثبة وتؤمن بحركة الزمان، وحين تتغير الظروف تملك الشجاعة أن يقف أمام العالم وتقول: لقد قلت راياً وبدا لي خلافه، وإني إن شاء الله لا أحلف على يمين ثم أجد غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني....
لقد فعل ذلك عشرات المرات في مصحفه وسنته، وكان على أوفى حال من شجاعة التجديد والتطوير، وكان رائعاً في إعلان تاريخانية شريعته: كنت قد نهيتكم والآن آمركم، كنت قد أمرتكم والآن أنهاكم،خذوا عني .. خذوا عني... لقد رأى الله تقلب وجهي في السماء وها أنا أوافيكم بقبلة جديدة وأحكام جديدة، إنه يؤمن تماماً بدورة الحياة وتطور المعرفة وتغير الأحكام بتغير الأزمان:

أيها الصادق كم من نكبة قد نكبناها بنص مسند
لم تكن تعلم لما قلتها أنها دستورهم للابد

***

ها هي بين يديك أسئلتنا الصعبة التي نتكاتمها وهي تغلي في ضمائرنا، حاضرة في قلق جيل كامل، تعصف ذاته وتذرو رياحه وتهز وجوده، لماذا لم تنجح النبوات في تغيير الإنسان؟ وهل هناك أسرار في الكتاب لا تزال مقفلة مغلقة؟ وهل علينا ان ننتظر قروناً أخرى حتى تظهر حقائق التنزيل التي تبدو عيوننا عاشية عنا فلا نرى لها أثراً في إنقاذ الحياة.

إنها أسئلة جيل كامل نطرحها بين يدي هيبة النبوة ومقام الرسالة والرسول:

رسالتك أيها النبي الخاتم أكبر من ان تكون دفتراً للنظام الداخلي الذي يطبقه الموظفون بلا نور من العقل، ولا بصيرة من العرفان، السماء صحائف حكمتك والنجوم معالم إشراقك، تتدفق الحكمة في قلبك من الوحي الأمين، ترددها روحك البيضاء فتشرق في نفوس محدثيك، حين يتلألأ وجهك كأنه قطعة قمر.

ولكنني لا أكتم حيرتي أيها المعلم من رسائل الدهر القاسية التي لا يفتأ يلقيها على تجارب الأمم، وها أنا ذا أحتار في تراثه العظيم، كيف جف ذلك النهر الجبار؟ وأين شميمه وضميمه؟ وأين أزاهيره وخمائله؟ وكيف يمكن أن يعبر عنه اليوم هذا المجرى المائت الذي فيه يختصمون؟

أيها الشـــاهـــد ما للمستقى صار سقيـــا من دم مر وسم

إن ماء المزن تريـــاق الحياة ربمـــا يقتل حَبْطـــاً أو يلمّ

أيها المعلم .... هل جئت حقاً كما يقولون تختم النبوة وتحجب أبواب السماء عن التائقين إليها؟ أحقاً جئت لتحول الناس إلى مجتمع اتباع لا إبداع، لا أصدق أيها المعلم!! أنا أفهم رسالتك أنك أطلقت من بعدك نعمة الإشراق التي كانت تختص بها الأنبياء فمنحتها لكل قاصد يرتاد الوصال على جناح العشق والعرفان

مرتجى داود في مزموره أمل عاش عليه الحنفاء
وبه موسى دعا في طوره * رب فاجعل كل شعبي أنبياء**

كانوا يرتجون لشعوبهم نورها وإشراقها، ويفتحون أبواب السماء مجاديح، ليصلوهم بحقيقة ما يجري في الملأ الأعلى، ولكن لماذا إذن تضن علينا بوارق الإشراق؟
لقد تدفق بين عينيك نورُ الوحي كأنه بدر مكتمل في بطن صحراء مظلمة فكان نوراً وجمالاً وظلالاً، ومن راحتيك الطاهرتين تدفق جدول الحياة ترتوي منه الأمم رياً ورحيقاً، وهان نحن عند نبع جدولك نلتمس ما تلتمسه الأمم الحائرة.

ما النبوات التي كانت لكم غير أشواق وأذواق ونور
أشرقت شوقاً على أسماعكم * فجرت أنغامها فوق السطور**

إنها إذن رسالة مقدسة تلتمس عناء الإنسان ثم تشرق عليه من علُ بنفحات الملأ الأعلى، فتصل شوق الأرض بلهيب السماء، فلماذا تنطوي تلك الفصول من الإشراق؟ وما قيمة جسد لا تسري فيه تجليات الروح، وما مجد أمة أغلقت مواهب السماء وارتكست إلى وجع الأرض؟ ثم لماذا تضن الرسالة بعدئذ ولا زال العالم يتخبط في حيرته؟ ومن الذي أعلن انتهاء عناء الإنسان في الأرض حتى تنصرف عنه عناية السماء؟

فلماَا ختمت أنوارها رغم ما يشهده العالم هذا
ولماذا طويت أسرارها * ولماَذا ولماذا ولماذا؟**

إنه يعلم مكان هذه الأسئلة في ضمائر محبيه، تتصارع فيها نوازع الروح والقلب، ولكن لم يحصل من قبل أن تجرأ لسان على التقاطها من صفحة الفؤاد!!

ها أنا في حضرته العظيمة، ألتمس من نور عينيه جواب سؤالاتي الصاخبة، وهي سؤالات جيل كامل عصفت بمراكبه رياح الهول وزلزلت فيه الأرض زلزالها وأجرت أثقافلها وقال الإنسان مالها؟؟ لقد آن أن تحدث أخبارها، ومن حق هذه الأمة أن تفهم ما معنى انبعاث نور النبوة محض ربع قرن في زحمة القرون، ومض ومضة في صحراء الحجاز بين هدير الحضارات في قيامها وعثارها، وما معنى هذه الومضات الغاربة في زحمة ما نلقاه اليوم من هول العالم الصاخب.

نظر إلي، وسكت ساعة، ثم قال لي بعدما استرسلت عيناه في الكون الكبير:

يا عزيزي لا تلمني إنني خدمة للعقل أنهيت النبوة

لم أشأ أرضى لكم أوهامكم * فخذوا أقداركم عني بقوة**

هذا ما أعلنه صاحب الوحي الأخير! لا نبي بعدي!! لقد انتهت النبوة، وبدأ عصر الإنسان، انتهى الوحي وبدأ عصر العقل، السماء أصبحت تثق بالأرض، وعلى الإنسان أن يتدبر أمره منذ اليوم.

ما لكم ولرسالتي؟ لقد ألهبت بها أرض الحجاز، ورويت ترابها دماً وقرنفلاً، وأخصبت منهم أرضهم وأفئدتهم، أنا قد مضيت، وتمت كلمتي صدقاً وحقاً، ولكن أين رسالتك أنت؟ وأين لهيبك أنت؟

أنا ماضيك الذي تذخره بيد قل لي أينه مستقبلك

ثورتي البيضاء في أرض الحجاز * بيد قل لي أين منها ثورتك**

لقد رسمت لك بقصة كفاحي ثورة الإنسان وحكمة البرهان، وأسلمتك لأقدارك في سنن الآفاق والأنفس، ولكن أي تابع عاجز أنت إن كنت تنتظر زيتي لتسرج به مصباحك؟؟ لقد علمتك زراعة الزيتون، فلماذا تنتظر أن أرويك من جرتي وأنا قد أسلمتك بيدي إلى العِين العذاب!

إن مصـــباحي الــــذي أوقدتـــــه نـورك البـاقي علـى مـر العصـور

إنمـــا زيتـــك مــــن يســـرجه * لـيس زيتــي وأنـــا ابــن القبــور**

كيف أرسم غدي أيها المعلم؟ كيف رحلت ولم ترسم لي ملامح الدرب الذي علي أن أسلكه بعد؟ قل لي أين كنزت تلك الأسرار التي ترسم لي دربي؟

هز عطفيه ورفع حاجبيه المنهدلين وجفنه الغائر وقال لي وهو يشير إلى الأفق الغارب:

مجــدكم فـــي الأرض لا ترســـمه أنفـس تسـكن فـي جـوف المقـابر

فخــــذوا أقـــداركم وانتبهـــوا * واصـعدوا أنـتم علـى تلـك المنـابر**

وحين رآني مستغرقاً في شراك المدنية التي ملأت العالم بعبثها ولم تترك مكاناً للتأمل والبصيرة، راح يشرح لي بلغة أفهمها في غربتي البائسة عن عالم الروح:

أنـــا كـــالمرآة فــــي ســـيارتك إن تراني تبصـر الماضـي وراءك

بيـــد لا يكفيـــك مـــاض آفـــل * إنمـــا دربـــك أبصـــرة أمامـــك**

أتراها كانت ساعة حقيقة، أم خيط دخان؟ أيمكن لكلماته التي ملأت العالم بالنور أن تملأ قلبي، فتكون درس الحياة الذي يتدفق نبلاً وطهارة وعطاء كل يوم!

أيها المعلم الكبير .. أنت هو الحكمة الخالدة وأنت هو درس الحياة!!

وبعد....

فقد كانت هذه جولة سريعة في سيرة النبي الكريم حاولت فيها أن أتقرب من كفاحه لبناء العدالة الاجتماعية أو ما بات يعرف بالكفاح الديمقراطي.

ولا أشك أنني نقلت اجتزاء وانتقاء، وأنا على يقين بأن في الروايات أيضاً ما لا يستقيم مع هذه المعاني، وربما كان في الروايات ما يبرر الاستبداد ويناهض الديمقراطية، ولكنني أستطيع الجزم بأن ما نرويه من السيرة الكريمة هو الأكثر اشتهاراً عن الرسول الكريم، والأقوى في الإسناد والأقرب إلى رسالته ومقاصده ودعوته.

والانتقائية في النص الديني باتت ضرورة منهجية، وقد مارسها السلف الصالح من خلال الحديث عن النسخ وتقييد المطلق وتخصيص العام، والقول بالنص المتشابه، وهي آليات دعا إليها القرآن الكريم وكرسها، كما يمكن قراءتها في آية واضحة في القرآن الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ الزمر: ١٨

لقد بات من الواجب أن نقول كما قال علي بن أبي طالب: القرآن حمّال أوجه، وكذلك السنة والسيرة النبوية، ولا مندوحة من الاختيار، واختيار الرجل قطعة من عقله، ونختار هنا من حياة النبي الكريم ما هو أشبه بالقرآن الكريم وأكثر تحقيقاً لقيم العدالة والديمقراطية.

إنني آمل أن تكون هذه الرسالة مناسبة لتقديم الصورة المنطقية المناسبة لرسالة النبي الكريم، وحياته الطاهرة.

إن البحث عن القدوة الحسنة المقدسة للناس هو أمر غريزي فطري، وحاجة إنسانية حقيقية، حتى لو كنت يسارياً لا تؤمن بالنبوات كلها فإنني أعتقد إن وجود شخصية

تاريخية تشكل أسوة أخلاقية حسنة لمليار إنسان في الأرض هي هدف أخلاقي واجتماعي يتعين الحفاظ عليه واحترامه وتنقية ما لحق به من شوائب.

يصرح فولتيير أن الله ضرورة أخلاقية للمجتمع وأنه حتى في افتراض عدم وجوده فيجب صناعة مقدس مقنع تلتف حوله القلوب وتنقاد إليه الضمائر.

إن تكريس مكان الرسول محمد كرمز مقدس ومثل أعلى وذاتٍ طهور يطوف حولها الإنسان في بحثه عن المثل الأعلى ليس مجرد كلام عاشق للرسول يرسم مشهد حبه بعواطفه وشعره، إنه موقف حكماء العالم الذين أدركوا بالبحث والبصيرة واليقين دور رسول الله الإنساني والاجتماعي وأعلنوه أعظم عظماء التاريخ.

لا نحتاج لتأكيد ذلك أكثر من أن نقرأ ما كتبه تولستوي وبرناردشو وجوته وغوستاف لوبون وجان جاك روسو وول ديورانت ومايكل هارت والمهاتما غاندي وتوماس كارليل وجورج ويلز ونلسون مانديلا.....

والقائمة تطول، ولا أظن أن أياً من هؤلاء الرجال حوّل دينه ليصبح مسلماً ولكنهم جميعاً أظهروا ابتهاجاً إنسانياً لوجود شخصية كهذه يلتزم الاقتداء بها مليار إنسان في الأرض، وهي تكرس فيهم دعوة للسلام والمحبة والإخوة

كتب الفيلسوف الفرنسي لامارتين: إذا أخذنا بكل مقاييس العظمة..... فلن يكون هناك في التاريخ أعظم من محمد.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ الأحزاب: ٢١

مصادر البحث

- القرآن الكريم
- الجامع الصحيح للإمام محمد بن اسماعيل البخاري طبع دار طوق النجاة الرياض 2002
- الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري طبع دار الفكر بيروت 1988
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، طبع دار الفكر بيروت 1994
- سنن النسائي، أحمد بن شعيب، طبع دار الكتب العلمية، بيروت/ 1991
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث طبع دار الفكر بيروت 1990
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد، دار الفكر بيروت 1988
- موطأ الإمام مالك بن أنس، طبع مؤسسة زايد بن سلطان، ابو ظبي، 2004
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية أحمد بن عبد الرحيم، دار البيان ، دمشق 1985
- تهذيب الكمال في معرفة الرجال، الحافظ المزي، يوسف بن عبد الرحمن، الرسالة بيروت 1980
- مغني المحتاج، الخطيب الشربيني، شمس الدين محمد بن أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت 1994
- الفواكه الدواني على رسالة أبي زيد أحمد بن غنيم القيرواني، دارالفكر بيروت 1995
- دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دارالكتب العلمية بيروت 1988
- فتح الباري، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت 1960
- العمدة في إعداد العدة، تأليف عبد الرزاق عبد القادر، لا يتوفر طباعة، وهو متوفر على النت
- المعجم الأوسط، الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين بالقاهرة 1995
- مسند عبد الرزاق بن همام الصنعاني، طبع المكتب الاسلامي ، بيروت 1403
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، طبع دار الميمان، الرياض
- مسند البزار، أحمد بن عمر العتكي، طبع مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة 1988
- مناهل العرفان، أحمد بن عبد العظيم الزرقاني، طبع عيسى البابي الحلبي، 1966
- فيض القدير، المناوي، محمد عبد الرؤوف، طاع دار المعرفة، بيروت 1972
- جزء أحاديث أبي الزبير، عبد الله بن محمد الأصبهاني الأنصاري، مكتبة الرشد، الرياض، 1996

- **زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، مؤسسة السالة، بيروت، 1996**
- **سبل السلام، محمد بن اسماعيل الصنعاني، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة 1960**
- **السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، دار الجيل، بيروت، 1991**
- **تاريخ المدينة، ابن شبه عمر بن عبيدة، طبع على نفقة حبيب محمود، جدة، 1979**
- **عيون الأثر، ابن سيد الناس محمد بن محمد، دار القلم، بيروت، 1993**
- **الفواكه الدواني على رسالة ابي زيد القيرواني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997**
- **سير اعلام النبلاء، الحافظ الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 2006**
- **تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، دار الرسالة، بيروت، 1996**
- **الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، دار المعرفة، بيروت، 2004**
- **إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1975**
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر يوسف بن عبد الله ، دار الجيل، بيروت، 1992**
- **الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988**
- **الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد، دار الكتب المصرية، 1964**
- **الآثار، للقاضي ابي يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988**

الفهرس

﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾

الأحزاب: ٢١